

أَحْسَنُ تَفْسِيرٍ لِلْقُرْآنِ بِفَيْضٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

مَجَالِسُ الْمَلِكِ يَزِيدَ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

الجزء الرابع والثلاثون بعد المائة
الآية ١٥٦ سورة آل عمران

المرجع الديني للمسلمين

الشيخ صالح آل عطائي

أساذلفة والأصول والتفسير والأخلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي حمد نفسه في القرآن والتوراة والإنجيل ليصاحب الحمد له سبحانه أهل الأرض في كل مكان، وآن من آتات زمانهم، الحمد لله الذي جعل حمدهم له يدخل معهم القبر واقية وأمناً من غير أن يغادر الدنيا حينما يفارقونها كرهاً.

الحمد لله عدد ما خطت وتخط الأقلام ليكون هذا الحمد شكراً له سبحانه على كل حرف كتب في اللوح المحفوظ، وكل حرف كتبه الإنسان في مرضاة وطاعة الله وإستدراكاً وإستغفاراً عن كل حرف كتب في المعصية الذي يزول رسمه وأثره ولكن الحمد لله ناسخ له إلى يوم القيامة، وهو من مصاديق ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾^(١)، فيفضل الله عز وجل بمحو ما كتب من ضروب السوء والقبايح، ويثبت الحمد له سبحانه في سجل العباد ليكون من مصاديق عبادة الناس له تعالى في الأرض، وسنخية شهادة الملائكة للناس، وهو من وجوه التحدي في رد الله عز وجل على الملائكة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢)، عندما إحتجوا على جعل آدم خليفة في الأرض ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٣).

فمن علم الله في المقام وجوه :

(١) سورة يوسف ٨٤.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

الأول : عمارة الناس الأرض بالحمد لله والثناء عليه وتسييحه والإقرار بالربوبية المطلقة له تعالى.

الثاني : إحياء قلوب العباد بالإستغفار، وصيغ الإنابة .

الثالث : تفقه المسلمين في الدين وتوقيهم من إزلال الشيطان الذي يقود إلى الفساد وسفك الدماء ، فان قلت قد ذكرت الآية السابقة هذا الإزلال وإصابة طائفة من المسلمين به بقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ ﴾^(١)، والجواب من جهات:

الأولى : ورد هذا الإزلال والمسلمون يجاهدون لإستئصال الفساد في الأرض.

الثانية : بقاء الذين تولوا من المسلمين على مناهج الإيمان، والتقيد بأحكام الإسلام، ويدل عليه شمولهم بالنداء العام (يا أيها الذين آمنوا).

الثالثة : تتضمن الآية السابقة بياناً لأضرار الكفر والجحود وكيف أنه يسبب الإفساد لولا فضل الله عز وجل ، إذ صار هجوم الذين كفروا على المسلمين مقدمة لإزلال الشيطان لهم بسبب شدة الهجوم لإقامة الحجة على الذين كفروا، وبيان فضل الله عز وجل على المسلمين والناس بدحر جيش الذين كفروا ، وتنجز فتح مكة.

الرابع : المنافع العظيمة لإخبار الله للمسلمين عن صد الذين كفروا والمنافقين عن الدفاع عن كلمة التوحيد فهذا الإخبار مقدمة لمحاربة الفساد، والمنع من سيادته في الأرض، وحينما زحف كفار قريش لقتال المسلمين في معركة أحد ، هل كانوا على إتفاق وترتيب مع الذين كفروا في المدينة بصد الأنصار عن القتال، الجواب لا يبعد هذا ، وقد ذهب بعض المنافقين والفساق من المدينة بعد معركة بدر إلى مكة

لتحريض قريش والله عز وجل يعلم ما يفعله الذين كفروا من المكر والدسائس ، ففضل وأخبر رسوله الكريم والمسلمين والمسلمات بها للإحتراز منها.

وفي قوله تعالى ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾^(١) ذكر أن كعب بن الأشرف كان يحرض المشركين على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ويهجوهم وكعب بن الأشرف من قبيلة طي وأحد بني نبهان ، وكانت أمة من بني النضير ، وأصابه الدهول حينما قدم البشير بنصر المسلمين في معركة بدر وقتل سادات ورؤساء من قريش مثل أبي جهل ، وهو رئيس جيش الذين كفروا يومئذ وأسمه عمرو بن هشام بن المغيرة من بني مخزوم ، وقتل معه أخوه العاص بن هشام بن المغيرة ، وقتل عتبة بن ربيعة وأخوه شيبه وإبنة الوليد ، وحنظلة بن أبي سفيان والعاصي بن سعيد بن العاص ، وزمعة بن الأسود بن عبد المطلب وأميمة بن خلف وإبنة علي بن أمية وغيرهم .

فخرج كعب بن الأشرف إلى مكة وحالف قريشاً عند أستار الكعبة على قتال المسلمين ، وحينما سأله قريش : أديننا أهدى أم دين محمد قال : دينكم .

وأخذ يطوف على بطون قريش ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يأمر حساناً بهجاء الذين يأوي إليهم كعب فطردوه .
قال ابن إسحاق (ثُمَّ رَجَعَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَشَبَّ بِنِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى آذَاهُمْ)^(٢).

(١) سورة آل عمران ١٨٦.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٥٤/٢.

وفي قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرْذُوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ..﴾^(١) ورد عن الإمام علي عليه السلام أنه قال (يعني المنافقين في قولهم للمؤمنين عند الهزيمة : ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم)^(٢).
الخامس : الإعجاز في أثر آية البحث باستيلاء الحسرة على قلوب
 الذين كفروا ، والذي يدل بالدلالة التضمنية على خيبتهم وخسرانهم ،
 فكما خاب ورجع الذي كفروا من قريش بالأسى والحسرة من معركة
 أحد كما يدل عليه قوله تعالى ﴿فَيَنْتَقِلُوا خَائِبِينَ﴾^(٣) ، فان المنافقين
 أصيبوا بالخيبة والإخفاق .

ولقد جاء الكتاب والسنة بالندب إلى الاستغفار والحث عليه ،
 وبيان فضله ، ومن الآيات إقتران اسم الرحيم مع الغفور في مواضع
 عديدة من القرآن كما في قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرْ
 اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٤) ، إذ تتضمن الآية الوعد الكريم المتعدد من عند
 الله ، فلا يقف الأمر والفضل الإلهي عند حد المغفرة حينما يستغفر
 العبد عن ذنوبه وسيئاته بل تتضمن الآية أعلاه الوعد بضروب من
 رحمة الله من جهات :

الأولى : نزول رحمة من عند الله ملازمة للإستغفار من العبد.
الثانية : تعقب الرحمة للإستغفار، وتحتمل ماهية هذه الرحمة
وجوهاً :

(١) سورة آل عمران ١٤٩.

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ٢٤٣/٣.

(٣) سورة آل عمران ١٢٧.

(٤) سورة النساء ١١٠.

أولاً : الرحمة المتجددة من ذات سنخية الرحمة التي تلازم الإستغفار.

ثانياً : إنها وجوه جديدة من الرحمة.

ثالثاً : الجامع المشترك للوجهين أعلاه.

والصحيح هو الأخير أعلاه، لأن الرحمة التي يتضمنها الوعد الكريم في خاتمة الآية أعلاه يتغشى العوالم الطولية الثلاث :
أولاً : أيام الحياة الدنيا.

ثانياً : مدة البرزخ والقبر، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما غرك بي ، ألم تعلم أنني بيت الفتنة ، وبيت الظلمة ، وبيت الوحدة ، وبيت الدود ، ما غرك بي إذ كنت تمر بي فدادا ، فإن كان مصلحا أجاب عنه مجيب القبر فيقول : أرأيت إن كان ممن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فيقول القبر : إنني إذا أعود عليه خضرا ويعود جسده نورا ، يصعد بروحه إلى رب العالمين^(١).

ثالثاً : عالم الآخرة ، وما فيها من الأهوال.

للتضمن الآية أعلاه الوعد الكريم من عند الله بما هو أعم وأعظم مما ورد في حديث النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من المخرج والفرج والرزق من غير إحتساب ، بالإضافة إلى أن الحديث مقيد بملازمة وتعاهد الإستغفار لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : من لزم الإستغفار) ، أما الآية أعلاه فلم تقيد بالإستغفار بالتعدد والتكرار.
الثالثة : إدراك المسلم لمصاديق من الرحمة التي يتغشاها الله عز وجل بها وإمهاله له قبل أن يدركه الإستغفار .

الرابعة : ذات الآية أعلاه رحمة من عند الله عز وجل لما فيها من أمور :

(١) الأحاد والمثاني لابن أبي عاصم ٤٩٩/٦.

أولاً : تقسيم الأعمال إلى قسمين :

الأول : عمل الخير والصلاح .

الثاني : عمل السوء وظلم النفس .

ثانياً : تنبيه وتحذير الناس من أعمال السوء .

ثالثاً : صحيح أن الآية أعلاه جاءت بصيغة الجملة الخبرية ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ

اللَّهُ﴾^(١) إلا أنها تتضمن في دلالتها البعث على الإستغفار والترغيب فيه .

رابعاً : بعث النفرة في نفوس المسلمين والناس من عمل السوء ،
وإذا أجريت إحصائية في العالم لوجدت أن المؤمنين أقل الناس فعلاً
للسيئات وإرتكاباً للمعاصي ، ولا عبرة بالقليل النادر .

الثالث : كل آية من القرآن وأثرها المبارك ونفعها في النشاطين من
العلم الذي لا يحيط به إلا الله عز وجل .

ومنها آية البحث التي تخاطب المسلمين بصيغة الإيمان (يا أيها
الذين آمنوا) وفيه غاية الإكرام ويقوم الملائكة أنفسهم بالنزول بهذا
النداء من عند الله عز وجل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم
ليصاحب أيام الدنيا وحال التقوى التي يتصف بها المسلمون ، وتلاوتهم
وتعاهدهم لآية البحث كل يوم وإلى يوم القيامة سواء في الصلاة
الواجبة أو المستحبة أو خارج الصلاة .

الرابع : كل آية من القرآن والتنزيل مطلقاً حرب على الفساد ،
وبرزخ دون سفك الدماء في الأرض .

الخامس : إتخاذ المسلمين آيات القرآن واقية من النفاق ومفاهيمه .

السادس : تفضل الله عز وجل يبعث الأنبياء وإنزال الكتب
السمائية لمنع الفساد في الأرض ، وحصانة الناس من القتل ،

ومن إعجاز القرآن مجيؤه بالحكم بالقصاص والقتل لإستئصال ذات الفساد والقتل من الأرض، قال تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١).

وفي هذا الحكم بعث لعدم الخوف من المفسدين أو التهديد بالقتل بالباطل، ودعوة سماوية للطمأنينة بأن الذي يقتل يقتص من قاتله، وفيه تنمية للملكة العدل في الأرض وإستدامة لأداء المسلمين للصلاة والأفعال العبادية بطمأنينة وبيان للتخفيف عنهم في الحياة الدنيا، فبعد أن كان الذين كفروا يهجمون بجيوش عظيمة يبلغ عدد أفرادها في كل مرة نحو ثلاثة أضعاف عدد جيش المسلمين لحملهم على ترك الإسلام سواء في معركة بدر في السنة الثانية للهجرة التي زحفوا في شهر رمضان منها بنحو ألف من الرجال أو معركة أحد في السنة الثالثة التي ساروا في شوال منها بثلاثة آلاف رجل، أو في معركة الخندق التي حضروا بها إلى أطراف المدينة وحواليها بعشرة آلاف رجل، وهو جيش لم تره الجزيرة منذ هجوم إبراهيم وإرادته هدم الكعبة فاخزاه الله، قال تعالى ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَصَفِّ مَأْكُولٍ﴾^(٢).

ترى لماذا لم يجعل الله الذين كفروا من قريش مثل أصحاب الفيل ليكونوا عبرة للناس، ويكون هلاكهم مقدمة لفتح مكة من حين السنة الثانية أو الثالثة للهجرة، ولم يقف الأمر عند رجوعهم بندم وحسرة من معركة أحد وما لحقهم من الخزي والهوان، كما قال تعالى ﴿فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(٣)، أي أن الذين كفروا من قريش إختاروا الرجوع والعودة

(١) سورة البقرة ١٧٩.

(٢) سورة الفيل ٣-٥.

(٣) سورة آل عمران ١٢٧.

إلى مكة في نفس يوم المعركة بسبب الرعب الذي قذفه الله في قلوبهم، وثبات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في ميدان المعركة، والصبر الذي تحلى به المسلمون وتفانيهم في القتال في سبيل الله.

الحمد لله الذي بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رسولاً للناس جميعاً بالبشارة والإنذار المصاحبين للحياة الدنيا ، وتتجلى البشارة للمؤمنين في الآخرة بأبهى صورة ونعم خارقة للتصور الذهني ، والإنذار للذين كفروا بالعذاب الأليم .

وتتضمن كل آية من آيات القرآن البشارة والإنذار في منطوقها أو مفهومها ، وقد أسسنا أبواباً جديدة في تفسير كل آية منها :

الأول : سياق الآيات .

الثاني : إعجاز الآية الذاتي .

الثالث : إعجاز الآية الغيري .

الرابع : الآية سلاح .

الخامس : مفهوم الآية .

السادس : الآية لطف .

السابع : إفاضات الآية .

الثامن : الصلة بين أول وآخر الآية .

التاسع : إكرام الآية للمسلمين .

العاشر : أسباب النزول .

الحادي عشر : من غايات الآية .

الثاني عشر : التفسير .

وبلحاح منطوق ومفهوم الآية يمكن أن نؤسس باباً مستقلاً لكل

من:

الأول : الآية بشارة ، وهو على شعبتين :

الأولى : بشارات الآية في الحياة الدنيا .

الثانية : بشارات الآية في الآخرة .

الثاني : الآية إنذار ، وهو على شعبتين :

الأولى : إنذارات الآية في الدنيا .

الثانية : إنذارات الآية في الآخرة .

اللهم صل على رسولك الكريم محمد وآله الطيبين ، والذي كان إذا إستيقظ من نومه قال : "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ"^(١).

لقد أراد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلم أن يبدأ نهاره بالحمد لله ليكون فاتحة أعماله ، وقبساً من ضياء ينير له دروب الهداية والرشاد وفيضاً مباركاً يتغشى ساعات النهار ، وبهجة تملأ النفس والأركان بأن يكون المخاطب هو الله عز وجل بجملة خبرية هي شهادة على الذات وللذات لتدخل السرور إلى أهل القبور لما فيها من تعاهد لمعالم الإيمان وسنن الهداية .

وفي قول الحمد لله لجوء إلى الله وإستجارة به تعالى ، ورجاء للمدد من فضله وإحسانه ، ومن الآيات في دعاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وثنائه على الله بقوله (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا). مجئ الحمد والثناء أعلاه بصيغة الجمع (أحياناً) لإفادة أنه يشكر الله عن نعمة دوام حياته وحياة المسلمين وكذا بالنسبة للمسلم حينما يأتي بهذا الثناء ، ليكون واقية من نزول البلاء ودفعاً للفتن .

ولما خاطبت آية البحث المسلمين بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فإن من مصاديق الإيمان تعاهدهم مجتمعين ومتفرقين قول الحمد لله ، وبه تتجلى حقيقة التنافي والتضاد بين المسلمين والذين كفروا إذ يفتح المسلمون يومهم بقول (الحمد لله)

وفيه براءة من الشرك وحرب على الكفر ، وبعث للخوف والياس في قلوب الذين كفروا ، ومن رشحات التنزيل نطق إمام الجماعة في كل فرض من الصلاة اليومية بقول (الحمد لله) فيعم جميع المأمومين ثواب نطقها .

وكل فرد من أدعية وسيرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حرز للمسلمين والمسلمات في القول أو الفعل .

سبحان الله بعدد مداد كلماته التي هي من اللامتناهي ، قال تعالى ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾^(١).

سبحان الله في كل آن ومكان ، وليل أو نهار ، سبحان الله بعدد الخلائق بلحاظ أن كل فرد منها شاهد على بديع صنعه ، وعظيم قدرته وواسع سلطانه .

سبحان الله الذي يرزق من يشاء بغير حساب ، ذي المواهب الجزيلة ، وقد تفضل علينا بهذا الجزء من (معالم الإيمان) وهو الرابع والثلاثون بعد المائة ، وجاء خاصاً بتفسير الآية السادسة والخمسين بعد المائة من سورة آل عمران والتي تبدأ بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ . . .﴾^(٢).

إذ تبدأ الآية بالنداء للمسلمين بصفة الإيمان ، وهل تختص الآية بالذكور من المسلمين ، الجواب لا ، إنما جاء لفظ التذكير ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لغلبة الذكر على المؤنث في لغة الخطاب وإرادة المقصود ، وقد قال المتنبّي في رثاء أم أحد الأمراء :

(١) سورة الكهف ١٠٩.

(٢) سورة آل عمران ١٥٥.

فلو كان النساء كمثّل هذي ... لفضّلت النساء على الرجال
وما التّأنيث لاسم الشمس عيبٌ ... ولا التذكير فخرٌ للهِلال^(١)
وهو كلام شاعر في مدح الملوك والتزلف إليهم ، لا يصح
الإستدلال به ، نعم المدار على المسمى وليس الاسم ، ووصف القرآن
للمسلمين بصيغة الإيمان مطلق في الاسم والمسمى ، وهو من مصاديق
قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢) ، وتقدير آية البحث : يا أيها
الذين آمنوا رجالاً ونساءً .

ولا تلحق المرأة الرجل بالإيمان ، إنما تكون بعرض واحد معه في
التكليف والواجبات إلا ما خرج بالدليل مثل الجهاد وسقوط الصلاة
عن المرأة أيام الحيض ، ويتوجه الخطاب في آية البحث إلى المرأة أيضاً
بلزوم التنزه عن مشابهة الذين كفروا في صدّهم الناس عن الجهاد في
سبيل الله لتكون آية البحث دعوة للمسلمين والمسلمات للعصمة عن
النفاق .

لقد نصر الله عز وجل المسلمين بمعركة أحد نصراً عظيماً ، ومن
فضل الله عز وجل عليهم عدم إنقطاع أسباب ومقدمات النصر إذ أنها
تتري وتتجلى كل يوم ، فكل آية من القرآن تنزل على النبي محمد صلى
الله عليه وآله وسلم هي نصر وفتح ومقدمة للنصر ، وهو من أسرار
نزول القرآن نجوماً وعلى نحو دفعات وعدم نزوله دفعة واحدة ، ومنه
معاني ودلالات أسباب نزول آيات القرآن لبيان حضور التنزيل
والملائكة مع المسلمين في حال الحرب والسلام .
وتحتل آية البحث وجوهاً :

الأول : آية البحث مقدمة للنصر في معارك الإسلام اللاحقة لنزولها .

(١) يتيمة الدهر ١/٤٠٢ .

(٢) سورة آل عمران ١١٠ .

الثاني : آية البحث تأكيد وتثبيت للنصر في المعارك السابقة لنزولها ، وهي معركة بدر ومعركة أحد ، قال تعالى ﴿ وَيَنْصُرُكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ﴾ ^(١) .

الثالث : آية البحث نصر للمسلمين قائم بذاته .

الرابع : لا صلة بين نزول آية البحث وموضوع النصر الذي يكون محله ميدان المعركة .

وباستثناء الوجه الأخير أعلاه فان الوجوه الثلاثة الباقية من مصاديق ودلالات آية البحث.

لقد تقدم قبل سبع آيات ذات خطاب المسلمين بصفة الإيمان بقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وبينهما نوع تساو من جهة الخطاب إذ يتوجه كل منهما إلى المسلمين والمسلمات ، وقد يختلف عدد المسلمين بلحاظ أوان نزول كل من الآيتين ، فيكون عددهم عند نزول الآية اللاحقة أكثر من عددهم عند نزول الآية السابقة ، ولكن العدد ذاته من جهة تلقي الخطاب بعد أوان النزول وانتقال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى ، لتوجه كل منهما إلى عموم المسلمين والمسلمات ، ولابد من تأسيس قانون وهو نظم وسياق آيات نداء الإيمان أي التي تتضمن قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وعددها تسع وثمانون آية .

وهذا القانون على شعبتين :

الأولى : سياق ومعاني نداء الإيمان وفق نظم آيات وسور القرآن ، فأول آية وفق سياقه تضمنت هذا النداء هي ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا ﴾ ^(٢) .

(١) سورة الفتح ٣.

(٢) سورة البقرة ١٠٤.

الثانية : سياق نداء الإيمان حسب زمان النزول ليجتهد العلماء في ترتيبه حسب أوان النزول بلحاظ أخبار وأحاديث أسباب النزول ومضامين الآيات التي جاءت بخصوصها والذخائر التي فيها، وهو من أسرار توثيق نزول آيات القرآن وحصرها زماناً ومكاناً .

ويدل ظاهر آية البحث على تعلق موضوع الآية بوقائع معركة أحد، ولا يكون عدم الدقة في تعيين أوان نزول كل آية من آيات نداء الإيمان مانعاً دون التدبر في معانيها والصلة بينها .
لقد أنعم الله عز وجل على المسلمين والمسلمات بصيرورة نداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مصاحباً لهم في حياتهم .

وهل يصاحب هذا النداء المسلم حين البلوغ بلحاظ أنه زمان التكليف ، المختار أنه يصاحبه قبل هذا الأوان ، ليكون مصلحاً له ومقدمة للهداية والصلاح .

ومن الإعجاز دعوة هذا النداء لهم للعمل بمضامين الآية التي يرد فيها ، والآيات الأخرى من القرآن ، فإن قلت قد علمنا أنه دعوة للعمل بمضامين الآية التي تفتح به فكيف يكون باعثاً للعمل بمضامين آيات القرآن الأخرى ، الجواب من وجوه :

الأول : ترشح وجوب التقيد بالأوامر والنواهي من صيغة الإيمان ، وتقدير النداء: يا أيها الذين آمنوا إعملوا بأحكام الإسلام وسنن الإيمان.
الثاني : النداء بصفة الإيمان يشبه في النفوس ، ويجعله ملكة ثابتة عند المسلمين ، قال تعالى ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ يُزَادُهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيمانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾^(١).

الثالث : لفظ الذين آمنوا زاجر عن المعاصي ، وعن الإبتعاد عن سنخية الإيمان .

الرابع: حث المسلمين على شكر الله عز وجل بندا ثم بصفة الإيمان.
الخامس : عطف أكثر آيات القرآن بعضها على بعض في آية عقائدية ودلالات إعجازية تترشح عنها العلوم وتفيض عنها الذخائر إلى يوم القيامة ، وهذا العطف والمسائل التي تنفرع عنه من كنوز القرآن التي تحت أجيال المسلمين والناس جميعاً على النهل منها وإلى يوم القيامة ، إنها شاهد على أن أسرار ومعجزات القرآن عقلية حقاً ، وأنها لا تنفذ أبداً .

لذا ترى القرآن يتحدى الناس بقوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(١).

وهل في الآية أعلاه حث لعلماء المسلمين وترغيب لهم جميعاً بعلم التفسير ومفاهيم التأويل ، الجواب نعم ، ليكون هذا العلم مناراً ونبراساً ، وهو من مصاديق الهدى في قوله تعالى ﴿هُدًى لِّلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ﴾^(٢) ، بلحظ أن هذا العلم يهدي إلى سبل الرشاد ، وهو عون ومدد لبلوغ المراتب السامية في الجنان .

ومن معاني ودلالات مجيئ النهي بعد صفة الإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا﴾^(٣) ، ترشح الأحكام التكليفية الخمسة على الإيمان وهي :

الأول : الوجوب ، وهو ما ورد لزوم فعله في الكتاب والسنة على نحو الجزم والحث ، وفي إتيانه الأجر والثواب ، ولا يجوز تركه إختياراً ويؤثم من تركه ، ويمكن تقسيم الواجب إلى أقسام :

أولاً : الواجب العبادي ، وهو على شعبتين :

(١) سورة محمد ٢٤.

(٢) سورة الفاتحة ٦.

(٣) سورة آل عمران ١٥٦.

الأولى : الواجب العبادي المطلق كالصلاة .

الثانية : الواجب العبادي المقيد كالحج ، فهو مقيد بالإستطاعة ، قال تعالى ﴿ وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ ^(١).

ثانياً : الواجب في المعاملات كوجوب النفقة على الزوجة.

ثالثاً : الواجب في عالم الأفعال كفعل الصالحات ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال تعالى ﴿ وَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ ^(٢).

رابعاً : الواجب في الأحكام والحكم منها الحكم بالعدل ، قال تعالى ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ ^(٣).

الثاني : الندب والإستحباب وهو الذي ورد الحث على فعله في الكتاب والسنة وفي فعله الأجر والثواب ، ولا إثم على من تركه إختياراً.

الثالث : المباح وهو المشروع الجائز بذاته كشرب الماء وأكل الطيبات ويقابله المحظور .

الرابع : المكروه وهو ما يرجح تركه شرعاً ، وفي تركه الثواب ولا إثم في فعله ، ومنهم من أضاف قسيماً آخر للمكروه وهو المكروه تحريماً وهو الذي يكون أقرب إلى الحرام ، كأنه برزخ بين الكراهة والحرام .
الخامس : الحرام وهو الذي يجب تركه ، ويؤثم الإنسان على فعله .
وأما الجواز الذي لم يرد فيه نهى شرعي فهو عام يشمل الواجب والمندوب والمباح والمكروه .

(١) سورة آل عمران ٩٧.

(٢) سورة آل عمران ١٠٤.

(٣) سورة النساء ٥٨.

لقد إبتدأت الآية التي إختص هذا الجزء من سفر (معالم الإيمان) بتفسيرها بالنداء التشريفي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ليدخل معها المسلم في رياض ناضرة ، وأبواب جنان مفتحة ، وكأن هذا النداء مقدمة وشاهد الغبطة في الدنيا ، وبشارة النعيم في الآخرة .

ويقترن لفظ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مع عمل الصالحات وإتيان الخيرات في آيات عديدة من القرآن ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِّ﴾^(١).

وقد يأتي لفظ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ منفرداً بمعناه مع إقترانه بالثناء والبشارة ، قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾^(٢)، لذا فان أول آية البحث ثناء على المسلمين ، ومن إعجاز القرآن أنه يتضمن الثناء على المسلمين الذين يتلونه وبلغه الخطاب .

لقد وردت آيات القرآن بالفصل والتمييز بين الذين آمنوا والذين كفروا في الدنيا ، وفي الآخرة فتضمنت آية البحث مصداقاً لهذا الفعل ومن الإعجاز أنه يأتي من وجوه :

الأول : نزول النهي من عند الله للمسلمين والمسلمات .

الثاني : بيان ماهية النهي من غير لبس أو تردد .

الثالث : بعث النهي النازل من عند الله المسلمين على التفقه في

الدين ، ومعرفة قانون ، وهو لزوم عدم التشبه بالكفار في دعوتهم للباطل .

(١) سورة البينة ٧.

(٢) سورة محمد ٣.

الرابع : تلقي المسلمين الأوامر والنواهي من عند الله بالقبول والإمتثال ، وفيه تنمية للملكة التقوى عندهم .

الخامس : إقامة الحجة على الذين كفروا وإسقاط ما في أيديهم .
ومن إعجاز القرآن أن الكلمات المحدودات منه تأديب وإرشاد لأجيال المسلمين إلى يوم القيامة بما تعجز عنه أي حكومة أو مؤسسات إصلاحية .

يتلو المسلمون هذه الكلمات كل يوم ، ويقتبسون منها المواعظ والحكم ، وهل هذه المواعظ متحدة أم متعددة وتوليدية ، الجواب هو الثاني .

وتبين آية البحث موضوعاً وفعلاً قبيحاً يصدر عن الذين كفروا والمنافقين ، وهو السعي في منع المسلمين الذين يخرجون للدفاع ويريدون الجهاد في سبيل الله ويسعون في الكسب والتجارة من الخروج والسفر ، وإذا قتلوا أو حصل لهم أمر أظهروا الشماتة ، وإدعوا أنهم كانوا حريصين عليهم .

لقد سعى المنافقون لبيان أمر ، وهو أن القعود عن القتال يدفع القتل ، وأن حضوره سبب للقتل ، فجاءت آية البحث لتوثيق قولهم وفعلهم مقروناً بالذم لهم ، وفيه دعوة للمسلمين للتسليم بمشيئة الله والرضا بقضائه .

ولم تنف آية البحث أن حضور الحرب قد يسبب القتل ، ولكنه أمر مكتوب على المسلمين خاصة وأنهم لم يبدأوا القتال سواء في معركة بدر أو أحد أو الخندق أو حنين ، ولم يسعوا لأي من هذه المعارك ، فكان الذين كفروا هم الذين يقدمون مهاجمين غازين فيرجعون ليس بخفي حنين فقط كما يقال ، إنما يرجعون بالذل والهوان ، قال تعالى ﴿فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(١).

ولم يكن إحتجاج الذين كفروا خاصاً بالقتال فيشمل حتى السفر للتجارة والكسب والسفر مطلقاً ، ومن وجوه تسمية السفر أن الإنسان يسافر أي يخرج عن بيته ويغادر المحلة والبلدة ، ويكون مكشوفاً في البرية ، لقد نزلت آية البحث لتقطع أي سلطان للذين كفروا ولتفصل بينهم وبين الذين آمنوا في القول والعمل .

وهل تتضمن آية البحث جذب الناس للإيمان ، الجواب نعم ، كما أنها دعوة للذين كفروا وللمنافقين للتوبة والإنابة والتسليم بأن الله عز وجل يعلم ما في قلوبهم وما يجري على ألسنتهم .

وهل في آية البحث ترغيب بالدفاع عن الإسلام والضرب في الأرض للتجارة والدعوة إلى الله عز وجل ، الجواب نعم ، إذ تزيح الآية الموانع التي تحول دون السعي في مرضاة الله ، فكما ابتدأت آية البحث بنداء الإيمان ، فقد ابتدأت به الآية التي تتضمن الحث على التمحيص والتبيين عند النفر في سبيل الله ، كما في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَقِينُوا وَلَا تَقُولُوا لِلنَّاسِ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتُ مُؤْمِنًا نَبْتَغِزْ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ (١) .

وتدل الآية أعلاه بالدلالة التضمنية على صبر وسلامة المسلمين عند اللقاء وعلى أن حسن العاقبة لهم في النشأتين ، فاذا كان الذين كفروا يظهرون لؤم أخلاقهم وسوء ما تنطوي عليه نفوسهم عندما يسمعون باستشهاد عدد من المؤمنين في المعركة كمعركة أحد ، فقد جاءت آية البحث بالبشارة بالتخفيف عنهم .

فلم تمر الأيام حتى صار المسلمون يخرجون في سرايا الدعوة إلى الله سبحانه ، ويدعون أهل القرى والمدن إلى الإسلام فيدخلون فيه أفواجا .

ويفيد الجمع بين الآية أعلاه وآية البحث وجوب إعطاء الأولوية لحفظ النفوس وترغيب الناس بالإسلام وقبول ظاهر الإسلام وكفاية النطق بالشهادتين ، وعدم صيرورة الطمع في الأموال سبباً لإستباحه الدماء ، وهذا الوجوب من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١) في رد الله عز وجل على الملائكة حينما قالوا ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٢) فقد بعث الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لمنع الفساد ووقف سفك الدماء ، وبيان قبحه وضرره ولزوم إجتنابه وجاءت آية البحث حرباً على الفساد وأسباب صد المسلمين عن محاربة الفساد .

لقد أراد الله عز وجل أن تشتد ندامة وأسف الذين كفروا فأنزل آية البحث لتكون منافعها أكثر من أن تحصى لذا ورد اسم الإشارة للبعيد بقوله تعالى ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾^(٣) وسيأتي في التفسير ذكر مصاديق متعددة لاسم الإشارة أعلاه .

وتبين خاتمة آية البحث أن المدار على العمل ولزوم تعاهد المسلمين للفرائض العبادية ، وعدم الإصغاء إلى قول الذين كفروا أو المنافقين ، أو محاكاتهم في غيهم ، قال تعالى ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^(٤).

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة آل عمران ١٥٦.

(٤) سورة التوبة ١٠٥.

فكما تفصل وتميز الآية بين المؤمنين والكافرين في القول فأنها تفصل بينهم في العمل ، وهي بشارة لنيل المسلمين الأجر والثواب في الآخرة من جهات بلحاظ آية البحث ، وهي :

الأولى : توجه النداء للمسلمين بصفة الإيمان ، وما فيه من الشهادة والوعد الكريم من عند الله عز وجل ، لبيان لطف الله عز وجل بالمسلمين بأن تبدأ الآية بصفة الإيمان ، ويتعقبه النهي ليكون هذا النداء عوناً للمسلمين على الإمثال وحسن التقيد بأداب النهي خاصة وأنه يتجدد كل يوم ، ويلقي المسلمون في المسجد والسوق والبيت والعمل .

الثانية : تلقي المسلمين للنهي الوارد في آية البحث ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وما يدل عليه من التفاني والتضاد بين المسلمين والكفار، ولم يحصل هذا التضاد إلا باختيار المسلمين التصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإتباعه وهو باب عظيم للأجر والثواب.

الثالثة : تلاوة المسلمين لآية البحث بصيغة القرآنية والتسليم بأنها نازلة من عند الله عز وجل .

الرابعة : تعاهد المسلمين لآية البحث وتوارثهم لهذا التعاهد والتلاوة جيلاً بعد آخر ، ومن إعجاز القرآن أن كل جيل يحسّ وكأن الآية نزلت لهم خاصة لما تتضمنه من معاني الطراوة والحلاوة والإنطباق على الواقع اليومي للمسلمين والناس جميعاً ، وإن كان هناك تباين على نحو الموجبة أو السالبة الجزئية ، كما في حال المنافقين فعندما كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في مكة المكرمة في بدايات الدعوة لم يكن هناك منافقون ، وحصل النفاق مع نشوء دولة الإسلام في المدينة .

ويمكن تأسيس علوم من جهات :

الأولى : باب التفسير بلحاظ تخصيص باب لكل جملة أو شطر من الآية الكريمة.

الثانية : القوانين المستقرة من ذات الآية محل البحث .

الثالثة : علم المناسبة بلحاظ ذات اللفظ الوارد في آية البحث ومعانيه في آيات القرآن الأخرى.

الرابعة : البحث البلاغي.

الخامسة : ما أسنناه في الجزء قبل السابق وهو باب منافع الآية^(١). ويمكن تأسيس باب وقانون في كل آية يتضمن معاني ودلالات إكرام المسلمين المستقرة من ذات الآية ، وهو من ذخائر القرآن الظاهرة والمستترة في ثنايا كلماته وحروفه ، قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(٢).

حرر في ٢٠١٦/٢/٦

٢٦ ربيع الآخر ١٤٣٧ هـ

النجف الأشرف

(١) أنظر الجزء السابع والعشرين بعد المائة من هذا السفر الذي جاء خاصاً في تفسير تفسير الآية (١٥٤) سورة آل عمران وهو القسم الثالث .

(٢) سورة المنافقون ٧.

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ الآية ١٥٦ .

الأعراب واللغة

يا أيها الذين آمنوا : يا أداء نداء ، وأحرف النداء سبعة وهي :
الأول : (أ) .

الثاني : (أي) للمنادى القريب .

الثالث : (آ) للمنادى البعيد .

الرابع : (يا) وتستعمل على نحو الإطلاق سواء كان المنادى قريباً أو بعيداً أو برزخاً متوسطاً بينهما ، وقد تأتي للتحسر ، كما ورد في التنزيل للندب ، حكاية عن يعقوب عليه السلام قال ﴿يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ﴾^(١) .

الخامس : هيا للمنادى البعيد .

السادس : أيا للمنادى البعيد .

السابع : وا ، وهي للندب والتوجع .

أيها : منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب .

(ها) حرف تنبيه .

الذين : اسم موصول مبني في محل نصب بدل من أي .
لا تكونوا : فعل مضارع ناقص مجزوم وعلامة جزمه حذف النون ،
والواو اسم كان .

كالذين : الكاف حرف جر .

الذين : اسم موصول في محل جر متعلق بمحذوف خبر تكون .
وقالوا لإخوانهم : الواو : حرف عطف ، قالوا فعل ماض ،
والواو : فاعل .

لإخوانهم : اللام حرف جر ، إخوان : اسم مجرور بالكسرة
الظاهرة تحت آخره ، وهو مضاف ، هم : ضمير مضاف إليه .
إذا : ظرف زمان للمستقبل يفيد الشرط من غير أن يكون جازماً ،
بخلاف (إذا) الفجائية التي تختص بالجملة الاسمية فهي جازمة .

ضربوا في الأرض : ضربوا : فعل ماض ، الواو : واو الجماعة .
في الأرض : جار ومجرور ومتعلق بضربوا .
أو كانوا غزى : أو : حرف عطف .
كانوا : فعل ماض ناقص مبني على الضم .
الواو : اسم كان .

غزى : خبر كان منصوب وعلامة نصبه الفتحة المقدرة على الألف .
لو كانوا عندنا : لو : أداء شرط غير جازمة ، وتفيد إمتناع الجواب
لإمتناع الشرط .

كانوا : فعل ماض ناقص مبني على الضم : الواو اسم كان .
عندما : عند : ظرف مكان ، منصوب متعلق بمحذوف خبر كانوا .
وهو مضاف و(نا) ضمير مضاف إليه .
ما ماتوا : ما نافية ، ماتوا فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو
الجماعة .

واو الجماعة : ضمير متصل مبني على السكون في محل رفع فاعل ،
الألف علامة فارقة .

وما قتلوا : الواو حرف عطف .

ما : حرف نفي مبني على السكون لا محل له من الإعراب .

قتلوا : فعل ماض مبني للمجهول ، مبني على الضم .

الواو : نائب فاعل .

ليجعل الله ذلك : اللام للتعليل ، يجعل فعل مضارع منصوب بأن
مقدرة بعد اللام .

الله : اسم الجلالة فاعل مرفوع .

ذلك : ذا : اسم إشارة مبني في محل نصب مفعول به أول .

الام : للبعد ، الكاف للخطاب .

حسرة في قلوبهم : حسرة: مفعول به ثان منصوب بالفتحة الظاهرة
على آخره .

في قلوب : جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة حسرة .

(هم) : ضمير في محل مضاف إليه .

والله يحيي ويميت : الواو حرف إستئناف .

الله : لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع .

يحيي : فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعة الضمة المقدرة على الياء ،

والفاعل ضمير مستتر تقديره هو .

ويميت : الواو حرف عطف .

يميت : فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعة الضمة الظاهرة على

آخره .

والله بما تعملون بصير : الواو حرف إستئناف ، واسم الجلالة مبتدأ

مرفوع .

بما : الباء حرف جر ، ما : اسم موصول مبني في محل جر متعلق
ببصير ، تعملون : فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون ،
والواو : فاعل .

بصير : خبر المبتدأ مرفوع بالضممة على آخره .

ضربوا في الأرض أي سافروا وذهبوا خارج بلدهم ،
مقتبس من الضرب بالأرجل لأن المسافر يضرب الأرض برجله
لقطع المسافة ، وقال تعالى في الفقراء الذين يستحقون الصدقة
﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي
الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾^(١) أي لا
يستطيعون التصرف في الأرض والذهاب للتجارة وطلب الرزق
ومعيشة العيال .

وغزى أي خرجوا إلى الملاقاة القتال ، يقال غزا يغزو غزواً
فهو غاز ، والجمع غزى وغزاة .

والحسرة الحزن المقرون بالندامة وشدة التلهف والأسى ،
يقال : حسر على ، يحسر حسراً وحسرة فهو حسران والأثنى
حسرى ، والمفعول محسور عليه ، وفي التنزيل ﴿يَا حَسْرَتًا عَلَى مَا
فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾^(٢) ويقال إستحسر فلان أي تعب وأصابه
الإعياء .

وفي الثناء على الملائكة وإخلاصهم في العبادة قال الله تعالى
﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾^(٣) .

(١) سورة البقرة ٢٧٣ .

(٢) سورة الزمر ٥٦ .

(٣) سورة الأنبياء ١٩ .

سياق الآيات

في الصلة بين آية البحث والآية السابقة ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ
التَّقْيِ الْجُمُعَانَ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^(١) مسائل :

المسألة الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين : يا أيها الذين آمنوا إن
الذين تولوا منكم .. وفيه وجوه :

الوجه الأول : لقد أنعم الله عز وجل على الناس وجعل القرآن
مصاحباً لهم في الحياة الدنيا ، وترشح عن هذه الصحبة نعم عظيمة لا
تعد ولا تحصى ، وهي مستمرة في ذاتها وإنشطارها وتجليها للناس ،
يتعظ منها المسلمون ، ويتخذونها نوع طريق ، وسبيل رشاد ، وهو من
أسرار تلاوتهم رجالاً ونساءً لقوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢) عدة
مرات في اليوم .

وصحيح أن الصراط في الآية أعلاه ورد بصيغة المفرد إلا أنه اسم
جنس ، وليس من حصر لوجوهه ومصاديقه من جهات :

الأول : صراط الإيمان واليقين .

الثاني : صراط وطريق أداء العبادات وهو من جهات :

الأولى : كل فريضة صراط بذاتها .

(١) سورة آل عمران ١٥٥ .

(٢) سورة الفاتحة ٦ .

الثانية : نية الفريضة وقصد القربة في أدائها صراط هدى ، وفي الحديث القدسي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال (يقول الله سبحانه ، أنا خير شريك من أشرك معي شريكا في عمله فهو لشريكي دوني ، لاني لا أقبل إلا ما أخلص لي).

وفي حديث آخر: إني أغني الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملاً ثم أشرك فيه غيري ، فأنا منه برئ ، وهو للذي أشرك فيه دوني^(١).

الثالثة : أداء الفرائض واقية من فعل السيئات ، وحرز من الظلم والتعدي .

الرابعة : في الفريضة وأدائها تنمية للملكة التقوى عند المسلمين .
الخامسة : أداء الفرائض في أوقاتها وبشرائطها مناسبة للعفو ، ورجاء المغفرة من عند الله .

وعن أنس بن مالك (أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار عذب غمر على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات فماذا يبقين من درنه؟ قال : ودنه إثمه)^(٢).

ومن فيوضات آية البحث التي إختص هذا الجزء بتفسيرها أنها ومع قلة كلماتها أختتمت بالعفو الخاص في ساعة الضيق وإرتكاب الخطأ وبالإخبار عن الإطلاق في صفات الله من المغفرة والرحمة وإمهال عامة العباد .

الثالث : كل فرد من الفرائض العبادية صراط مستقيم ، ففي اليوم الواحد يصلي المسلم خمس صلوات ، لتكون ضياء ينير له دروب الهداية ، وتطهيراً من دنس الذنوب ومتعلقات الدنيا وزينتها فتأتي الشهادة للمصلي من وجوه :

(١) البحار ٣٠٤/٦٩.

(٢) الدر المنثور ٣٥٦/٥.

أولاً : مقدمة الطهارة وأفعال الوضوء ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾^(١).

ثانياً : شهادة الماء وقطرته التي يتوضأ بها المسلم .

ثالثاً : شهادة مكان الوضوء ، لذا ورد في الخبر أن محل الوضوء يكون في باب المسجد .

رابعاً : شهادة السواك للمسلم ، وهو عود من شجر الأراك ، ورد الخبر عند جميع المسلمين عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم باستحبابه .

خامساً : شهادة المسجد أو موضع الصلاة مطلقاً للمسلم في صلاته ، ففي كل مرة يصلي فيها المسلم في المسجد يعلم أنه يشهد له سواء كان محل صلاته الراتب كمسجد المحلة والسوق أو مسجد مر عليه في عمله وسفره وضربه في الأرض .

سادساً : شهادة أهل المسجد والذين يصلون الجماعة مع المسلم له ، وهو من مصاديق شهادة الجيران والأقارب ، وما ورد بحق الكافر في الحديث (عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله ، فوجد وخاصم ، فيقال له : هؤلاء جيرانك يشهدون . فيقول : كذبوا .

فيقال : أهلك وعشيرتك . فيقول : كذبوا . فيقال : احلفوا ، فيحلفون . ثم يصمتهم الله عز وجل ويشهد عليهم ألسنتهم ثم يدخلهم النار)^(٢) ، ويعود الضمير في (فيدخلهم) إلى الكفار .

(١) سورة المائدة ٦ .

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ٢٩٢/١١ .

ليدل الحديث في مفهومه على أن الجيران وأهل المسجد يشهدون للمسلم بالتقوى والصلاح وتعاذه للصلاة .

سابعاً : شهادة موضع السجود ، وهل لهذه الشهادة من صلة بفتح العينين في السجود ، الجواب لا دليل عليه ، إذ أن موضع الصلاة يشهد يوم القيامة للمصلي مطلقاً .

ثامناً : شهادة أفعال الصلاة من القيام والركوع والسجود وحال الجلوس عند التشهد ونحوه .

تاسعاً : شهادة آتات الزمان للمصلي ، وهل تختص هذه الشهادات بيوم القيامة ، لتحضر للشهادة والشفاعة للمؤمن أم أنها تحضر له في الدنيا ، وتكون واقية من المهالك ، وهو من فضل الله ، لذا ورد قوله تعالى في الآية السابقة ﴿ إِنَّمَا اسْرَٰزَلَهُمُ الشَّيْطَانُ بُعْضَ مَا كَسَبُوا ﴾ ^(١) .

ليكون ثبات المؤمنين في الميدان كسباً وتضحية وحرزاً في النشاطين . وقد ورد في ذم الذين كفروا وسوء عاقبتهم في الآخرة قوله تعالى ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ^(٢) فهل تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم أنهم لم يباشروا الوضوء وغسل الوجه واليدين ومسح الرأس والرجلين ، أو مسح الرأس وغسل الرجلين .

ولتدل الآية أعلاه في مفهومها على شهادة جوارح المسلم والمسلمة لهما بأداء الصلاة والمشي إلى صلاة الجمعة والجماعة ، وهو من البشارات التي تشع نوراً من ثنايا قوله تعالى ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ ^(٣) .

(١) سورة آل عمران ١٥٥ .

(٢) سورة يس ٦٥ .

(٣) سورة البقرة ٢٣٨ .

ولا تختص شهادة الأعضاء يوم القيامة بالذين كفروا ، إذ أنها مطلقة ، ولكن مع التباين والتضاد في موضوع الشهادة ، فتشهد أعضاء المسلم له بما يدخل البهجة والسرور إلى قلبه ، وأخرج أحمد ومسلم والنسائي وغيرهم عن أنس في قوله ({ اليوم نختم على أفواههم } ^(١)) قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فضحك حتى بدت نواجذه قال : أتدرون ممن ضحكت؟ قلنا : لا يا رسول الله قال : من مخاطبة العبد ربه فيقول : يا رب ألم تجرنني من الظلم؟ فيقول : بلى . فيقول : إني لا أجزى علي إلا شاهداً مني .

فيقول : كفى بنفسك عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً ، فيختم على فيه ويقال لأركانها : انطقي ، فتتلق بأعماله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول بعداً لكن وسحقاً ، فعنكن كنت أناضل) ^(٢) .

وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : يلقي العبد ربه فيقول الله : أي فل ^(٣) ، ألم أكرمك ، وأسودك ، وأزوجك ، وأسخر لك الخيل والابل ، وأذكرك ترأس وتربع؟ فيقول : بلى أي رب فيقول : أفطنت أنك ملاقي؟ فيقول : لا . فيقول : فإنني أنساك كما نسيتني .

ثم يلقي الثاني ، فيقول : مثل ذلك .

ثم يلقي الثالث فيقول له : مثل ذلك فيقول : آمنت بك ، وبكتابك ، وبرسولك ، وصليت ، وصمت ، وتصدقت ، ويشني بخير ما استطاع ، فيقول : ألا نبعث شاهداً عليك؟ فيفكر في نفسه من الذي يشهد علي ، فيختم على فيه ، ويقال لفخذه : انطقي .

(١) سورة يس ٦٥ .

(٢) الدر المنثور ٣١٣/٧ .

(٣) فل : معناه أي فلان .

فتنطق فخذهُ ، ولحمه ، وعظامه . بعمله ما كان ذلك يعذر من نفسه ، وذلك بسخط الله عليه^(١).

والأحاديث في هذا الباب كثيرة ومتعددة ، وكل واحد منها موعظة بذاته ، ويبعث على الحيطة والحذر والتدارك والتسليم بوجود رقباء عليه مصابين له ، لا يملكون إخفاء الشهادة أو تحريفها .

وعن عقبة بن عامر قال (أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يُخْتَم على الأفواه، فخذهُ من الرجل اليسرى"^(٢).

فمن الإعجاز في السنة النبوية العموم في الحديث أعلاه العموم ، وعدم إختصاصه بالذين كفروا بل ورد بصفة الإنسان لبيان تغطي الحكم للناس جميعاً ، ليشهد للمؤمن من المسلمين والممل السابقة أعضاؤه في السعي إلى الصلاة وأدائها ، وهل تشهد له في مغادرة المسجد وأنه من فعل الحسنات .

الجواب نعم ، لذا ورد قوله تعالى ﴿فَإِذَا قُضِيَتُ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾^(٣) ، بلحاظ أنه من آتات الزمان والوقت الذي يقضيه المسلم في الصلاة في ذهابه وإيابه منها .

عاشراً : تلاوة المسلم لآيات القرآن في الصلاة ، فكل آية يتلوها تكون واقية له من عذاب البرزخ ، وتشهد له يوم القيامة ، فان قلت قد وردت النصوص المستفيضة بأن سورة الملك على نحو التعيين هي التي تشهد لقارئها في القبر .

(١) الدر المنثور ٣١٢/٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ٥٨٦/٦ .

(٣) سورة الجمعة ١٠ .

إذ ورد عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سورة تبارك هي المانعة من عذاب القبر^(١).

والجواب إن إثبات شيء لشيء لا يدل على نفيه عن غيره .
فقد تكون آيات وسور أخرى تمنع عن قارئها عذاب البرزخ ، كما أن نفع سورة الملك لا يختص أو ينحصر بعالم القبر ، وظلمته وما فيه من الأهوال مع ضيق مساحته ، وأنه في باطن الأرض ، وهذا الوصف وحده من أشد الأهوال التي لا تحيط بها العقول .

وعن أنس قال (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة: "تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ")^(٢).

الوجه الثاني : لقد إبتدأت آية البحث بالنداء التشرifi ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وفيه بلحاظ تعقبها للآية السابقة التي تتضمن موضوع تولي وفرار فريق من المسلمين مسائل :
الأولى : بعث السكينة في نفوس المسلمين ، بأن هذا التولي لن يسبب إنكسارهم .

الثانية : إخبار المسلمين بأن تولي وفرار فريق منهم لا يؤدي إلى إستدامة القتل فيهم ، ووقوع الأسرى منهم بيد العدو ، قال تعالى ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾^(٣).

(١) الدر المنثور ٦٣/١٠.

(٢) سورة الجمعة ١٠.

(٣) سورة آل عمران ١١١.

الثالثة : بشارة التخفيف عن المسلمين وفتح أبواب من فضل الله عز وجل ، والجمع بين الآيتين من مصاديق قوله تعالى ﴿فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ^(١).

وما ورد عن جابر بن عبد الله قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن ثلاثمائة أو يزيدون ، علينا أبو عبيدة بن الجراح ، ليس معنا من الحمولة إلا ما نركب فزودنا رسول الله صلى الله عليه وسلم جرابين من تمر ، فقال بعضنا لبعض : قد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أين تريدون وقد علمتم ما معكم من الزاد ، فلو رجعتم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألتموه أن يزودكم ، فرجعنا إليه ، فقال : إني قد عرفت الذي جئتم له ، ولو كان عندي غير الذي زودتكم لزودتكموه .

فانصرفنا ، ونزلت ﴿فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ^(٢) ، فأرسل نبي الله إلى بعضنا ، فدعاه ، فقال : أبشروا فإن الله قد أوحى إليّ { فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا } إن مع العسر يسراً { ولن يغلب عسر يسرين } ^(٣).

الرابعة : بيان حقيقة ما لاقاه المسلمون الأوائل في بداية الإسلام .
الخامسة : الإخبار عن تعاهد المسلمين للإيمان ، ومنهم الذين فروا وإنهزموا من ميدان القتال بدليل نسبة الذين تولوا إلى المسلمين في الآية السابقة بقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾ .

(١) سورة الشرح ٥-٦ .

(٢) الشرح ٥-٦ .

(٣) الدر المنثور ١٠/٢٩١ .

ومن الإعجاز في الآية أعلاه أنها معطوفة على النداء بصفة الإيمان الوارد قبل سبع آيات بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرْذُوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾^(١) كما تعقبها ذات النداء بصفة الإيمان في آية البحث .

وهل يصح تقدير الآية السابقة : يا أيها الذين آمنوا الذين تولوا يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبتم ولقد عفا الله عنكم) .

الجواب نعم بلحاظ التبويض في صيغة الخطاب في الآية السابقة ، ولكن الآية جاءت بالخطاب لجميع المسلمين والمسلمات ، وفيه مسائل :
الأولى : إرادة عموم الفائدة ، ونفع المسلمين من مضامين الآية السابقة .

الثانية : بيان التكافل في الإسلام ، وأن مسألة فرار بعضهم تتعلق بهم جميعاً .

الثالثة : دعوة المسلمين جميعاً للإحتراز من الفرار والهزيمة في القتال ، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُؤْمِدْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾^(٢) .

الرابعة : إخبار المسلمين بحقيقة ، وهي أن الذين تولوا لم يخرجوا من ربة الإيمان ، ولم يكونوا منافقين .

الخامسة : عطفت الآية السابقة على قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرْذُوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾^(٣) .

(١) سورة آل عمران ١٤٩ .

(٢) سورة الأنفال ١٦ .

(٣) سورة آل عمران ١٤٩ .

ليكون من معاني تضمن الآية السابقة النسبة للمؤمنين سلامتهم من الإرتداد بهذا التولي والفرار .

السادسة : حصر موضوع تولي فريق من المسلمين في معركة أحد بين نداءين وخطابين بصيغة الإيمان ليتعاهد المسلمون الإيمان ويحترزوا من التولي في القتال.

وبين تعاهد الإيمان وعدم التولي عموم وخصوص مطلق في الموضوع والزمان وسنخية الفعل والأثر .

أما بالنسبة للموضوع فهو الإيمان لتعلقه بالعبادات وأدائها وقصد القربة والثبات على الهدى في الليل والنهار ، ومدار الحكم على الإنسان هو الإيمان ، والإيمان أصل والثبات في ميدان القتال فرع الإيمان.

وأما بالنسبة للزمان فان الإيمان مصاحب للإنسان في ليله ونهاره وحله وترحاله ، وأما الثبات في الميدان أو ضده من التولي فهو أمر خاص بميدان المعركة ، وأكثر المؤمنين لا يتلون بمسألة القتال والثبات في الميدان ، وفيه تأكيد لفضل أهل البيت والصحابة الذين قاتلوا مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وأما بالنسبة لسنخية الفعل فان الإيمان إعتقاد في القلب ، وإما عدم التولي فانه مخصوص يتجلى بالإمتناع عن القتال وبالفرار منه ، وأما بالنسبة للأثر فللإيمان آثار مباركة على ذات المؤمن وغيره ، كما تأتي منافعها له وهو في قبره بالإقتداء به ، وشهادة المؤمنين له ، وأما عدم التولي فجاءت آية البحث بالعفو عن المؤمنين .

الوجه الثالث : من معاني الجمع بين الآيتين بيان الصلة والتداخل بين أجيال المسلمين المتعاقبة وعدم الفصل بينها ، وهو من أسرار إستدامة بقاء الإسلام وشريعته إلى يوم القيامة ، فكل جيل وطبقة من

المسلمين يسلمون بأن المسلمين الذين صاحبوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم في معركة أحد وساروا تحت لوائه كان على وجوه :

الأولى : الذين ثبتوا في الميدان ولم يغادروا مواضعهم .

الثانية : الذين سقطوا يومئذ شهداء ، وانتقلوا إلى الرفيق الأعلى وعددهم سبعون ^(١) .

الثالثة : الذين فروا وتولوا من ميدان المعركة ، وهم الذين ذكرتهم الآية السابقة .

ويدخل في طول هذه الفرق الرماة الذين تركوا مواضعهم على الجبل أثناء القتال طمعاً بالغنائم ، ولم يجعلهم قسيماً للطوائف الثلاثة أعلاه بلحاظ إلتماثلهم لها ، فمنهم من أستشهد ، ومنهم من ثبت في المقام ولعل منهم فر من المعركة ، كما خرج بالتخصيص المنافقون الذين انسحبوا في الطريق .

وورد لفظ التبعض ﴿ مِنْكُمْ ﴾ في قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ ﴾ وورد قبل آيتين في معركة أحد ﴿ يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ لبيان أن نعمة النعاس نزلت على أفراد من المسلمين في يوم مخصوص وموضع معين ، وهو ميدان جبل أحد في اليوم الخامس عشر من شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة ليكون هذا النعاس نعمة على المسلمين جميعاً من جهات :

الأولى : ذات نعمة النعاس .

الثانية : أثر ورشحات نعمة النعاس .

الثالثة : تلاوة المسلمين لآية النعاس .

الرابعة : إتخاذ المسلمين لآية النعاس حجة ومادة في الإحتجاج .

الخامسة : إستقراء المسلمين المسائل والأحكام من آية النعاس .

(١) أنظر الجزء السابع بعد المائة الذي جاء خاصاً بترجمة شهداء أحد .

السادسة : تطلع المسلمين إلى النعم التي تنزل من عند الله عند الشدائد والمحن ، قال تعالى ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾^(١).

الوجه الرابع : قيدت آية السياق التولي بأمر :
الأول : إخبار الآية عن خصوص الذين تولوا وفروا من المعركة ، لبيان الضرر الفادح الذي يترتب على هذا التولي ، والمسائل التي تستقرأ منه .

الثاني : تقييد صفة الذين تولوا وأنهم من المؤمنين ، وهل تدل الآية على إن الذين كفروا لم يتولوا في معركة أحد .
الجواب لا ، فمن الإعجاز في هذه الآيات دلالة ولغة العطف فيها على تقدم نصر المسلمين في بداية المعركة ، كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾^(٢).

ثم بينت الآية أعلاه حصول الفشل والجبن والتنازع والمعصية بين المسلمين في ذات ميدان المعركة للدلالة على ترشح التولي من قبل نفر من المؤمنين بسبب القصور والتقصير من المؤمنين ، وترك الرماة مواضعهم ، وليس بسبب قوة وبطش وبسالة الذين كفروا وإن كان فيهم فرسان وشجعان خذلهم الله وجعلهم عاجزين عن إظهار مهارات القتال ، ومن أظهرها يومئذ فانها صارت عليه وبالا في الدنيا والآخرة ، إلا أن يتوب ، قال تعالى ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾^(٣).

الثالث : تعيين التولي وأنه حدث في معركة أحد على نحو الخصوص بدليل قوله تعالى في الآية السابقة ﴿يَوْمَ اتَّخَذَ الْجَمْعَانِ﴾.

(١) سورة البقرة ٤٥.

(٢) سورة آل عمران ١٥٢.

(٣) سورة مريم .

وهل يدل هذا المعنى على التباين بين حال المسلمين في معركة بدر وقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدَرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾^(١).

بينما ذكرت آية السياق التولي والفرار من قبل نفر من المسلمين ، الجواب ليس من تباين وتضاد بين حال المسلمين في المعركتين ، ولكن نصر المسلمين في معركة بدر جاء على نحو الموجبة الكلية يوم المعركة وما بعده ، أما نصر المسلمين في معركة أحد ، فتجلت شذرات منه في ميدان المعركة لتتوالى معاني النصر فيما بعد إنقضاء المعركة .

ومن الآيات أن هذه المعاني تتجلى في كل يوم من أيام الحياة الدنيا وإلى يوم القيامة ، وكان تقدير قوله تعالى أعلاه على وجوه :

أولاً : ولقد نصركم الله أول نصر يبدر وأنتم أذلة .

ثانياً : ولقد جعل الله عز وجل نصركم يبدر نصراً مبيناً .

ثالثاً : ولقد نصركم الله يبدر وسينصركم بالمعارك اللاحقة .

رابعاً : ولقد نصركم الله يبدر وأنتم أذلة وسينصركم بأحد .

خامساً : ولقد نصركم الله يبدر فلا تولوا الأدبار يوم يلتقي الجمعان .

سادساً : ولقد نصركم الله يبدر ويصدقكم وعده في المعارك اللاحقة ، ويحتمل تعيين التولي والفرار الذي تذكره الآية السابقة بخصوص معركة أحد وجوهاً :

أولاً : حصول التولي والفرار قبل بدء معركة أحد .

ثانياً : حدوث التولي عند ابتداء القتال بين المسلمين والذين كفروا .

ثالثاً : لم يفروا ويتولوا نفر من المؤمنين إلا بعد أن نزل الرماة المسلمون من الجبل .

رابعاً : حدث التولي من نفر من المؤمنين عندما جاءت خيالة الذين كفروا من خلف المسلمين واستمر القتل فيهم .

خامساً : حدوث التولي قبل أن يقوم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ببدء المسلمين الذين انسحبوا من المعركة بقوله تعالى ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾^(١).

سادساً : وقوع التولي من نفر من المؤمنين بعد إنقضاء المعركة خاصة وأنها ابتدأت بعد طلوع الشمس من اليوم الخامس عشر من شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة ، وإنتهت في نهار ذات اليوم قبل الغروب .

والمختار هو رابعاً أعلاه .

الوجه الخامس : هل يصح تقدير الجمع بين الآيتين : يا أيها الذين آمنوا الذين تولوا يوم التقى الجمعان (الجواب نعم ، ولكن الآية وردت خطاباً للذين ثبتوا في الميدان لبيان أن المدار وصدق الإيمان على الثبات في ميدان القتال ولقاء الذين كفروا ، وليس من برزخ في معارك الإسلام الأولى بين النصر والهزيمة ، فنصر المسلمين في أي معركة بناء لصرح الإيمان ، لتصير الهزيمة نكسة فادحة لذا تفضل الله عز وجل ووقى المسلمين الهزيمة في أي معركة من معارك الإسلام الأولى ، ليكون إعجازها على وجوه :

أولاً : توجه النداء من عند الله عز وجل إلى الذين فروا من الميدان بصيغة الإيمان بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وفيه ترغيب وحث على العودة إلى الميدان وإلى جوار النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في قتاله الأعداء ، ليكون هذا الجوار مرآة ومقدمة لجواره في الجنة العالية .

قال تعالى ﴿وَمَنْ يُطِغِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾^(١).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال (كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة إذا اتقى الله سبحانه)^(٢).

وعن ربيعة بن كعب الأسلمي قال (كنت أبيت عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فأتته بوضوئه وحاجته فقال لي : « سل . . . فقلت : يا رسول الله أسالك مرافقتك في الجنة . قال : أو غير ذلك ؟ قلت : هو ذاك . قال : فأعني على نفسك بكثرة السجود)^(٣).

ثانياً : توجه النداء من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للذين فروا من معركة أحد بالعودة إلى الميدان ، ومن إعجاز القرآن توثيقه لهذا النداء والدعوة بقوله تعالى ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ﴾.

ثالثاً : صبر نفر من أهل البيت والصحابة مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في ميدان المعركة دعوة فعلية للذين فروا بلزوم تعضيدهم ومؤازرتهم في دفع الذين كفروا عن الملة والنفوس .

المسألة الثانية : تقدير الجمع بين الآيتين : يا أيها الذين آمنوا الذين تولوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم... وفيه وجوه :

الوجه الأول : تدل آية السياق على تقسيم المسلمين إلى قسمين :

الأول : المسلمون الذين ثبتوا في ميدان المعركة يوم أحد .

الثاني : المسلمون الذين فروا من ميدان المعركة .

ولا يتعارض هذا التقسيم مع التقسيم الذي تضمنته الآية قبل

السابقة وهو :

(١) سورة النساء ٦٩.

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ١٣٩/١٤.

(٣) الدر المنثور ١٦٥/٣.

الأول : طائفة من المؤمنين تغشاهم النعاس .

الثاني : طائفة من المؤمنين شغلتهم أنفسهم .

وهذا التعدد من التقسيم والتجاور بينهما في الآيات القرآنية من إعجاز القرآن ، والبيان العقائدي لوقائع معركة أحد بما يجعلها مدرسة للأجيال وموعظة لأهل الإيمان ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ^(١).

إن ذات التولي أمر قبيح ، وسبب للوهن والضعف في أوان حدوثه وما بعده من الآفات ، ولا يختص قبحه بالذي يفر وينهزم فقد يضر حتى الذي يقاتل في المعركة ، ومع هذا نزل العفو من عند الله عز وجل عن الذين تولوا .

ولم يحتج الذين ثبتوا في الميدان على تلقي الذين تولوا العفو من عند الله عز وجل ، وهو من مصاديق الإيمان ، وشاهد على بلوغ المسلمين مراتب عالية في التفقه في الدين والإقرار بأن الله عز وجل هو العفو وهو الذي يهب العفو ، وهذا الإقرار مقدمة لقبول الذي يدخل في الإسلام من الذين كفروا وإن كان قاتلاً للأب أو الابن من ذوي المؤمنين ، وعدم مؤاخذته أو البطش به .

وورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : الإسلام يجب ما قبله والتوبة تجب ما قبلها) .

الوجه الثاني : قد وصفت آية البحث مواجهة المسلمين مع الذين كفروا في معركة أحد بأنهم ﴿ جمعان ﴾ وفيه بيان لحقيقة وهي أن الطرفين بعرض واحد من جهة السعي لتحقيق النصر والغلبة مع أن النسبة بينهما هي التضاد ، فليس من تناف وتضاد أشد من الذي يكون السيف سيلان الدماء هي الفيصل فيه .

وفي الآية تقدير على وجوه :

الأول : يوم إلتقى الجمعان ، جمع مؤمن ، وجمع كافر .

الثاني : يوم التقى الجمعان جمع بإمامة ورئاسة النبي محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وجمع خليط من الذين كفروا .

الثالث : يوم التقى الجمعان جمع يدافع عن النبوة والتزليل وجمع يريد أن يقتل النبي محمداً صلى الله تعالى عليه وآله وسلم .

الرابع : يوم إلتقى الجمعان في ثاني معركة بين الذين آمنوا والذين كفروا .

الخامس : يوم التقى الجمعان في ميدان معركة أحد .

السادس : يوم إلتقى الجمعان والمؤمنون فرحون بما آتاهم الله عز وجل ، أما الذين كفروا ففي حزن وحسرة .

السابع : يوم إلتقى الجمعان ، جمع يعشقون الشهادة وهم المؤمنون وفريق يملأ قلوبهم الخوف وهم الذين كفروا .

الثامن : يوم إلتقى الجمعان بإذن الله ، وسيأتي بعد آيات قوله تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجُعَانُ فَيَاذَنَ اللَّهُ﴾^(١) .

ليبان الرخصة والإذن من عند الله عز وجل بوقوع القتلى والشهداء من المؤمنين في معركة أحد ، والذي يدل بالدلالة التضمنية على إذن الله في وقوع ذات المعركة .

والنسبة بين العلم والإذن هي العموم والخصوص المطلق ، فالإذن فرع العلم ، ويتضمن معنى الإمضاء والرضا منه تعالى ، وفيه غاية المواساة للمسلمين ، وحث لهم على الصبر وترك التولي والفرار .

التاسع : يوم إلتقى الجمعان مقدمة للجزاء يوم القيامة ، فيثاب المؤمنون ويعذب الذين كفروا ، وقد وردت مادة الجمع بخصوص يوم

القيامة كما في قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾^(١) وقال تعالى ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾^(٢) لإرادة اجتماع الأجيال المتعددة والمتباينة من الناس ، وأجناسهم المختلفة يوم القيامة .
قال الشاعر :

ثم التقينا ولنا غاية ... من بين ، جمع غير جماع
وكل شيء تجمّع وانضمّ بعضه إلى بعض فهو جماع^(٣).

لتكون واقعة أحد من الإنذارات الفعلية ليوم الجمع ، فيأتي الإنذار بآيات القرآن وتلاوتها والدعوة إلى الله والتخويف من عذابه يوم القيامة ، ولكن الكافرين أصروا على الجحود وسيروا الجيوش لمحاربة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين ، فكانت واقعة أحد إنذاراً فعلياً بأشدّ ضروب الفعل وهو لمعان السيوف والكر والفر .

ولما احتج الملائكة على جعل الإنسان خليفة في الأرض وإرادة تخلفه عن شرائط هذه الخلافة لأنه ﴿يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٤) ، أجابهم الله عز وجل بأنه يعلم ما لا يعلمون من أسرار وعاقبة خلافة الإنسان في الأرض ، فيهبط آدم خليفة في الأرض ، وتبين للملائكة أن الفساد يأتي من جهة إغواء ووسوسة إبليس الذي كان مع الملائكة عابداً ساجداً ، صلى ركعتين بستة آلاف سنة من أيام الدنيا .

ليكون إغواء وإزلال إبليس حاضراً يوم معركة أحد ، ويكون الناس في قوله تعالى ﴿يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ﴾ على وجوه:

(١) سورة التغابن ٩.

(٢) سورة الشورى ٧.

(٣) جمهرة اللغة ٢٤٠/١.

(٤) سورة البقرة ٣٠.

أولاً : المؤمنون الذين إعتصموا من إغواء إبليس وثبتوا في ميدان المعركة يقاتلون إلى جانب النبي صلى الله عليه وآله وسلم .
ثانياً : المسلمون الذين فروا من ميدان المعركة بسبب إزلال الشيطان لهم لإنشغالهم بالدنيا وسعيهم إلى المكاسب وجمع الغنائم في ميدان المعركة .

ليدل قوله تعالى ﴿ اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بَعْضَ مَا كَسَبُوا ﴾ على قانون وهو عجز الشيطان على النفاذ إلى المؤمنين والتأثير عليهم إلا الذي يختار زينة الدنيا ومباهجها ، وهل نفوذ الشيطان لهم مطلق في أثره وإستحواذه ، الجواب لا ، إنما هو عرض طارئ سرعان ما يزول ويتلاشى ، وتدل عليه آية السياق من جهات :

الأولى : ذكر آية السياق لموضوع التولي ، إذ يتقدم هذا الذكر بإصلاح المؤمنين ومنعهم من تكرار التولي ، وتقدير آية السياق : إن الذين تولوا يوم إلتقى الجمعان لن يتولوا بعده هم ولا غيرهم .
لقد ذكر القرآن الجمعين بخصوص ملاحقة ومطاردة فرعون لبني إسرائيل وكان معهم موسى عليه السلام في قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ ﴾^(١) أي صار كل من أحد الجمعين يرى الجمع الآخر فيفرح آل فرعون بأنهم صاروا قريين من بني إسرائيل للإنتقام منهم خاصة وأنهم أقل عدداً وعزلاً عن السلاح كما ورد في التنزيل ﴿ إِن هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾^(٢) .

أما بنو إسرائيل فقد أصابهم الخوف والفرع من دنو فرعون وجيشه منهم .

(١) سورة الشعراء ٦١ .

(٢) سورة الشعراء ٥٤ .

وعن ابن عباس قال : إن الله أوحى إلى موسى : أن أسر بعبادي . وكان بنو إسرائيل استعاروا من قوم فرعون حلياً وثياباً . إن لنا عيداً نخرج إليه فخرج بهم موسى ليلاً وهم ستمائة ألف وثلاثة آلاف ونيّف . فذلك قول فرعون { إن هؤلاء لشرذمة قليلون } وخرج فرعون ومقدمته خمسمائة ألف سوى الجنين والقلب ، فلما انتهى موسى إلى البحر أقبل يوشع بن نون على فرسه ، فمشى على الماء ، واقتحم غيره بخيولهم فوثبوا في الماء ، وخرج فرعون في طلبهم حين أصبح وبعدما طلعت الشمس ، فذلك قوله { فأتبعوهم مشرقين ، فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون } فدعا موسى ربه فغشيتهم ضبابة حالت بينهم وبينه وقيل له : اضرب بعصاك البحر . ففعل { فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم }^(١) يعني الجبل . فانفلق منه اثنا عشر طريقاً ، فقالوا : انا نخاف أن توحل فيه الخيل . فدعا موسى ربه فهبت عليهم الصبا ، فجف ، فقالوا : انا نخاف أن يغرق منا ولا نشعر ، فقال بعصاه فنقب الماء فجعل بينهم كوى حتى يرى بعضهم بعضاً ، ثم دخلوا حتى جاوزوا البحر .

وأقبل فرعون حتى انتهى إلى الموضع الذي عبر منه موسى وطرقه على حالها فقال له أدلاؤه : إن موسى قد سحر البحر حتى صار كما ترى ، وهو قوله { واترك البحر رهواً }^(٢) يعني كما هو . فخذ ههنا حتى نلحقهم وهو مسيرة ثلاثة أيام في البحر .

وكان فرعون يومئذ على حصان ، فأقبل جبريل على فرس أنثى في ثلاثة وثلاثين من الملائكة ، ففرقوا الناس وتقدم جبريل فسار بين يدي فرعون وتبعه فرعون ، وصاحت الملائكة في الناس : الحقوا الملك . حتى إذا دخل آخرهم ولم يخرج أولهم؛ التقى البحر عليهم ففرقوا .

(١) سورة الشعراء ٦٣ .

(٢) سورة الدخان ٢٤ .

فسمع بنو إسرائيل وجبة البحر حين التقى فقالوا : ما هذا؟ قال موسى : غرق فرعون وأصحابه . فرجعوا ينظرون فألقاهم البحر على الساحل^(١).

بينما ذكرت الآية السابقة حال المسلمين ، الذين كفروا بصفة الإلتقاء وليس فقط الترائي .

ومن الإعجاز أن قوله تعالى ﴿التَّقَى الْجَمْعَانِ﴾^(٢) ورد ثلاث مرات في القرآن كلها بخصوص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وجيش الإسلام من جهة وجيش الذين كفروا من جهة أخرى .
الثانية : توجه الآية بالخطاب إلى المسلمين جميعاً وعلى القول بالتخصيص والتعيين في الخطاب فانها توجهت إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين الذين ثبتوا معه في ميدان المعركة ، وتقدير الآية : يا أيها النبي والمؤمنون الذين ثبتوا معه في الميدان إن الذين تولوا منكم) والمختار إرادة عموم المسلمين والمسلمات .

الثالثة : قاعدة الإشتراك بين المؤمنين بلفظ الجمع ممن ثبت في الميدان أو الذين فروا منه ، ويدل القيد في قوله تعالى ﴿يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ﴾ على طرو فرار نفر من المؤمنين بعد اللقاء ، ليخرج قوله تعالى أعلاه المتناقضين من مضامين الآية لأنها تتضمن الإخبار عن الفرار البشارة بنزول العفو عن الذين فروا .

الرابعة : مجئ العفو من عند الله والذين فروا ، وكأنه إيذان بعدم تكرار الفرار منهم ، لأن الآية حرب على إرادة مكاسب الدنيا ، والسعي للغنائم وتقديمها وجعلها الأهم والغاية في الخروج للقتال إلى جوار النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) الدر المنثور ٧ / ٣٧٣ .

(٢) أنظر سورة آل عمران ١٥٥ - ١٦٦ ، سورة الأنفال ٤١ .

وعلى فرض تكرار الفرار من المؤمن ، هل يتكرر العفو من عند الله ، الجواب نعم لبيان الآية لحقيقة وهي علة العفو هو الإيمان .

ثالثاً : الذين فشلوا وجبنوا وتنازعوا وعصوا ومنهم الذين تركوا مواضعهم على جبل الرماة مع تأكيد النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليهم بعدم تركها ، قال تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ﴾^(١).

رابعاً : الذين انسحبوا مع رأس النفاق في وسط الطريق إلى أحد ، بعد خروجهم من المدينة إلى معركة أحد ، بعد أن نفث رأس النفاق عبد الله بن أبي سلول وأظهر المغالطة والمكر وقال (والله ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا)^(٢) ليعث في نفوس جيش المسلمين الفزع والخوف ، فكانه يبين لهم مسائل :

الأولى : وقوع القتال بين المسلمين والذين كفروا على نحو الحتم والقطع ، ولعله كان على صلة مع الذين كفروا لا أقل كان يتلقى أخبارهم ويسمع وعيدهم .

الثانية : المسلمون هم الأقل في المعركة ، وسيكون رجحان ميزان القوى لطرف الذين كفروا .

الثالثة : إصرار كفار قريش على الإنتقام والبطش .

الرابعة : ليس من أمر وخطب يستحق القتل مع القطع بحدوثه .

الخامسة : حصول إبادة بين المسلمين .

السادسة : إرادة قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإصابة الدعوة الإسلامية بالضعف .

(١) سورة آل عمران ١٥٢.

(٢) الدر المنثور ٢/٤٨٠.

ولم يعلم رأس النفاق بفضل الله ونزول الملائكة لنصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين ، وتفضل الله ببعث الرعب والفرع في قلوب الذين كفروا ، قال تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾^(١).

خامساً : جمع الذين كفروا وعددهم ثلاثة آلاف جاءوا لقتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين ، ولم يكونوا متحدين بل من خصائص ومعاني الرعب الذي يلقيه الله في قلوبهم الخلاف والخصومة بينهم ، وهو من أسرار وعلل إسراهم في العودة إلى مكة بقوله تعالى ﴿فَيَنْتَقِلُوا خَائِبِينَ﴾^(٢).

العاشر : ورد في آية السياق اللفظ ﴿جمعان﴾ وهو مثنى جمع ، وجمع وجميع ومجموع وجماعة نظائر ، ولم تأت الآية بلفظ جماع لأنه يعني أقواماً مختلفة ومتفاوتة ، لذا يتضمن قوله تعالى ﴿التَّقَى الْجَمْعَانِ﴾ مسائل :

الأولى : الشهادة للمسلمين بأنهم أمة واحدة وجمع متجانس ، والجامع بينهم الإيمان ، والإخلاص في طاعة الله والعزم على التضاني في سبيله تعالى .

الثانية : إستعداد المسلمين مجتمعين ومتفرقين على ملاقاته الذين كفروا في ميدان القتال من الدلائل على صدق إيمانهم وأنهم خرجوا إلى معركة أحد وهم يعلمون أن الذين كفروا أكثر منهم عدداً وعدة .

(١) سورة آل عمران ١٥١.

(٢) سورة آل عمران ١٢٧.

الثالثة : بيان مسألة وهي أن جمع الذين كفروا أجهدهم السفر وقطع مسافة خمسمائة كيلو متر بين مكة والمدينة بينما سار المسلمون نحو سبعة كيلو مترات ، وهو من وجوه الحجة على الذين كفروا .

الحادي عشر : يدل قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ على حقيقة وهي أن الحرب سجال فقد تكون الجولة للعدو أو يحدث فرار من المؤمنين كما في معركة أحد ، فيجب ألا يؤدي إلى القنوط أو اليأس .

الثاني عشر : لقد أخبرت آية البحث عن تولي طائفة من المسلمين يوم معركة أحد بزلة سببها الشيطان لإنذار المسلمين منه في حال الحرب والسلم ، وأن دخول المسلم الإسلام لم يغلق عند باب الإفتتان بإغواء الشيطان ، فمن أسرار الإبتلاء في الحياة الدنيا تجدد وإغواء الشيطان ، ومداهمته للناس ، ومنه آية البحث ، وتقدير الآية على وجهين :

الأول : يوم إلتقى الجمعان ، جمع الذين كفروا بإغواء وفتنة من الشيطان ، وإصرار منهم على إتباع خطواته ومحاكاته في جحوده .

الثاني : جمع المؤمنين الذين إختاروا سبيل الهدى والرشاد وإتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن الآيات في المقام تسمية المسلمين الذين حضروا معركة أحد بالجمع وما يتضمنه من معاني التجانس لبيان حقيقة وهي أن تولي طائفة منهم لم يخرجهم عن الجميع المتحد بدليل النسبة في قوله تعالى ﴿تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾ .

وكان الآية تخبر عن رجوعهم للجمع بلحاظ أن الفرد الذي يخرج من الجمع لابد وأن يرجع إليه ، وليس من مأوى للمسلمين إلا الجهاد . لقد خرج المسلمون من معركة بدر وأحد ، وهم جمع وأمة متحدة على الهدى ، ومواجهة ظلم كفار قريش وسعيهم لحمل المسلمين على

الإرتداد بالسيف والقتل والحصار ، الأمر الذي يدل على عجزهم عن الإحتجاج وإقامة البرهان على عبادتهم الأوثان ، وهناك مسائل :
الأولى : هل نفع الكفار السيف يومئذ في منع الناس من دخول الإسلام .

الثانية : لو إختار الذين كفروا سبيل الترغيب والترهيب والجدال والمغالطة بدل القتال الذي خسروه ، فهل ينفع هذا السبيل في منع مدّ الإسلام .

الثالثة : هل تعجل الذين كفروا باللجوء إلى السلاح والمبارزة والقتال .

أما الأولى فلم ينفع السيف وإرادة القتال الذين كفروا ، وكان تجهيزهم الجيوش لمحاربة الإسلام وبالأوعاراً عليهم وألحق بهم الخزي بين الناس ، وصار سبباً لدخول الناس الإسلام ، وتلك معجزة في الدعوة النبوية ، خاصة وأن كفار قريش لم يكتفوا بالقتال فقد سبقه وصاحبه تشويه وإفتراء ضد شخص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ورميه بالسحر والجنون ونحوه ، ولكن آيات القرآن كانت ناطقة بالبرهان وكشف كذبهم وبطلان مغالطتهم .

وعن ابن عباس قال (إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاما، فلما أكلوا. قال: ما تقولون في هذا الرجل؟

فقال بعضهم: ساحر. وقال بعضهم ليس بساحر. وقال بعضهم: كاهن. وقال بعضهم: ليس بكاهن. وقال بعضهم: شاعر. وقال بعضهم ليس بشاعر.

وقال بعضهم: ﴿بل﴾ سحر يُؤثر. فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر. فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم فحزنَ وقنَعَ رأسه،

وَتَدَثِّرْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ
وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ } (١) (٢).

لتكون الآيات أعلاه دعوة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لبذل
الوسع في الجهاد في سبيل الله وتحمل الأذى في الدعوة إلى الله ، وهي
إشعار بوقوع الحرب والقتال بين المسلمين والذين كفروا ، وهل الآيات
أعلاه مقدمة لهجرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الجواب لا
دليل عليه .

وأما المسألة الثانية أعلاه ، فالجواب بالنفي أيضاً ، فقد أراد الله عز
وجل إظهار الحق وإقامة صرح دولة الشريعة التي تثبت عبادة الله في
الأرض وإلى يوم القيامة ، ولم يكن رجالا قريش غافلين عن صيغ
الترغيب والترهيب فقد بذلوا الوسع فيها وعرضوا على النبي محمد
صلى الله عليه وآله وسلم الرئاسة عليهم ، وقاموا بحصار بني هاشم في
شعب أبي طالب وأدركوا أن هذا الصيغ لم تجلب لهم إلا الحنق
والغیظ بسبب إنتشار الإسلام وتوالي نزول آيات القرآن وإنجذاب
الناس إليها داخل وخارج مكة .

أما الثالثة ، فالجواب نعم ، فقد أخطأ الذين كفروا وتعجلوا
باستعمال السلاح ، ليدركوا أن اللجوء إليه لن ينفعهم ، فقد كانت
معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قاهرة مانعة ، قاهرة
للقوم الكافرين ، مانعة من البرزخ الذي يحول دون دخول الناس
الإسلام .

ومن الإعجاز في المقام أن كل آية من القرآن حجة وبرهان مستقل
بذاته في دعوة الناس للإسلام .

(١) سورة المدثر ١-٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣٦٢/٨ .

لقد لجأ الذين كفروا لإستعمال السلاح بسبب إصرارهم على الجحود والعناد ، وفيه دلالة على أن الضلالة تقود إلى إرتكاب الظلم والجناية على النفس ، وإضاعة الأموال والأعمار بالباطل .

وأخبرت الآية السابقة عن كون كل من المسلمين والذين كفروا جمعاً ، وهو أعظم نصر للإسلام في حينه بلحاظ ما يدل عليه من بلوغ المسلمين إلى مرتبة ملاقة الذين كفروا مع رجحان كفة المسلمين حال اللقاء لقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدُرُوتِهِمْ إِذْ لَبَّيْتُمُوهُمْ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾^(١).

لقد إختار الذين كفروا القتال ليكون بداية نهاية صرح سلطانهم وهدم عروشهم ، وليكون الذل الذي تذكره الآية أعلاه قد إنتقل إلى الذين كفروا وأصبح ملازماً لهم ، فيكون من تقدير قوله تعالى ﴿يَوْمَ اتَّقَى الْجَمْعَانِ﴾ صيرورة جمع في صعود ونصر وغلبة وهم المسلمون ، وجمع ذل وهوان وإخسار وهم الذين كفروا .

الثالث عشر : تقدير الآية يوم إلتقى الجمعان ، وهما :

أولاً : جمع المسلمين ويتصف بأمور :

الأول : إمامة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للجمع ، فلا يفعلون إلا ما هو بالوحي .

الثاني : مصاحبة التنزيل لجمع المسلمين .

الثالث : نزول الملائكة لنصرة المسلمين .

الرابع : تفاني المسلمين في القتال ، قال تعالى في خطاب للمسلمين

بخصوص معركة أحد ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾^(٢).

الخامس : إرادة المسلمين قصد القربة في القتال .

(١) سورة آل عمران ١٢٣.

(٢) سورة آل عمران ١٤٣.

السادس : إتصاف المسلمين بالأخوة بينهم ، وهذه الأخوة على وجهين :

الأول : الأخوة العامة التي تفضل الله عز وجل بها على المسلمين كما في قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾^(١).

الثاني : الأخوة الخاصة إذ أخى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بين كل اثنين من المهاجرين والأنصار ، ولا تختص هذه الأخوة بأن يكون المهاجر أخاً للأنصاري ، فقد تكون الأخوة بين اثنين من المهاجرين أو اثنين من الأنصار ، إذ تقوم هذه الأخوة بالوحي ، ولتكون مقدمة ومرآة للأخوة العامة وتنمية ملكتها ، كما أن الأخوة العامة نوع طريق وتعاهد للأخوة الخاصة .

السابع : سلامة جمع المسلمين من الإرتداد ، لذا إبتدأت هذه الآيات بالإنذار والزجر عن طاعة الذين كفروا بقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّي طُطِعْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَرَدُّكُمْ عَلَىٰ عِقَابٍ كُفٍّ ﴾.

الثامن : بلوغ المسلمين مرتبة اليقين بأن الذي يقتل منهم في المعركة يكتب له الله الخلود في النعيم ، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : انتدب الله لمن خرج مجاهداً في سبيله لا يخرج إلا بآية بي وتصديق برسولي فهو علي ضامن أن ادخله الجنة أو أرجعه إلى بيته الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر وغنيمة - وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما من مكلوم يكلم في الله إلا جاء يوم القيامة وكله يدمى اللون لون دم والريح ريح مسك^(٢).

التاسع : تجلي توالي دخول الناس الإسلام ، وكل يوم تأتي إلى المدينة المنورة وفود من الأفراد والقبائل ، وهم على أقسام :

(١) سورة الحجرات ١٠.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي ١٥٧/٩.

أولاً : الذين يأتون للإطلاع على أحكام الإسلام ومعرفة معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن قرب .

ثانياً : الذين يسلمون في مدنهم وقراهم ، فيدخلون المدينة مهاجرين .

ثالثاً : الذين تبعثهم قبائلهم لتقصي الحقائق ، ومعرفة كنه وأسرار النبوة ، وكنوز التنزيل .

رابعاً : الذين يفدون إلى المدينة لمعرفة صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولا يلبثون إلا أياماً معدودة حتى يدخلوا الإسلام .

خامساً : المندوبون من المسلمين في ناحيتهم الذين يأتون لتعلم أحكام الدين وأفعال الصلاة والصيام والزكاة والفرائض الأخرى ، فيصلون أياماً خلف النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حتى إذا ما أتقنوا الصلاة وحفظوا آيات وسور من القرآن رجعوا إلى قومهم بزيادة الدنيا والآخرة .

العاشر : سلامة جمع المسلمين من الحزن والأسى على الخسارة التي تلحق بهم لأنها في عين الله عز وجل ، قال تعالى ﴿لَكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾^(١) .

الحادي عشر : إنعدام الذين يصدون المسلمين عن الجهاد في سبيل الله وهو الذي تدل عليه آية البحث ومجيؤها بصيغة الفعل المضارع .

الثاني عشر : تغشي العفو من عند الله المسلمين في ميدان المعركة .

الثالث عشر : خروج المسلمين إلى القتال بصيغة الإيمان بالله ورسوله وكتبه وملائكته ، مع الوثوق بالنصر والغلبة من عند الله ، وهو

الذي يدل عليه قوله تعالى ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ (١).

الرابع عشر : قلة عدد ومؤن جيش المسلمين ، ولكن كفتهم هي الأرجح ، فقد جعل الله عز وجل الملائكة معهم مدداً وعوناً .

الخامس عشر : رجوع ثلث جيش المسلمين وسط الطريق إلى معركة أحد ، بسبب خذلان رأس النفاق عبد الله بن أبي سلول .

السادس عشر : ترتب الأجر والثواب للمسلمين على خروجهم للقتال ووقوفهم في ملاقات جيش الذين كفروا ، قال تعالى ﴿فَأَنآهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ

الدُّنْيَا وَحُسْنِ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ (٢).

ثانياً : جمع الذين كفروا ، والذي يتصف بأمور :

الأول : الإصرار على الكفر والضلالة .

الثاني : الزحف وقطع مسافة خمسمائة كيلو متر من أجل محاربة الله ورسوله .

الثالث : تعدد مشارب الذين كفروا .

الرابع : إمتلاء نفوس الذين كفروا بالخوف والرعب لقوله تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ (٣).

الخامس : كثرة الخلاف والخصومة بين الذين كفروا ، قال تعالى ﴿تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ (٤).

(١) سورة آل عمران ١٢١.

(٢) سورة آل عمران ١٤٨.

(٣) سورة آل عمران ١٥١.

(٤) سورة الحشر ١٤.

السادس : عدم حصول رئاسة بينة وظاهرة في جيش المشركين وإن وردت بعض الأخبار بأن أبا سفيان بن حرب هو رئيسهم ، ، إنما كانت كل قبيلة لها رئيسها مثل قبيلة غطفان ، والأحابيش وغيرهم ، بينما كان المسلمون متحدين تحت لواء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

السابع : إدراك الذين كفروا بطلان الغايات التي جاءوا من أجلها وإرادتهم قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإكرام المؤمنين على ترك الإسلام .

الثامن : من الإعجاز في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم سلطان المعجزات التي جاء بها على القلوب فيكون تلقي وقبول الناس لها على نحو الكلي المشكك الذي يكون على مراتب متفاوتة قوة وضعفاً .

فمن الناس من دخل الإيمان في قلبه واستولى على جوانحه وحواسه ، ومنهم من تلقاها بالتدبر ، ومنهم من كان إيمانه على نحو الموجبة الجزئية بما فيهم شطر من الذين خرجوا من مكة لقتال المسلمين في معركة أحد ، قال تعالى ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾^(١).

وعن قتادة في الآية أعلاه قال (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ" ، قَالَ : "جَحَدُوا بِهَا بَعْدَ مَا اسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ")^(٢).

وعن السدي أنه (من التقديم والتأخير)^(٣).

وهذا المعنى صحيح إلا أنه لا يتعارض مع مضامين نص الآية أعلاه ودلالاتها ، ويمكن تأسيس قانون وهو أن التقديم والتأخير في القرآن على فرض وقوعه ليس بديلاً عن النص ونظم الآية والمعنى الظاهر منها ، ويتعلق موضوع الآية أعلاه بصدود وكفر آل فرعون بمعجزات موسى ،

(١) سورة النمل ١٤.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٧٨/١١ .

(٣) الدر المنثور ٤٢٨/٧ .

عليه السلام ، وتفيد الآية في دلالتها الترتيبية بين شطريها وهما الجحود واليقين وجوهاً :

الأول : حدوث الجحود من آل فرعون بعد أن رأوا آيات موسى عليه السلام .

وعن ابن عباس في آيات موسى عليه السلام قال (التسع آيات : يد موسى ، وعصاه ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والسنين في بواديهم ومواشيهم ، ونقص من الثمرات في أمصارهم)^(١).

الثاني : صدور الجحود من آل فرعون بمعجزات موسى إبتداءً وحجاً بالسلطان وزينة الدنيا ، وتيقنت أنفسهم من صدق المعجزات بعد هذا الجحود ، ولكنهم أصروا عليه ، وأخذهم الزهو والعناد .

الثالث : الإقتران والملازمة بين الجحود بالمعجزات واليقين بسنخيتها وأنهما أمور خارقة لقدرات البشر ومجئ الواو في ﴿وَأَسْتَفْتِنَهَا﴾ للحال لبيان قانون وهو الملازمة بين المعجزة و يقين وتسليم الناس بها ، فإذا كان آل فرعون قد تيقنوا من معجزات موسى عليه السلام فإن باقي الناس يؤمنون بمعجزات الأنبياء من باب الأولوية القطعية لأن فرعون إدعى الربوبية ، وكان قومه مطيعين وتابعين له ، وفي التنزيل حكاية عنه ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾^(٢).

وتتصف معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأنها حسية بينما كانت معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عقلية ، وإذا جرت على يد موسى تسع آيات ، فكل آية من القرآن البالغة ستة آلاف ومائتين وست وثلاثين آية معجزة قائمة بذاتها ، وهي معجزة بصلتها مع كل آية من آيات القرآن الأخرى ، وجاء القرآن

(١) الدر المنثور ٧/٤٢٨.

(٢) سورة النازعات ٢٤.

ليذكر الناس بلزوم عدم الجحود بها مع الإستيقان منها ، وهو من وجوه تفضيل نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم على النبوات الأخرى .

إن قصص الأنبياء ذكرى وموعظة للناس بما يفيد التدارك ولزوم ترشح الإيمان عن اليقين والإقرار بالمعجزات ، وفي الثناء على القرآن ، قال تعالى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾^(١).

وورد قوله تعالى ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾^(٢).

المسألة الثالثة : تقدير الجمع بين الآيتين : يا أيها الذين آمنوا إن الذين تولوا منكم يوم إلتقى الجمعان إنما إستزلهم الشيطان (وفيه وجوه :

الوجه الأول : بدأت آية البحث بالنداء بصفة الإيمان الذي يتضمن في معانيه فخراً وعزاً للمسلمين والمسلمات إلى يوم القيامة . وجاءت آية السياق بخصوص فريق منهم إنهمزوا منهم في ميدان القتال ، وهل يعني هذا الحصر في جهة الخطاب أنه يأتي زمان على الناس ليس فيه إلا المؤمنون .

الجواب لا دليل عليه ، إنما يفيد هذا التعدد في النداء وإتحاد الموضوع أو العناية من عند الله بالمسلمين حقيقة وهي إكرام الله عز وجل للمسلمين وبيان أن القرآن نزل لصالحهم وإصلاحهم وتنمية ملكة الإيمان عندهم .

وقد وردت آيات أخرى بالنداء لبني إسرائيل وأهل الكتاب مطلقاً تتضمن الحجة والبيان .

(١) سورة الأنعام ٩٠.

(٢) سورة النمل ١٤.

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار إمتحان وإختبار ، ومن وجوه الإمتحان إفتتان شطر من الناس ببعضهم وإتقيادهم لإغواء الشيطان وعصمة المؤمنين من إتباع خطواته ، لتكون عاقبتهم الخلود في النعيم .

وجاءت هذه الآيات لبيان الوقائع التي خاضها المسلمون ومصاحبة فضل الله عز وجل لهم ، ببركة وجود النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بين ظهرانيهم .

وقد لقي أشد ضروب الأذى من أجل إنقاذهم من الضلالة ولدحر الكفر ومفاهيمه في الأرض ، ف وقعت معركة بدر وكان المسلمون فيها مقبلين غير مدبرين ، ليس فيهم من فرأ أو إنهزم ، وإستخفوا بكفار قريش حينما إنهزموا ، ولم يعلموا ما لهم من سلطان وشأن في مكة وما حولها وقد سمي الله عز وجل مكة ﴿أُمُّ الْقُرَى﴾ ^(١) .

وعندما عاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم من معركة بدر قام وسط الطريق إلى المدينة بتوزيع الغنائم ، حتى إذا كان بالروحاء والتي تبعد عن المدينة المنورة عشرة كيلو مترات لقيه المسلمون يباركون له هذا الفتح ، فقال لهم سلمة بن سلامة (مَا الَّذِي لَقِينَا إِلَّا عَجَائِزَ صَلُعًا كَالْبُذْنِ الْمُعَقَّلَةِ فَنَحَرْنَاَهَا ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ أَيُّ ابْنِ أَخِي ، أَوْلَيْتَكَ الْمَلَأُ) ^(٢) والملاهم الوجهاء والرؤساء .

فسخر رجال قريش جاههم وأموالهم لحشد الناس ضد الإسلام والنبوة في سابقة لم ولن تحدث في التاريخ إذ يخرج النبي من قومه هارباً برسالته فاراً بأصحابه وأهل بيته ليلحق الكفار به ويقطعون مسافة نحو خمسمائة كيلو متر لقتاله ، وتقدير أول آية السياق (يا أيها الذين آمنوا إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان) ويحتمل وجوهاً :

(١) سورة الأنعام ٩٢.

(٢) الروض الأنف ٩٢/٣.

الأول : فيه فخر وعز للمسلمين للملازمة بين النداء بالإيمان وبين معنى الفخر والعز .

الثاني : التفصيل ، ففيه فخر للذين ثبتوا في ميدان القتال وتعريض وتبكيك للذين فروا من الميدان منهم ، بلحاظ لزوم الملازمة بين الإيمان والصبر عند القتال والدفاع ، قال الكميّ بن زيد

إذا لم يكن إلا الأسنة مركب .. فما رأي للمضطر إلا ركوبها^(١)

والأسنة جمع سنان وهو نصل الرمح ورأسه الحاد .

الثالث : الإطلاق في الثناء والمدح للمسلمين وإن كان فريق منهم قد إختار الفرار من الميدان .

والصحيح هو الثالث أعلاه لوجوه :

الأول : أصالة التبادر في عظيم فضل الله عز وجل على المسلمين .

الثاني : مخاطبة آية البحث المسلمين بصيغة الإيمان .

الثالث : نسبة آية السياق الذين تولوا إلى النبي محمد صلى الله عليه

وآله وسلم وأهل البيت والمؤمنين الذين ثبتوا معه .

ترى لماذا لم تخاطب آية السياق النبي محمداً صلى الله عليه وآله

وسلم وتقول : إن الذين تولوا من أصحابك .

الجواب من جهات :

الأولى : إرادة إكرام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثانية : مجئ نظم الآيات بالخطاب للمسلمين .

الثالثة : شكر الله عز وجل للمسلمين لأنهم جاهدوا في سبيله

وخرجوا للقتال .

الرابعة : تنمية ملكة تلقي المسلمين الخطاب الإلهي بالقبول والتدبر والعمل ، وفي التنزيل ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).

الرابع : نسبة آية السياق التولي إلى المسبب وهو إزلال الشيطان .
الخامس : مجئ آية السياق بالإخبار عن عفو الله عز وجل عن الذين تولوا من المؤمنين .

وعندما نزل قوله تعالى ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا...﴾^(٢).
 ورد عن جابر بن عبد الله أنه قال : نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة ، وما نحب أنها لم تنزل لقول الله تعالى ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ وجابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام من بني سلمة من الأنصار شهد العقبة الثانية برفقة أبيه ، ذكر أنه من البدرين ، وكان ينقل الماء يومئذ ثم شهد مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثمان عشرة كتيبة .
 وعن جابر قال : غزا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه إحدى وعشرين غزوة شهدت منها معه تسع عشرة كتيبة . وكان من الكثيرين الحفاظ للسنن وكف بصره في آخر عمره^(٣).
 وقيل أن جابراً لم يشهد أحداً (وقال ابن الكلبي شهد أحداً وشهد صفيين مع علي عليه السلام)^(٤).
 وتوفي سنة أربع وسبعين ، وقيل سنة ثمان وسبعين وعمره أربع وتسعون سنة .

وفي حديث جابر أعلاه مسائل :

(١) سورة التوبة ١٠٥.

(٢) سورة آل عمران ١٢٢.

(٣) الإستيعاب ٦٥/١.

(٤) الإستيعاب ٦٥/١.

الأولى : بيان وتعيين أسباب نزول الآية القرآنية .
الثانية : جواز إعتداد الخبر عن الصحابي بخصوص أسباب النزول مع عدم وجود الخبر أو القرينة المعارضة .
الثالثة : تفقه الصحابة في دلالات آيات القرآن ، وما فيها من العلوم والدلالات .

الرابعة : تأكيد إخبار الآية أعلاه عن الهمّ بالفشل إذ تؤكد الآية بالدلالة التضمنية على أن الطائفتين من الصحابة لم يفسلوا ولم يجبنوا بينما أخبرت آية لاحقة بحصول الفشل من المسلمين ونزلت كلا الآيتين بخصوص معركة أحد بقوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ﴾ .

ليفيد الجمع بين الآيتين التبعيض في الفشل والجبن وأنه لم يقع من قبل كل المؤمنين في ميدان المعركة ، وكأن جابر بن عبد الله يقول أننا خارجون بالتخصيص من قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ﴾ وأنا لم نفشل ولم نجبن ، ليكون تقسيم المسلمين وفق الآية أعلاه على جهات :
الأولى : طائفة فشلوا وجبنوا حينما تغيرت الريح ، وصارت الجولة للذين كفروا في معركة أحد وكثر القتل بين المسلمين ، وتحتمل الصلة بين التولي والذي توثقه آية السياق والفشل الذي تذكره آية السياق وجوهاً :

الأول : نسبة التساوي وأن الذين فشلوا هم أنفسهم الذين فشلوا وفروا من ميدان المعركة .
الثاني : نسبة العموم والخصوص من وجه فهناك مادة للإلتقاء وأخرى للإفتراق .

الثالث : نسبة العموم والخصوص المطلق ، وهو على شعبتين :

الأولى : الذين فشلوا وجبنوا أعم وأكثر من الذين فروا من ميدان المعركة .

الثانية : الذين فروا من ميدان المعركة هم الأكثر من الذين فشلوا .
والمختار هو الشعبة الأولى من الوجه الثالث أعلاه .
كما تحتمل النسبة بينهم وبين الذين ثبتوا في ميدان المعركة وجوهاً :
أولاً : الذين ثبتوا في ميدان معركة أحد أكثر من الذين فروا .
ثانياً : الذين ثبتوا أكثر من الذين فشلوا وجبنوا .
ثالثاً : الذين فشلوا وجبنوا أكثر من الذين ثبتوا في الميدان .
رابعاً : الذين تولوا وفروا أكثر من الذين ثبتوا في الميدان .
خامساً : الذين ثبتوا في الميدان أكثر من الذين فشلوا والذين تولوا مجتمعين .

سادساً : الذين فشلوا وجبنوا والذين تولوا أكثر من الذين ثبتوا في الميدان بصبر ومجاهدة .

والمختار هو الأخير أعلاه فلم يبق مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في ميدان المعركة إلا نفر قليل من أهل البيت والصحابة ، وقد وردت بعض الأخبار بذكر أسمائهم .

الوجه الثاني : من معاني النداء جذب سمع المنادى وتهيئة ذهنه لأمر ففضل الله عز وجل ونادى المسلمين وجاء النداء بصفة الإيمان والشهادة لهم من عند الله ببلوغ مرتبة الهداية والإيمان ، ولو دار الأمر بين الإطلاق والتقيد فالأصل هو الإطلاق أي أن الله عز وجل يشهد للمسلمين بالإيمان من وجوه:

الأول : إيمان المسلمين بالله إلهاً واحداً .

الثاني : تسليم وإقرار المسلمين بانتفاء الشريك والند لله عز وجل ، ليكون من معاني ودلالات قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بشارة

المسلمين بقرب العفو والمغفرة منهم ، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(١).

ومن مصاديق فوز المسلمين بالمغفرة ذكر آية السياق لعفو الله عز وجل عن الذين تولوا وفروا من القتال مع بقاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الميدان وقلعة الصاحب والمؤازر ، إذ وردت الأخبار بأن عدد الذين معه أحد عشر من أهل بيته وأصحابه .

وفي رواية ثلاثة عشر ويفيد رد الأخبار بعضها إلى بعض بأن عددهم أقل من عشرين ، ويدل نزول العفو عن الذين فروا وتولوا من الصحابة على شمول العفو لغيرهم من باب الأولوية القطعية .

الثالث : إيمان المسلمين بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمعجزات التي جاء بها .

الرابع : الإيمان بنزول القرآن من عند الله ، ومن خصائص المسلمين في المقام أمور :

أولاً : التسليم بأن ما بين الدفتين قرآن .

ثانياً : العصمة من تغيير أو تبديل كلمات القرآن .

ثالثاً : تعاهد آيات القرآن رسماً وتلاوة وحفظاً وتفسيراً .

رابعاً : الإمتثال لأمر الله بوجوب قراءة القرآن في الصلاة اليومية على نحو الوجوب العيني لكل مسلم ومسلمة خمس مرات في اليوم ، ومن الإعجاز في الشريعة الإسلامية تكرار التلاوة في كل فريضة من الفرائض الخمسة .

الخامس : الإيمان بملائكة الله عز وجل وأن مسكنهم السماء وأنهم عباد مكرمون .

السادس : الإيمان بالأنبياء والمرسلين على نحو العموم الإستغراقي والمجموعي ، قال تعالى ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾^(١).

السابع : الإيمان باليوم الآخر والمعاد ووقوف الناس بين يدي الله للحساب ، وإجماع علماء المسلمين على أن الإيمان بالمعاد من أصول الدين وإن كان تقسيم مبادئ وأحكام الشريعة إلى أصول وفروع تقسيماً إستقرائياً .

ولما كان نداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تشريفاً وإكراماً من عند الله للمسلمين والمسلمات فهل فيه بشارة الجزاء لهم ، الجواب نعم ، وليس من حصر لوجوه الجزاء ، ويتفضل الله تعالى بمضاعفته من وجوه :

الأول : تلاوة المسلمين لآيات القرآن .

الثاني : ترتب الثواب الجزيل على تلاوة المسلم للآية القرآنية سواء في الصلاة أو خارجها ، لذا تفضل الله عز وجل وأثنى على القرآن ، قال تعالى ﴿قَالَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾^(٢) أي أنه نعمة عظيمة وخير محض وتترشح عنه البركة .

وعن عوف بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من قرأ حرفاً من القرآن كتب الله له به حسنة . لا أقول { بسم الله } ولكن باء ، وسين ، وميم ، ولا أقول { الم } ولكن الألف ، واللام ، والميم .

وأخرج عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : من قرأ حرفاً من القرآن كتب الله له عشر حسنات : بالباء ، والتاء ، والثاء)^(٣).

(١) سورة البقرة ١٣٦.

(٢) سورة ق ١.

(٣) الدر المنثور ١٥/١.

الثالث : تلقي المسلمين نداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالشكر لله عز وجل ، ومن مصاديق هذا الشكر تلاوتهم عدة مرات في اليوم لآية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) ومن وجوه جزاء الله عز وجل للمسلمين بلحاظ آيات البحث أمور .

أولاً : سلامة المسلمين من الفرار والتولي .

ثانياً : عصمة المسلمين من فعل القبائح التي يرتكبها الذين كفروا .

ثالثاً : زيادة إيمان المسلمين ، وفي الثناء على الذين يتحلون بصفة الإيمان منهم ، قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾^(٢) .

رابعاً : عصمة المسلمين من محاكاة الذين كفروا .

خامساً : مناجاة المسلمين في الدفاع عن بيضة الإسلام والتفاني والإخلاص في طاعة الله .

سادساً : صرف شرور وكيد الشيطان عن المسلمين .

وتتضمن آية السياق في دلالتها أموراً :

الأول : حث المسلمين على الدعاء للسلامة من الشيطان وإغوائه .

الثاني : ترغيب المسلمين بالتفقه في الدين ، ومعرفة كيفية التوقي من الغواية .

الثالث : ترغيب المسلمين بالدعاء والسؤال للعصمة من إتباع الشيطان .

الرابع : دعوة المسلمين والمسلمات في أجيالهم المتعاقبة إلى التدبر بوقائع اللقاء بين المسلمين والذين كفروا في معركة أحد .

(١) سورة الفاتحة ٢ .

(٢) سورة الأنفال ٢ .

الخامس : دعوة المسلمين للإجتهد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للإحتراز من حبائل الشيطان .

السادس : لزوم تجلي مصاديق الأخوة الإيمانية بين المسلمين بالمنجاة بالإحتراز من الشيطان وإنقاذ الذين يفتتن به .

السابع : يدل نزول العفو من عند الله عن الذين تولوا عن القتال في ذات الآية على فتح باب العفو للمسلمين ، وهو من الفيوضات الإلهية المصاحبة لبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

ومن أسرار القرآن أنه يوثق قصص الأنبياء مع بيان جهادهم وتقانيهم في طاعة الله ، ووجود أمة من الأتباع والأنصار لهم مع البشارة لهم بالغبطة والسعادة في الآخرة .

وذكر القرآن قصص الطواغيت والقوم الظالمين مع بيان جورهم وطغيانهم وما لحقهم من الفناء وأسباب الهلاك ، وما ينتظرهم من العقاب الأليم في الآخرة ، قال تعالى في آل فرعون ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾^(١).

وتتضمن الآية أعلاه صنوفاً من العذاب وهي :

الأول : هلاك آل فرعون وغرقهم في البحر الأحمر .

الثاني : نزول العذاب الإبتدائي بآل فرعون وهم في القبور، وهو الذي يسمى عذاب البرزخ ، وهذا المعنى مستقراً من قوله تعالى ﴿وَمَنْ وَرَّاهُمْ بَرْزَخًا إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾^(٢).

الثالث : خلود آل فرعون في النار يوم القيامة ، ومن هذه الآيات إنذار الذين كفروا من قريش ومن والاهم ، ودعوة الناس لإجتنب

(١) سورة غافر ٤٥-٤٦.

(٢) سورة المؤمنون ١٠٠.

محاربة الإسلام والجحود بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فليس في هذا الجحود إلا الهلاك ، وسوء العاقبة ، وقد جاءت آيات القرآن بدعوة الناس للسير في الأرض لمعرفة سوء عاقبة الذين كفروا ، لقد تقدم قبل سبع آيات قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرْدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾^(١).

ثم جاءت آية البحث بذات صيغة الإيمان مما يدل على ثبات المسلمين في مقامات الإيمان ، وفي الجمع بين نداء الإيمان في الآية أعلاه ونداء الإيمان في آية البحث وجوه :

الأول : من أسرار الجمع بين الآيتين إخبار القرآن عن عصمة المسلمين من طاعة الذين كفروا ، إذ جاءت الآية أعلاه بالنهي عن طاعتهم ، ووردت آية البحث بتأكيد إتصاف المسلمين بخصال الإيمان ، ليكون من إعجاز القرآن أن الله عز وجل ينهى المسلمين عن فعل ثم يخبر عن تقيدهم بمضامين ذات النهي ، فلو أطاع المسلمون الذين كفروا لما جاء الخطاب من عند الله لهم مرة ثانية بذات صفات الهدى والرشاد.

الثاني : من أشد ما يواجه الإنسان في الحياة الدنيا أمور :
أولاً : إختيار الكفر .

ثانياً : البقاء على الكفر ، مع تجدد الدعوة للإيمان في كل دقيقة وساعة من ساعات عمر الإنسان .

ثالثاً : الإرتداد عن مقامات الهدى والإيمان ، فابتدأت آية البحث بيشارة المسلمين بسلامتهم من هذه الأمور .

الثالث : من أسرار نفخ الله عز وجل من روحه في آدم وديب الحياة في بدنه بسببها بعث النفرة في نفوس بن آدم من الكفر ومن إتباع

الشیطان وأخرج ابن جریر عن ابن عباس قال : (كان إبليس من حي من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم من بين الملائكة ، وكان اسمه الحارث ، فكان خازناً من خزان الجنة ، و خلقت الملائكة كلهم من نور غير ذلك الحي ، و خلقت الجن من مارج من نار . وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت ز

فأول من سكن الأرض الجن ، فأفسدوا فيها ، وسفكوا الدماء وقتلوا بعضهم بعضاً ، فبعث الله اليهم إبليس في جند من الملائكة فقتلهم حتى ألحقهم بمزائر البحور واطراف الجبال ، فلما فعل إبليس ذلك اغتر بنفسه وقال : قد صنعت شيئاً لم يصنعه أحد ، فاطلع الله على ذلك من قلبه ولم تطلع عليه الملائكة . فقال الله للملائكة { إنني جاعل في الأرض خليفة }^(١).

ف قالت الملائكة { أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء }^(٢) كما أفسدت الجن قال { إنني أعلم ما لا تعلمون } يقول : إنني قد اطلعت من قلب ابليس على ما لم تطلعوا عليه من كبره واغتراره .

ثم أمر بترية آدم فرفعت ، فخلق الله آدم عليه السلام من طين { لازب }^(٣) ، واللازب اللزج الطيب من { حمأ مسنون } منتن ، وإنما كان حمأ مسنوناً بعد التراب ، فخلق منه آدم بيده ، فمكث أربعين ليلة جسداً ملقى ، فكان ابليس يأتيه يضربه برجله ، فيصلصل فيصوت ثم يدخل من فيه ويخرج من دبره ، ويدخل من دبره ويخرج من فمه ، ثم يقول : لست شيئاً ، ولشيء ما خلقت! ولئن سلطت عليك لأهلكنك ، ولئن سلطت علي لأعصينك .

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة الأنعام ٩٠.

(٣) سورة الصافات ١١.

فلما نفخ الله فيه من روحه أتت النفخة من قبل رأسه ، فجعل لا يجري شيء منها في جسده إلا صار لحماً ودماً ، فلما انتهت النفخة إلى سرته نظر إلى جسده فأعجبه ما رأى من جسده ، فذهب لينهض فلم يقدر . فهو قول الله { خلق الإنسان من عجل } .

فلما تمت النفخة في جسده عطس فقال { الحمد لله رب العالمين }^(١) يا إلهام من الله فقال الله له « يرحمك الله يا آدم ، ثم قال للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة دون الملائكة الذين في السموات : { اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر }^(٢) لما حدث في نفسه من الكبر فقال : لا أسجد له ، وأنا خير منه ، وأكبر سناً ، وأقوى خلقاً ، فأبلسه الله وآيسه من الخير كله ، وجعله شيطاناً رجيماً^(٣) .

لقد أراد الله عز وجل التخفيف عن الناس فزين الإيمان في نفوسهم وحبب إليهم طاعته ، وتفضل وبين لهم أن طاعة الذين كفروا مجلبة للضرر في النشأتين ، وأنها تؤدي إلى الإرتداد والخسران المبين ، لبيان حقيقة وهي أن الكفار ييؤون بإثمهم وإثم الذين يتبعوهم ويطيعونهم . وتبين الآية أعلاه علة استمرار مفاهيم الكفر في الأرض وأنها لم تنقل وتقم بالتوارث والقناعة والرضا ، إنما تقوم بطاعة فريق من الناس لرؤساء الكفر كما في معركة بدر وأحد ، فان علة هاتين المعركتين ومعارك الإسلام الأولى قيام أفراد قلائل من رؤساء الكفر والضلالة بتحريض الناس وبذل الأموال ، والإنفاق بسخاء لتجنيد الناس وترغيبهم والعهد لهم بأداء ما عليهم من الديون من أجل الخروج لقتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) سورة الفاتحة ١ .

(٢) سورة البقرة ٣٤ .

(٣) الدر المنثور ١/٦٦ .

الرابع : يبعث قوله تعالى ﴿فَيَنْتَقِلُوا خِائِبِينَ﴾^(١) الحيلة والحدز في نفوس المسلمين من الركون للقوم الظالمين ، ومن طاعة الذين كفروا ، وهو من ضروب طرو الغفلة عن المسلمين في قوله تعالى ﴿نَحْنُ نُقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾^(٢).

وهل يتضمن الإنذار والتحذير من الانقلاب بالخسارة الخوف والفرع في نفوس المسلمين من الإرتداد وما يترشح عنه من الخسارة ، الجواب لا ، ويدل على إمتناع الخوف العام عند المسلمين بسبب الآية أعلاه وإن وردت بصيغة النهي المقترن بالإنذار بدليل إبتداء الآية بنداء الإيمان الذي هو حرز وأمن من الإرتداد وأسبابه وأضراره ، وإنتهاء الآيات المعطوفة على ذات النداء بخاتمة آية السياق ﴿إِنِ اللّٰهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^(٣).

ومن مصاديق رحمة الله في المقام المدد الذي يتفضل به لحصانة المسلمين من النكوص والإرتداد الذي هو من الكلي المشكك الذي يكون على مراتب متعددة ومتفاوتة قوة وضعفاً . وقيدت الآية ما يكون سبباً للإنتقال على الإعقاب من ضروب الإرتداد بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرْذِلْكُمُ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾^(٤).

(١) سورة آل عمران ١٢٧.

(٢) سورة يوسف ٣.

(٣) سورة آل عمران ١٥٥.

(٤) سورة آل عمران ١٤٩.

وأختتمت آية البحث بالنداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لتأكيد سلامة المسلمين من الإرتداد ، وتلقيهم النهي عن طاعة الذين كفروا بالقبول والإمتثال ، والإمتناع عن طاعتهم ، وهو الأمر الذي ملأ قلوب الذين كفروا بالغيظ والحسد خاصة وإن كثيراً من أصحاب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من المستضعفين والفقراء ، ومنهم من كان عبداً عند بعض رجالات قريش مثل بلال ، ولم يعلموا أن الله عز وجل يرفع الإنسان بالإيمان درجات ، قال سبحانه ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

فأرادت قريش قهر المسلمين وحملهم على طاعتهم ، فكان النهي من عند الله عز وجل عن طاعة الكفار سلاحاً عند المسلمين من جهات:

الأولى : تفقه المسلمين في الدين ، ومعرفة سبل إجتناط طاعة الذين كفروا .

الثانية : الفصل وإلى يوم القيامة بين المسلمين والذين كفروا إذ جاء قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لبيان هذا الفصل في الاسم والمسمى وفي الصفات والأفعال ، وهو من الإعجاز في تسمية يوم معركة بدر يوم الفرقان بقوله تعالى ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّمَيِّزِ الْجَمْعَانِ﴾^(٢).

وقد تقدم أن يوم معركة أحد هو يوم فرقان وفيصل بين الإيمان والكفر وإلى يوم القيامة .

(١) سورة المنافقون ٨.

(٢) سورة الأنفال ٤١.

الثالثة : بعث النفرة في نفوس المسلمين من الفعل الذي ينهى عنه الله عز وجل ، ومن الإعجاز في المقام شمول النهي عن طاعة الذين كفروا في القول والعمل .

الرابعة : بيان أضرار طاعة الذين كفروا ، وتتعدد هذه الأضرار من وجوه :

أولاً : لحوق الضرر بذات الذي يطيع الكفار ، وينصت إليهم ، ويحاكيهم في أقوالهم وأفعالهم ذات صبغة الجحود وإنكار الإلوهية المطلقة لله ، والإمتناع عن التصديق بالنبوة والتنزيل .

ثانياً : ما يلحق ذات الذين كفروا من الإثم بسبب إتباع الغير لهم ، قال تعالى في ذمهم وإنذارهم ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّوهُمْ بَغِيرِ عِلْمٍ﴾^(١) .

ثالثاً : ما يترشح من الضرر على الناس بسبب تغشي طاعة الذين كفروا في القبائح والمنكرات .

الخامسة : تنمية ملكة التقيد بالنواهي الواردة في القرآن والسنة عند المسلمين والمسلمات .

ومن غايات نهى المسلمين عن طاعة الذين كفروا أمور :

الأول : ثبات المسلمين في مقامات الإيمان .

الثاني : إنذار الذين كفروا بأن المسلمين سيدافعون بالسيف والنفوس والأموال .

الثالث : دعوة الناس جميعاً إلى عدم طاعة الذين كفروا .

الرابع : صيرورة المسلمين أسوة وقدوة للناس في العصمة من طاعة الذين كفروا .

الخامس : بعث الخوف والرعب في قلوب الذين كفروا لإعراض الناس عنهم، إنما يقاتل رؤساء الكفر بالأعوان والجند والأتباع.

ليدل قوله تعالى ﴿إِنَّ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرْذَوْكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾^(١)،
أَعْقَابِكُمْ﴾^(١)، في مفهومه على أمور:

الأول : قبح فعل الذين كفروا.

الثاني : ذم الذين كفروا لسوء إختيارهم.

الثالث : إنذار الناس من إغواء الناس.

الرابع : حث الناس على الإقتباس من المسلمين، وتعلم كيفية الصدود عن الذين كفروا.

الخامس : إرادة سلامة أهل الأرض من الحروب والقتال، ولما احتجت الملائكة على تفضل الله يجعل آدم خليفة في الأرض بقولهم

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٢)، أجابهم سبحانه بقوله

﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣)، ليكون من علم الله عز وجل منع

المسلمين من طاعة الذين كفروا وصد الناس عن إتباعهم في فسادهم، حتى إذا ما أراد الذين كفروا القتال دون الباطل إمتنع الناس عن نصرتهم، ونزل الملائكة لنصرة الذين آمنوا .

وتحتمل الآية القرآنية وجوهاً :

الأول : من آيات القرآن ما هي فيصل بين الإيمان والكفر ومنها ما لا صلة لها بموضوع الفصل والتمييز بينهما .

الثاني : كل آية قرآنية فيصل بين الإيمان والكفر .

(١) سورة آل عمران ١٤٩.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

الثالث : لا صلة لآيات القرآن بالفصل والفصل بين المؤمنين والذين كفروا ، بدليل أن آية البحث تخاطب المسلمين بصفة الإيمان ، وتتوجه آيات من القرآن إلى الذين كفروا بالذم والتوبيخ.

الرابع : القدر المتيقن من الفرقان بالنسبة للمسلمين هو أن القرآن كله فرقان بلحاظ العموم المجموعي لآياته ، قال تعالى في الثناء على نفسه والإخبار عن عظيم منزلة القرآن ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾^(١).

وعن ابن عباس قال : الفرقان جماع اسم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان^(٢).

الخامس : قد جاء النص القرآني بأن يوم بدر (يوم الفرقان) إذ تقابل المسلمون بإمامة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع الذين كفروا في أول معركة في تاريخ الإسلام فاجتهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالدعاء وقال (اللهم انجز لي ما وعدتني)^(٣).

وعندما شارفت المعركة على الإنتهاء قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات المعنى : اللهم إن تقتل هذه العصابة لا تعبد^(٤).

وهذا الدعاء وثيقة رسالية تبين إنحصار الإيمان بالمدينة المنورة وإختصاص الدفاع عنه بالصحابة الذين حضروا معركة أحد تحت لواء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والعصابة هم الجماعة من الناس المنتظمة في أمر .

وفي حديث النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أعلاه بيان لحاجة الناس إلى الإسلام وسلامة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وطائفة من أصحابه يوم أحد لدوام الدعاء إلى عبادة الله ، وتستقرأ

(١) سورة آل عمران ٤.

(٢) الدر المنثور ١/١١٨.

(٣) الكشف والبيان ٦/١٥.

(٤) الدر المنثور ٢/٤٦٣.

هذه الحاجة من قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١) ويحتمل المقصود من لفظ العصابة وجوهاً :

الأول : إرادة شخص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتقدير الدعاء (اللهم إن أقتل وأنا خاتم النبيين والإسلام لما ينتشر بعد) .

الثاني : إرادة نفر من أهل البيت والمهاجرين والأنصار الذين ثبتوا مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الميدان .

الثالث : المقصود عموم الصحابة الذين قابلوا الذين كفروا في الميدان وشملهم لفظ الجمع في قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَقُى الْجُحَنَ﴾ فهم الدعاة إلى الإسلام والذين يذبون عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإذا قتلوا لم يبق مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا الضعفاء والمستضعفين والنساء بل إن بعض المؤمنات كانت تشارك في القتال مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم كأم عمارة ، كما خرجت نسوة إلى ميدان المعركة لمداواة الجرحى ، وإذا قتل الرجال سبيت النساء ، ومنعن من الصلاة والصوم ، وهو من الذخائر في دعاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

ويعلم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه لا يغادر الحياة الدنيا حتى ينزل عليه القرآن كله ، لذا كان من آخر آيات القرآن نزولاً قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢) .

والمختار لإرادة الوجوه الثلاثة أعلاه كلها ، فيدخل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الدعاء ، ورجاء نجاته وأهل بيته

(١) سورة الذاريات ٥٦ .

(٢) سورة المائدة ٣ .

وأصحابه من القتل يوم معركة أحد خاصة عندما تحولت الريح وصارت الجولة للذين كفروا ، وهل لهذا الدعاء أثر حسي .

الجواب نعم ، فقد توقفت المعركة من غير علة ظاهرة ، وكان الخيار بيد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لتجدد القتال وهو الذي يدل عليه قوله تعالى ﴿وَالرَّسُولُ يُدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ﴾^(١) ليكون من مصاديق قوله تعالى ﴿وَالرَّسُولُ يُدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ﴾ يدعوكم لإحتمال تجدد القتال والنظر في إعادة الكرة على الذين كفروا .

لقد ورد دعاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بصيغة الجملة الشرطية وفق الصناعة النحوية ، ولكنه ليس شرطاً ، إنما هو دعاء توسل ورجاء لحفظ الصحابة وللحاق الخزي بالذين كفروا ﴿يَوْمَ تَقَى الْجَمْعَانِ﴾.

وذات الدعاء للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في يوم حنين (اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ أَنْ لَا تُعَبِّدَ بَعْدَ الْيَوْمِ)^(٢) ولم يترك صلى الله عليه وآله وسلم الشكر لله عز وجل إذ كان يقول يومئذ : اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، فقال جبريل : لقد لقنت الكلمات التي لقي الله تعالى موسى يوم فلق البحر ، وكان البحر أمامه وفرعون خلفه . ومن الشواهد على إستجابة الله عز وجل لدعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد نزول الملائكة بقصد نصرة المؤمنين كما في قوله تعالى ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَ رِبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾^(٣) لبيان أن الله عز وجل أخبر النبي صلى الله

(١) سورة آل عمران ١٥٣ .

(٢) مسند أحمد ٣١٩/٢٤ .

(٣) سورة آل عمران ١٢٤ .

عليه وآله وسلم إجابة دعوته ومنع القتل والغناء عن الوصول إلى ساحة أصحابه وأمره أن يبلغهم بنزول الملائكة لنصرتهم .
ويحتمل موضوع ومكان وزمان مدد الملائكة في الآية أعلاه وجوهاً:
الأول : إختصاص نصرة الملائكة بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثاني : نصرة الملائكة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أما نصرتهم للصحابة الذين معه فبالتبعية والإلحاق .

الثالث : إرادة نصرة الملائكة للمهاجرين والأنصار ، أما النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فإن الله عز وجل هو الذي ينصره .

لذا ورد قوله تعالى ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُدْعِمَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾^(١) ويمكن أن يقال أن ملائكة آخرين نزلوا لنصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم غير الذين حضروا لنصرة المؤمنين.

ومن الإعجاز في المقام مجئ الآية التالية للآية أعلاه بالإخبار عن كون عدد الملائكة يأتون لنصرتهم خمسة آلاف ملك ، وذكر الله صفتهم ﴿مُسَوِّمِينَ﴾^(٢) أي أنهم يحملون علامات تدل عليهم ، وكأن علامات الملائكة الثلاثة آلاف الذين نزلوا لنصرة المؤمنين غير علامات الذين نزلوا لنصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولعل منهم من نزل بوظائف أخرى بذات المعنى والخصوص .

(١) سورة آل عمران ١٢٤.

(٢) سورة آل عمران ١٢٥.

لذا ذكر لفظ ﴿يُمِدُّكُمْ﴾ في قوله تعالى ﴿يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ﴾^(١)، ثم جاء في الآية أعلاه ﴿يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ ..﴾ لبيان التعداد والزيادة المتصلة .

الوجه الثالث : تقدير الجمع بين الآيتين (يا أيها الذين آمنوا إن الذين تولوا منكم يوم إلتقى جمعكم وجمع الذين كفروا) لبيان حقيقة وهي اتحاد سنخية الإيمان والاتصال والرحم والنسب بين المسلمين الصحابة وبين أجيال المسلمين المتعاقبة وإلى يوم القيامة ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٢) بإرادة الأخوة الطولية بين الأجيال المتعاقبة والحي والميت منهم ، والعرضية الظاهرة بالأخوة بين أفراد الجيل والطبقة الواحدة منهم .

ومن معاني هذا الجمع الإتصال الموضوعي المتجدد في كل زمان لأثر معركة أحد ، وحاجة أجيال المسلمين إلى النصر والسلامة من الهزيمة فيها ، وهو من أسرار مجئ آية السياق بصيغة الخطاب العام للمسلمين ، وإبتداء آية البحث بالنداء للمسلمين بصفة الإيمان .

الوجه الرابع : من غايات آية السياق الإنذار وتحذير المسلمين من إتباع خطوات الشيطان الذي يؤدي إلى الإنصات للنفس الشهوية والتعلق بزينة الدنيا ، وقلة الصبر ، لتبعث آية السياق المسلمين على التفقه في الدين والإحتراز من المعاصي والذنوب ، وعن الإمام علي بن الحسين عليه السلام قال (متفقه في الدين أشد على الشيطان من عبادة ألف عابد)^(٣).

(١) سورة آل عمران ١٢٤.

(٢) سورة الحجرات ١٠.

(٣) البحار ١/٢١٣.

وجاءت الآية بصيغة الماضي ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾ وكذا مسألة العفو عنهم ، ليكون مضمون الآية من قصص القرآن الخاصة بالمسلمين وجهادهم وصبرهم في سبيل الله .

المسألة الرابعة : تقدير الجمع بين الآيتين : يا أيها الذين آمنوا إن الذين تولوا منكم لقد عفا الله عنهم (وفيه وجوه :

الوجه الأول : بيان قانون وهو أن القرآن مدرسة تأديب المسلمين والمسلمات ، فما أن يدخل الإنسان الإسلام أو يصل المسلمة والمسلمة سن البلوغ حتى يتوجه لهم الخطاب التأديبي اللطيف ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لإفادة حقيقة وهي شهادة الله عز وجل لهم بالإيمان ولزوم قيامهم بشكره سبحانه بالتقيد بأحكام الإيمان ، ومنها الثبات في الميدان عند ملاقات الأعداء .

ليكون من وجوه تقدير الجمع بين الآيتين : يا أيها الذين آمنوا أثبتوا في الميدان ولا تكونوا كأخوانكم الذين تولوا بسبب إستزلال الشيطان لهم .

لقد ورد لفظ ﴿الَّذِينَ﴾ مرة واحدة في آية السياق ، وورد مرتين في آية البحث يتعلق أحدهما بالمسلمين بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لتكون النسبة بينهما هي العموم والخصوص المطلق ، فلفظ الذين آمنوا أعم وأكثر من قوله ﴿الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾ لتأكيد حقيقة تعبدية في الأرض وهي إنحسار التولي وقلة عدد أهله ومغادرته الدنيا ، بينما يبقى المسلمون يتوارثون الإيمان في كل زمان ، وقد تنقبض نفس المسلم عندما يعلم أن طائفة من الصحابة تولوا وفروا من ميدان المعركة مع وجود النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيه ، ونصرة الملائكة لهم ، فلم تقتصر نصرتهم على شخص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم

والنبوة والتنزيل ، بل نزلوا ليحفظوا أشخاص المسلمين بسلامة في دينهم ، لذا قيدت الآيات أوان نزولهم بتحلي المسلمين بالصبر والتقوى لقوله تعالى ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾^(١) .

وهل في الآية أعلاه تعريف للذين تولوا من المسلمين لأن الملائكة نازلون مدداً وناصرين لهم ، الجواب تدل الآية أعلاه على لزوم الصبر في الميدان وعدم اللجوء إلى التولي والفرار ومن فضل الله أن تولي وفرار أكثر المسلمين يومئذ لم يمنع من نزول الملائكة بلحاظ ثبات نفر منهم مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكل فرد منهم أمة بالصبر والتقوى ، قال تعالى في الثناء على إبراهيم عليه السلام ﴿إِن إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾^(٢) وكان الإمام علي عليه السلام والصحابة الذين ثبتوا في الميدان كل فرد منهم أمة وإمام بالصبر والتقوى ، وصار ثباتهم مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم مقدمة وسبباً مباركاً لنزول الملائكة لنصرتهم وإقامة صرح دولة الإسلام ، ومما يخفف الأمر ويهون الخطب عن الذين تولوا تضمن آية السياق نزول العفو من عند الله عز وجل عنهم ، لبيان قانون وهو مع نزول الملائكة والمدد ينزل العفو من عند الله وينزل النصر والغلبة على الأعداء ، وهو من مصاديق إن الله عز وجل يعطي بالأوفى والأتم .

فان قلت لم يتحقق نصر المسلمين في معركة أحد ، والجواب هناك أمارات تدل على هذا النصر منها :

الأول : سلامة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من القتل .

(١) سورة آل عمران ١٢٥.

(٢) سورة النحل ١٢٠.

الثاني : نسبة الإنصراف وإنهاء القتال إلى المسلمين ، فلم تكن المبادرة بيد الذين كفروا ، قال تعالى ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ .

الثالث : من معاني قوله تعالى ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ ما يفيد معنى النصر والغلبة للمسلمين من جهات :

الأولى : والرسول يدعوكم لمطاردة الذين كفروا ، ليكون من معاني هذه الآية البشارة بهزيمة العدو ، إذ توقف القتال في نفس اليوم الذي بدأ به ، وهو النصف من شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة هو هزيمة للذين كفروا

الثانية : والرسول يدعوكم للإنتفاع الأمل من وجود الملائكة في ميدان المعركة مدداً وناصرين للنبوة والإسلام .

الثالثة : والرسول يدعوكم إلى الصبر في مواطن القتال وزجر الذين كفروا من العودة إلى الهجوم مرة أخرى ، وهل من موضوعية لقوله تعالى ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ ونداء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للصحابة بالرجوع إلى ميدان معركة أحد في بعث المسلمين للدفاع في معركة الخندق وزجر ومنع جيوش الأحزاب من غزو المدينة والدخول إلى أزقتها ، الجواب نعم ، خاصة وأن الخندق الذي حفره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون لم يحيط بأطراف المدينة كلها ، وآثاره باقية إلى يومنا هذا ، ليكون من معاني إعجاز الآية القرآنية أنها تأتي بخصوص معركة من معارك المسلمين ليبقى ويتجدد نفعها من وجوه :

أولاً : النفع من الآية القرآنية في معارك الإسلام اللاحقة .

ثانياً : إتخاذ المسلمين الآية القرآنية التي تخص القتال والحرب موعظة وعبرة .

ثالثاً : الآية القرآنية واقية من كثرة القتال والحرب ، وحتى إذا قامت المعركة فانها سرعان ما تنتضي .

رابعاً : الآية القرآنية التي تخص أمور المسلمين حرب على النفاق وفضح للمنافقين وبرزخ دون إظهارهم ما يبتغون من الجحود ومعاني الكفر ، وفي التنزيل ﴿قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾^(١).

خامساً : الآية القرآنية دعوة للمسلم والمهادنة وحث على الجدل والإحتجاج بالبرهان ومنه التدبر في معاني الآية ويشترك المسلم وغيره في هذا التدبر وكأن الآية القرآنية بديل وعوض عن ميدان المعركة .

المسألة الخامسة : تقدير الجمع بين الآيتين : يا أيها الذين آمنوا إن الله غفور حلیم) وفيه وجوه :

الوجه الأول : يتجلى في الجمع بين الآيتين تعدد قوانين الرحمة في الإرادة التكوينية ، وهذه الرحمة على أقسام منها :

أولاً : شأيب الرحمة التي تنزل على الأفراد والرحمة نوع مفاعلة إذ أنها تنزل من عند الله فتصيب العبد سواء بقابلية عند العبد أو بفضل إيتدائي من عند الله كما يدل عليه قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٢)، وعن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم : تعرضوا لرحمة الله بما أمركم به من طاعته .

ثانياً : الرحمة الخاصة التي تأتي للمسلمين ، ويدل عليها نداء وخطاب الله عز وجل لهم بصفة الإيمان ، فلم تقل آية البحث : يا أيها الذين أسلموا ، وليس في القرآن مثل هذا النداء مع ورود لفظ ﴿يَا أَيُّهَا

(١) سورة آل عمران ١١٩.

(٢) سورة البقرة ١٠٥.

الَّذِينَ آمَنُوا ﴿ تسعاً وثمانين مرة ، لتدل هذه الكثرة العددية في مفهومها على أمور :

الأول : تأكيد إيمان المسلمين .

الثاني : وعد الله عز وجل بعدم إرتداد المسلمين .

الثالث : وجود أمة من المؤمنين بالله ونبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم في كل زمان ، مما يترشح عن هذا الإيمان التصديق بالقرآن واليوم الآخر .

الرابع : إستدامة نصر الله عز وجل للمسلمين ، قال تعالى ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

وهل عفو الله عز وجل عن المؤمنين عامة وعن الذين تولوا منهم يوم معركة أحد خاصة من مصاديق النصر الذي تذكره الآية أعلاه ، الجواب نعم لإرادة الإطلاق في معاني النصر فيها ومنه النصر على الذين كفروا ، والعصمة من إغواء الشيطان وعدم ديب الخوف والفرع إلى نفوسهم .

ثالثاً : الرحمة العامة التي تأتي للناس جميعاً ، وهو الذي تدل عليه خاتمة آية البحث ، إذ وردت بصيغة الإطلاق .

ويمكن تقسيم الرحمة النازلة من عند الله تقسيمات أخرى عديدة بحسب اللحاظ والموضوع والحكم والأثر.

وهل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من رحمة الله عز وجل الجواب نعم، وتنطبق عليه الأقسام الثلاثة أعلاه لبيان نكتة وهي أن المسلم ينتفع من كل قسم منها على نحو مستقل ومتداخل مع القسمين الآخرين، ويمكن تأسيس قانون وهو كل كلمة وآية في القرآن رحمة من عند الله .

الوجه الثاني : إخبار المسلمين عن قانون وهو إن الله عز وجل يغفر ذنوب المسلمين وذنوب غيرهم إن تابوا وأنابوا وأصلحوا ، لبيان حقيقة وهي أن قتال الإنسان إلى جانب الذين كفروا ضد الإسلام لا يغلق باب التوبة عليه ، وفيه وجوه :

الأول : دعوة المسلمين للشكر لله عز وجل على فوزهم بمراتب الإيمان التي هي مقدمة وطريق وموضوع للمغفرة وجلب محبة الله .

الثاني : بيان سبق المسلمين لغيرهم في مسالك التوبة والمغفرة ، لذا يتلو المسلمون كل يوم سورة الفاتحة ، ويسألون الله عز وجل أن يهديهم طريق الهدى وصراط الإستقامة والإيمان ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾^(١).

الثالث : صيرورة كل مسلم داعية إلى مغفرة الله ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾^(٢).

فيدعو المسلم إلى مغفرة الله عز وجل من جهات :

الأولى : يدعو المسلم نفسه إلى الفوز بمغفرة الله .

الثانية : يحث المسلم أهله وذويه إلى مغفرة الله .

الثالثة : ترغيب المسلم إخوته المسلمين والمسلمين بسبل مغفرة الله والمسارة في عمل الصالحات وكيفية الفوز بالعتق عنه ، والذي قد يأتي ابتداءً وفضلاً من عند الله عز وجل ، كما في آية السياق وقوله تعالى ﴿وَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾.

الرابعة : يدعو المسلم الناس جميعاً إلى العفو والمغفرة من عند الله عز وجل ، وهو من مصاديق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(١) سورة الفاتحة ٦-٧.

(٢) سورة المدثر ٣١.

ومن الإعجاز الغيري للقرآن أن تلاوة كل آية من آياته دعوة للناس للعفو والمغفرة والتي تنحصر بدخول الإسلام ، ومنه أن الآية السابقة تتحدث عن لقاء الجمعين ، وسيلان الدماء بين المسلمين والذين كفروا ، ومع هذا تعقبها آية البحث بالإخبار عن كون الله عز وجل هو الغفور الحليم .

وعن أنس قال (سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: والذي نفسي بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم لغفر لكم . والذي نفس محمد بيده لو لم تخطئوا لجاء الله بقوم يخطئون ، ثم يستغفرون فيغفر لهم)^(١) .
ومن أسماء الله : الغفور ، الغفار ، الغافر .

وقد ورد لفظ ﴿الغفور﴾ في القرآن إحدى وتسعين مرة ، بينما ورد لفظ ﴿الغفار﴾ خمس مرات ، وورد لفظ ﴿غافر﴾ مرة واحدة بقوله تعالى ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾^(٢) وتسمى ذات السورة التي ذكر فيها سورة غافر ، وقيل الغفار أبلغ ، ولكن كثرة ورود لفظ الغفور يدل على عظيم نفعه وأثره .

الوجه الثالث : لقد أختتمت آية السياق بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لبيان إقتران المغفرة مع حلم الله عز وجل ويكون من معاني هذا الإقتران وجوه :

الأول : إمهال الله عز وجل للعبد من الحلم ليكون هذا الإمهال مقدمة وترغيباً بالإستغفار ، فيفضل الله عز وجل فيغفر له ، وعن أنس بن مالك قال (قال ربكم : « عبيد إنك ما دعوتني ورجوتني فأني

(١) الدر المنثور ٨/ ٤٦٣ .

(٢) سورة غافر ٣ .

سأغفر لك على ما كان فيك ، ولو لقيتني بقراب الأرض خطايا لقيتك بقرابها مغفرة^(١).

وبالإسناد عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: مَنْ لَزِمَ الْإِسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا ، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ^(٢).

ومع رواية الحديث في كثير من أمهات كتب الحديث، فمنهم من رمى الحديث بالضعف لأن في طريقه الحكم بن مصعب المخزومي إذ قال بعض الرجالين أنه مجهول كما عن الحافظ في التقریب ، مع أن الحاكم قال الحديث صحيح الإسناد .

ولا تصل النوبة للترديد بأحد رجالات السند ، أو روايته عن طريق غير الطريق الذي يعتمد مذهب مخصوص من مذاهب المسلمين، إذا كان الحديث موافقاً لمنطوق الكتاب وله نظائر متعددة في السنة ، ويخص رحمة الله وسعته .

الثاني : الإخبار عن علم الله عز وجل بأفعال العبد ، وأنه يهمل الظالم حلماً منه تعالى ، وفي ذات الوقت يمد المؤمنين بأسباب المنعة ، ويكفيهم شر الظالمين ، كما حدث في معركة بدر وأحد ، إذ أصر الذين كفروا على الهجوم والقتال ، فامهلهم الله عز وجل ولم يستأصلهم وأمد المسلمين بجيش عظيم من الملائكة يغطي ما بين الخافقين^(٣) ، قال تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾^(١) .

(١) الدر المنثور ١٧/٩.

(٢) سنن أبي داود ٥٦٠/١.

(٣) الخافقان مثني خافق وفيه وجوه :

أولاً : معناه لغة الغائب ، ويراد منه في المقام المغرب وغلب على المشرق ، فقيل الخافقان كما قيل الأبوان والقمران.

ثانياً : المراد من الخافقين طرفا السماء والأرض.

وهل إمهال المؤمن العاصي مثل إمهال الكافر ، الجواب لا ، إذ يمهل الله الكافر ثم يأخذه أخذاً شديداً ، وقد يكون إمهال الكافرين على نحو الموجبة الجزئية ، كما في معركة بدر وأحد ، إذ سقط سبعون قتيلاً وأسروا سبعون من الكفار ولحقهم الخزي ، وفي معركة أحد سقط منهم (إثنان وعشرون على رواية ابن إسحاق) (٢).

ووقع أبو عزة الجمحي يومئذ أسيراً بيد المسلمين ، وكان من الأسرى يوم بدر ، فمن عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من غير فداء ولا عوض وإشترط عليه ألا يقاتله ، فلما تم أسره يوم أحد ، قال : يا محمد أمنن عليّ لبناتي ، وأعاهد ألا أقاتلك.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا أدعك تمسح عارضيك بمكة وتقول : خدعت محمداً مرتين ، ثم أمر به فضربت عنقه ، وذكر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال يومئذ (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) (٣).

الثالث : من ملك الله عز وجل السموات والأرض وما فيها ، وقد تفضل الله عز وجل وجعل الإنسان خليفة في الأرض ، ومن فضله تعالى على الخليفة بعث السكينة في نفوس الناس وقبض لهم أسباب

ثالثاً : إرادة متهى الأرض والسماء.

رابعاً : هواءان محيطان بجانب الأرض ، ذكره ابن منظور/ لسان العرب ٨٠/١٠.
خامساً : إرادة المغرب والمشرق ، وهو المشهور والظاهر من معنى اللفظ ، وعن إنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سد ما بين الخافقين لهم زجل بالترجيح والأرض بهم ترتج ، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : سبحان الله العظيم ، سبحان الله العظيم / تفسير ابن كثير ٢٣٨/٣.

(١) سورة الزمر ٣٦.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٩٢/٣.

(٣) المعجم الأوسط ٣١/١.

الطمأنينة في حياتهم ، وهو من حلم الله عز وجل عليهم مع كثرة الذنوب والمعاصي ، أما ما يرد من أسباب الخوف فهي أمور عرضية بما كسبت أيدي الناس ، كما تبين هذه الآيات علة إلقاء الخوف والرعب في قلوب الذين كفروا عندما زحفوا لقتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين من المهاجرين والأنصار ، قال تعالى ﴿سَنُلْقِيْ فِي قُلُوْبِ الذِّينِ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللّٰهِ﴾ (١) .

(الرُّعْبُ والرُّعْبُ الْفَزَعُ والخَوْفُ رَعْبَهُ يَرْعِبُهُ رُعْباً ورُعْباً فهو مَرْعُوبٌ ورَعِيبٌ أَفْزَعَهُ) (٢) وبين الرعب والخوف عموم وخصوص مطلق ، فكل رعب هو خوف وليس كل خوف هو رعب إذ يفيد الرعب إقتران الفزع بالخوف .

المسألة السادسة : تقدير الجمع بين الآيتين : ولقد عفا الله عن المؤمنين ليجعل الله ذلك حسرة في قلوب الذين كفروا) وفيه وجوه :
الوجه الأول : لقد تضمنت آية السياق الإخبار عن فرار طائفة من المسلمين يوم معركة أحد ، لتتعبه البشارة من عند الله بالعفو عنهم ، ويبحث هذا العفو الإخبار عنه السكينة في نفوس المؤمنين والمؤمنات ليكون من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (٣) من وجوه :

الأول : تلاوة المسلمين لآيات العفو والمغفرة من عند الله ، وتلقيها بالرضا والشكر لله .

الثاني : غبطة وسعادة عموم المسلمين بفوز طائفة منهم بالعفو خاصة وأن الذين قاتلوا في معركة أحد لم يقاتلوا عن أنفسهم وأشخاصهم إنما قاتلوا دون قواعد الإسلام وذبوا عن الحرمات ، وأبوا

(١) سورة آل عمران ١٥١.

(٢) لسان العرب ٤٢٠/١.

(٣) سورة الحجرات ١٠.

إلا إعلاء كلمة التوحيد في الأرض إلى يوم القيامة ، وهو من أسرار ختم نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم للنبوات السابقة ، وبقاء شريعته في كل زمان ، ووصولها لكل مكان .

الثالث : من معاني الأخوة بين المسلمين رجاء كل واحد منهم فوز المسلم الآخر بالعتو من عند الله ، وإنتفاء داء الحسد عنهم .

الرابع : تفقه المسلمين في الدين ، وتطلعهم لتوبة المسلم العاصي ، ورجاؤهم تجاوز الله عز وجل عن زلتهم وسيئاتهم وإمهالهم لحين الرجوع إلى طاعته .

الوجه الثاني : من وجوه حلم الله عز وجل أنه لا يعجل العقوبة ولا يحبس رزقه عن العباد بسبب ذنوبهم وظلمهم ، وتبين آية السياق حقيقة وهي أن حلم الله عز وجل على المؤمنين أعم وأعظم من جهات:

الأولى : نزول العفو عن المؤمنين .

الثانية : تعدد ضروب العفو ، والذين ينزل عليهم العفو ويفوزون به .

الثالثة : توثيق العفو من عند الله عن المؤمنين بآيات القرآن ليصاحب أيام الحياة الدنيا من وجوه :

أولاً : ذات العفو .

ثانياً : موضوع العفو .

ثالثاً : تلاوة آية العفو .

رابعاً : رجاء المسلمين الفوز بذات العفو .

الرابعة : عدم تأخير العفو من عند الله عن التقصير والمعصية من المؤمن ، لذا فمن إعجاز آية السياق أنها لم تقل (ثم عفا الله عنهم) وما يفيد حرف العطف (ثم) من التراخي والإبطاء ، بل قالت ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ وكان العفو مصاحب للتولي لياتيهم نداء رسول الله اله عليه وآله

وسلم بقوله تعالى ﴿وَالرَّسُولُ صَلَّى يَدْعُوكُمْ﴾ وهم في مقامات العفو عنهم ، بلحاظ كبرى كلية وهي أن العفو إسقاط لأوزار على كاهل الإنسان ، لذا تفضل الله عز وجل بالحلم والإمهال للناس ليستقبلوا أيامهم باليسر والتمكين من فعل الصالحات ، وفيه حجة عليهم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾^(١).

وهل يصح تقدير الجمع بين الآية السابقة وهذه الآية : ولقد عفا الله عنكم ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم ، الجواب نعم ، وفيه مسألتان :

الأولى : الحياة الدنيا دار التخفيف عن الذين آمنوا .

الثانية : الحياة الدنيا دار الحسرة والندامة للذين كفروا .

فمن إعجاز القرآن مجئ آية السياق بالعفو عن المسلمين والتذكير بآية البحث التي تتضمن الإخبار عن تغشي الذين كفروا بالحسرة والندامة .

ومن رحمة الله عز وجل بالناس جميعاً إختتام آية السياق بأن الله غفور حلیم ، وفيه ترغيب للناس جميعاً بالتوبة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾^(٢).

فليس بين العفو والحسرة إلا النطق بالشهادتين ، ومعه يمتنع الإنسان عن محاربة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين ، ويتوجه لأداء الفرائض والعبادات .

الوجه الثالث : أخبرت آية السياق عن تولي طائفة من المسلمين ، وقد يكون هذا الأمر باباً للشماتة من قبل الذين كفروا ، والمناجاة بينهم بالإغارة على المسلمين وإغرائهم بهم ، بذريعة أنه حالما يهجمون على

(١) سورة الأنعام ١٤٩.

(٢) سورة سبأ ٢٨.

المسلمين يتفرقون أو يفر فريق منهم ، فجاءت آية البحث بأمر تقطع هذه الشماتة ، وتمنع الذين كفروا من الإضرار بالمسلمين بسبب آيات القرآن ومنها :

الأول : خطاب آية البحث للمسلمين بصيغة الإيمان .

الثاني : توجه الخطاب في آية البحث لعموم المسلمين والمسلمات لنديهم للجهاد في سبيل الله ، وتدارك فرار طائفة منهم برفد ميادين القتال كل بحسب قدرته ومقامه .

لذا قيدت آية السياق التولي بالنسبة والإضافة للمسلمين بقوله تعالى ﴿تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾ قال تعالى ﴿لَا يَكْفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(١).

الثالث : إحتراز المسلمين من التشبه بالكفار.

الرابع : صدور المسلمين في أقوالهم وأفعالهم عن القرآن.

الخامس : غلبة الحسرة على الشماتة في قلوب الذين كفروا.

السادس : خروج المسلمين للدفاع من غير التفات لدعوة المنافقين والكافرين لهم بالعود .

المسألة السابعة : تقدير الجمع بين الآيتين ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ ف ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ وفيه وجوه :

الوجه الأول : لقد بينت الآية السابقة وآية البحث أمورا :

أولاً : فرار جمع من المسلمين من ميدان المعركة ، والذي يدل بالدلالة التضمنية على أمور :

الأول : وقوع القتال بين المسلمين والذين كفروا .

الثاني : شدة وضراوة القتال .

الثالث : سقوط شهداء من المسلمين والذي يكون سبباً لفرار بعض المسلمين .

الرابع : نسبة الفرار إلى الشيطان وإغوائه مع تضمن آية السياق بأن هذا الفرار زلة .

الخامس : تعقب العفو للفرار ، وهذا التعقب خاص بالمؤمنين ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا ذُحْحَ عَظِيمٍ﴾^(١) ، أما الكافر فسواء قاتل أو تولى فإن مصيره إلى النار إلا أن تدركه التوبة والإنابة .

السادس : بيان قانون وهو أن الله عز وجل غفور وحليم ، وهل تدل خاتمة آية السياق على معنى وهو إن توليتم في معركة أخرى غير معركة أحد هذه فإن الله عز وجل يغفر لكم ، الجواب نعم ، فلم تحتتم آية السياق بالتحذير والإنذار من تكرار التولي ، ولم تبين ضرره من جهات :

الأولى : ضرر التولي على ذات المسلم الفار في الدنيا والآخرة .

الثانية : فرار المسلم سبب لثغرة في صفوف المسلمين ، قد ينفذ منها العدو .

الثالثة : لقد ترك الرماة من المسلمين مواضعهم على الجبل مما سبب بمجئ المشركين من خلفهم وكثرة القتلى في صفوف المسلمين ، فكان هذا التولي باباً للخسارة أكثر بين صفوف المسلمين ، ومناسبة لتجراً الذين كفروا في مواصلة القتال والهجوم .

ثانياً : نسبة الذين تولوا من المسلمين لحرف التبويض (من) في قوله تعالى ﴿تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾ وفيه تذكير بجهادهم في سبيل الله ، وإمتناعهم عن الإنصات لرأس النفاق عبد الله بن أبي بن أبي سلول ، أو الإفتتان

بقوله (يا قوم علام تقتل أنفسنا ها هنا) ^(١)، ولو قالت الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ ثم ذكرت الآية إستزلال الشيطان لهم ، لحمل أكثرهم المعنى على الذين كفروا ، ولقيل بأن الشيطان يستزل المؤمنين إنما هو جاء مع الذين كفروا ، ولأن الآية في مقام البيان والتأديب قيدت نسبة الذين تولوا ، وذكرت أنهم من المؤمنين لقاعدة نفي الجهالة والضرر ، وفيه وجوه :

الأول : منع الاختلاف بين المسلمين حول نسبة الذين تولوا وفروا من ميدان المعركة .

الثاني : إرادة قانون تفسير القرآن للقرآن ، وبيان حقيقة وهي أن اللفظ القرآني يوضح أمراً ويظهر سراً ، ويمنع خلافاً فيأتي حرف في القرآن كالباء والفاء والواو ، ليكشف حقيقة ويبين مسألة .

وقال محمد بن كعب القرظي : مرَّ عمر بن الخطاب برجل يقرأ ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ ^(٢)، فأخذ عمر بيده فقال: من أقرأك هذا؟ فقال: أبيُّ بن كعب. فقال: لا تفارقني حتى أذهب بك إليه.

فلما جاءه قال عمر: أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا؟ قال: نعم . قال : وسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال: نعم . قال : لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا، فقال أبيُّ: تصديق هذه الآية في أول سورة الجمعة: { وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } ^(٣) وفي سورة الحشر: { وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ

(١) الروض الأنف ٢/٢٤٥.

(٢) سورة التوبة ١٠٠.

(٣) سورة الجمعة ٣.

يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ {^(١)، وفي الأنفال: { وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ } {^(٢)، إلى آخر الآية^(٣).

الثالث : منع الاختلاف بين المسلمين في تفسير وتأويل آيات القرآن وإرادة سلامته من سبل النزاع والخصومة التي تؤدي إلى عدم الإنتفاع الأمثل من الآية القرآنية ومضامينها القدسية .

الرابع : بيان حقيقة وهي أن المسلمين لم يثبتوا جميعاً في معركة أحد ، وهو من أسباب الخسارة وعدم تحقق النصر التام للإسلام يومئذ ، فلو قيل لماذا لم ينتصر المسلمون في معركة أحد مثل إنتصارهم في معركة بدر ، يأتي الجواب بأن طائفة منهم إختاروا التولي والفرار ، وكان آية السياق تقول للمسلمين : إن أردتم النصر في المعارك اللاحقة فلا تتولوا في القتال .

ثالثاً : توثيق معارك المسلمين مع الذين كفروا ، وصيرورة المسلمين جمعاً عظيماً في مواجهة الذين كفروا .

الوجه الثاني : من أسرار الجمع بين الآيتين الحرب على الشيطان وحجب سلطانه عن الذين آمنوا ، وفضح وخزي الذين يتبعونه ، فان تولي عدد من المؤمنين تم بازالال من الشيطان ، فهل الذين يصدون المسلمين عن الجهاد من إغواء الشيطان الجواب نعم ، بلحاظ أن الخروج للدفاع من أفضل القربات.

لقد أراد الله عز وجل أن لا تجتمع على المسلمين في آن واحد مسألتان :

الأولى : الفرار من ميدان القتال ، كما في بيان الآية السابقة .

(١) سورة الحشر ١٠.

(٢) سورة الأنفال ٧٥.

(٣) تفسير ابن كثير ٢٠٣/٤.

الثانية : صد ومنع المسلمين عن الخروج للقتال ، كما في معاني آية البحث .

فان فرّ وتولى عدد منهم من القتال فان أضعافهم يهمون ويتتاجون بالخروج للدفاع عن بيضة الإسلام ، فجاءت آية البحث للزجر عن منعهم من الخروج ، وهو من الإعجاز في نظم الآيات ، وقد يرجو الذين يصدون المسلمين عن القتال العفو عنهم كما وردت الآية السابقة بالعفو عن الذين تولوا فجاءت آية البحث بالنهاي عن هذا الصد وبيان حقيقة وهي أن الذين كفروا يقومون بذات الصد ، ومنهم من جعل أعداء الإنسان ثلاثة بعرض واحد:

الأول : الشيطان .

الثاني : النفس .

الثالث : الهوى .

ولكنه قياس مع الفارق إذ أن عداوة الشيطان عدو للناس جميعاً ، قال تعالى ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾^(١).

وصحيح أن الآيات وردت بالتحذير من ميل النفس إلى الشهوات ، قال تعالى ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾^(٢) فان بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم جاءت جاءت لتغشي رحمة الله المسلمين والناس ، وهي دعوة يومية متجددة كل يوم للناس جميعاً للهداية والرشاد ، وجعلت النفس عوناً وعضداً لصاحبها في فعل الصالحات .

فمن إعجاز القرآن أنه يبين مزالق الشيطان كما في الآية السابقة وينهى عن محاكاة الذين يتبعون خطواته كما في آية البحث .

(١) سورة فاطر ٦.

(٢) سورة يوسف ٥٣.

الوجه الثالث : لقد اجتهد كفار قريش في تحريض وحشد الناس والقبائل وأنفقوا أموالاً كثيرة من التي جاءتهم بفضل الله وبركة جوار البيت الحرام بقوله تعالى ﴿لَا يَلَا فِ قُرَيْشٍ * إِلَّا فِيهِمْ رَحْلَةُ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾^(١) إذ أراد الله عز وجل أن تكون هذه الأموال والجاء والشأن الذي صار لقريش بين القبائل ، وفي الأمصار وعند العرب والفرس وأهل اليمن نوع طريق لعبادة الله والشكر له على النعم وتعاهد حنيفة وملة إبراهيم الذي رفع وإسماعيل قواعد البيت الحرام ، وفي التنزيل ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾^(٢)

وعندما زحف الذين كفروا لمعركة أحد حصل الذعر والخوف في قلوب المنافقين ، وأرادوا ديب هذا الخوف في قلوب المسلمين الذين ينصتون لهم ، فجاءت آية البحث لتكون سوراً عقائدياً وحرزاً إيماناً يمنع من إنصات المسلمين للمنافقين والكفار الذين يبالغون بقوة جيوش الكفر الزاحفة نحو المدينة ، ومعهم الدليل الحسي والبرهان العملي بلغة الأرقام ، وإتخاذ الفارق في العدد والعدة من جهة كثرة الذين كفروا وكثرة أسلحتهم ورواحلهم وخيلهم ، وقلة عدد المسلمين وأسلحتهم وسيلة لصد المسلمين عن الخروج إلى القتال ، وحتى الذي يخرج منهم فانه يهيم بالفشل والفرار .

فجاءت آية البحث للفصل بين المسلمين والذين كفروا في القول والفعل ، وليكون فرار عدد من المسلمين في معركة أحد حداً وبرزخاً من تكرار ذات الفعل .

المسألة الثامنة : تقدير الجمع بين الآيتين : إن الذين تولوا منكم يوم إلتقى الجمعان والله يحيي ويميت) وفيه وجوه :

(١) سورة قريش ١-٢ .

(٢) سورة آل عمران ٩٥ .

الوجه الأول : لقد كانت معركة أحد فرقاناً بين المسلمين والذين كفروا ، والأصل في سير المعارك أن يظهر كل فريق محاسنه في القتال ويبالغ في بطولات رجاله ، ويغيض الطرف الآخر ، ويبرز الشجعان الذين في ناحيتهم .

لذا جلب كفار قريش معهم النساء إلى ميدان معركة أحد ليقلن الأشعار ويرددن الأهازيج التي تبعث الحمية في نفوسهم .

وكان بعض النسوة من الذين كفروا يقاتلن إلى جانب الرجال يوم أحد مما يدل على شدة الأذى الذي لاقاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال ابن إسحاق (قال أبو دجاجة: رأيت إنساناً يحمس الناس حمساً شديداً، فصمدت له ، فلما حملت عليه السيف ولول فإذا امرأة، فأكرمت سيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أضرب به امرأة^(١)).

وجاء القرآن ببيان واقع المسلمين من غير مبالغة أو طمس للجوء طائفة من المسلمين إلى الفرار ، ومن الآيات أن المشركين لم يتخذوا آية السياق وقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾ وسيلة وحجة لتعيير المسلمين على هذا التولي بل قام بعض المسلمين بتعيير أخاه ممن فر يوم أحد بموضوع الفرار ، فكان الرد أن الله عز وجل قد عفا عنا ، وغفر لنا تلك الزلة .

وأطلقنا هنا على هذا التولي زلة إستقراء من قول الله عز وجل في ذات آية السياق ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ .

لتبين آية السياق قانوناً وهو أن الزلة مع الإيمان مغفورة ومعفو عنها، تقدير آية السياق ولقد عفا الله عن المؤمنين زلتهم وقيامهم بالفرار

ليتنفع المسلمون والمسلمات من هذا القانون إلى يوم القيامة ، والإطلاق في هذا الإنتفاع من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ .

ومن حلم الله عز وجل أنه سبحانه يعلم من العبد وقبل أن يخلق أنه يذنب ويعصي ويزل ، ومع هذا يخلقه ويتعاهده في سن الرضاعة والحضانة وفي سني عمره كلها ، ثم يزل ، ليأتي العفو مظهراً كريماً حاضراً من وجوه حلم الله عز وجل على العبد، وليمتاز المسلم عن غيره بإحاطة الحلم الإلهي به وإقترانه بالعفو والمغفرة حتى مع الزلة والخطأ والتقصير ، وفيه ترغيب بالإسلام لأنه دين العفو ومحو الزلات وإن جاءت على نحو متعدد.

الوجه الثاني : أخبرت آية البحث عن قانونين :

الأول : إن الله عز وجل هو الذي يحيي ، ويبدد الحياة ولا تستديم الحياة الخاصة والعامة إلا بأمر وإذن من عند الله عز وجل .

الثاني : الموت وقبض الأرواح أمر بيد الله عز وجل ، ولا يقدر عليه غيره سبحانه ، فإن قلت قد يقوم إنسان بقتل آخر الجواب نعم ، هذا صحيح وقد ورد ذات المعنى في القرآن .

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال (خالف إبراهيم عليه السلام قومه وعاب آلهتهم حتى أدخل على ثمرود فخاصمهم ، فقال إبراهيم عليه السلام " ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت .

قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين) (١).

وعن السدي قال (لما خرج إبراهيم من النار أدخلوه على الملك ولم يكن قبل ذلك دخل عليه ، فكلمه وقال له : من ربك؟ قال : ربي الذي يحيي ويميت . قال ثمرود : أنا أحيي وأميت ، أنا أدخل أربعة نفر

بيتاً فلا يطعمون ولا يسقون حتى إذا هلكوا من الجوع أطعمت اثنين وسقيتهما فعاشا وتركك اثنين فماتا .

فعرّف إبراهيم أنه يفعل ذلك قال له : فإن ربي الذي يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر وقال : إن هذا إنسان مجنون فأخرجوه ، ألا ترون أنه من جنونه اجترأ على آلهتكم فكسرهما ، وإن النار لم تأكله ، وخشي أن يفتضح في قومه^(١).

ويفيد الجمع بين آية البحث وآية السياق أن الفرار لا ينبغي صاحبه ، وليس من ملازمة بين الثبات في الميدان وبين القتل ، وقد اجتهد أبو دجانة في الدفاع عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في معركة أحد وأبو دجانة هو سِمَاكُ بْنُ خَرْشَةَ السَّاعِدِي الْأَنْصَارِي خرج مع سعد بن عبادَةَ والمُنْذِر بن عمرو في إستقبال رسول الله صلى الله عليه عند دخوله المدينة المنورة مهاجراً .

وفي معركة أحد عندما إلتقى الجمعان قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (مَنْ يَأْخُذْ هَذَا السَّيْفَ بِحَقِّهِ ؟ فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَأَمْسَكَهُ عَنْهُمْ حَتَّى قَامَ إِلَيْهِ أَبُو دُجَانَةَ فَقَالَ وَمَا حَقُّهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ أَنْ تَضْرِبَ بِهِ الْعَدُوَّ حَتَّى يَنْحَنِي قَالَ أَنَا أَخْذُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِحَقِّهِ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ وَكَانَ أَبُو دُجَانَةَ رَجُلًا شَجَاعًا يَخْتَالُ عِنْدَ الْحَرْبِ إِذَا كَانَتْ وَكَانَ إِذَا أَعْلِمَ بِعَصَابَةِ لَهُ حَمْرَاءَ ، فَأَعْتَصَبَ بِهَا عِلْمَ النَّاسِ أَنَّهُ سَيُقَاتِلُ فَلَمَّا أَخَذَ السَّيْفَ مِنْ يَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَخْرَجَ عَصَابَتَهُ تِلْكَ فَعَصَبَ بِهَا رَأْسَهُ وَجَعَلَ يَتَبَخَّرُ بَيْنَ الصَّفَيْنِ)^(٢).

وكان أبو دجانة يشق صفوف المشركين ويهددها ويفتك بفرسان من قريش ، ولما دارت الدائرة وصارت الجولة للذين كفروا ، أخذ أبو دجانة يدافع عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجعل جسده

(١) الدر المنثور ٢/١٦٩.

(٢) أنظر السيرة النبوية لابن هشام ٦٦/٢.

ترسأ له ، إذ يتلقى النبل بظهره حتى كثرت جراحاته ، ومع هذا لم يمِت يومئذ ، وفيه حجة بعدم الملازمة بين التفاني في القتال في سبيل الله وبين القتل والموت .

وقد أثنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أبي دجانة وفي الأحاديث التي جرت بين أهل البيت عندما أعطى الإمام علي سيفه لفاطمة عليها السلام لتغسله ، إذ ورد عن عكرمة عن ابن عباس قال (جاء علي بن أبي طالب بسيفه يوم أحد قد انحنى فقال لفاطمة : هاك السيف حميدا فإنها قد شفتني) (١).

(وقال موسى بن عقبة : ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سيف علي مخضبا بالدماء قال: " لئن كنت أحسنت القتال فقد أحسن عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح والحارث بن الصمة وسهل بن حنيف) (٢).

الوجه الثالث : ترى ما هي علة التولي من الميدان الذي ذكرته الآية السابقة إنه حب الدنيا وعشق الحياة ، وكراهية الموت بالإفحام والقتل بالسيف ، فجاءت آية البحث للإخبار بأن الحياة والموت أمران بيد الله عز وجل من جهة إستدامة الحياة أو حصول الموت .

والنسبة بين الموت والقتل هو العموم والخصوص المطلق ، فكل قتل هو موت وليس العكس ، وقد ذكرت آية البحث مسألة القتل بقوله تعالى ﴿ مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ وتقدير آية البحث بخصوص آية السياق وتولي طائفة من المسلمين على وجوه :

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٩٣/٣.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٩٣/٣.

أولاً : إن الذين تولوا منكم قد يدركهم الموت قبل الذين ثبتوا في الميدان ، وفيه شواهد عديدة ، وفي التنزيل ﴿يَدْرِكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾^(١).

ثانياً : لا ملازمة بين التولي والسلامة من القتل فقد يكون التولي والفرار سبباً لمطاردة العدو للفارين وقتله إياهم .

ثالثاً : تجلي الحياة الإبدية بالشهادة في سبيل الله ، قال تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(٢).

رابعاً : يعلم الله الذين يقتلون يوم معركة أحد قبل أن يخلقوا بل وقبل أن يخلق آدم ، وكتب الله عز وجل النجاة لأكثر المسلمين يومئذ سواء الذين ثبتوا في الميدان أو فروا منه .

وهل يمكن أن يقال أن النسبة بين الثبات في الميدان والتولي هي ذات النسبة بين الحياة والموت ، الجواب لا ، فهو قياس مع الفارق إنما كل من الثبات والتولي فعل قد يؤدي إلى الحياة أو الموت ، ولا يقع أحدهما إلا بإذن الله .

المسألة التاسعة : تقدير الجمع بين الآيتين : إن الذين تولوا منكم يوم إلتقى الجمعان والله بما تعملون بصير (وفيه وجوه :

الوجه الأول : بين الآيتين من جهة الموضوع عموم وخصوص مطلق ، إذ يدل لفظ (تعملون) على العموم في الخطاب وشمول المسلمين والمسلمات به ، وتقديره على وجوه :

أولاً : يا أيها الذين آمنوا إن الله بما تعملون بصير) .

ثانياً : يا أيها الذين تولوا يوم إلتقى الجمعان إن الله بما تعملون بصير) .

(١) سورة النساء ٧٨ .

(٢) سورة آل عمران ١٦٩ .

ثالثاً : يا أيها الذين إستزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا إن الله بما تعملون بصير) .

ومن إعجاز القرآن أن ذكره لمسألة تولي طائفة من المسلمين عن القتال في القرآن وتلاوة المسلمين لها كل يوم وإلى يوم القيامة يجعل لها شأنًا عند المسلمين ، فيقفون عند آية السياق للتدبر في مضامينها ، والإحاطة علماً بشدة القتال في بداية الإسلام وفرار جمع من المسلمين طلباً للسلامة ، وقد أراد الله عز وجل لأجيال المسلمين السلامة بثبات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في ميدان القتال .
ومع أن طائفة من المسلمين فروا من الميدان ، وقبلهم إنسحب رأس النفاق بنحو ثلاثمائة من أفراد الجيش الذي كان مجموعه ألف رجل فان الكفر انحسر من حين البعثة النبوية ليكون من مصاديق الجمع بين الآيتين ﴿يا أيها الذين آمنوا إنا الذين تولَّوْا مِنْكُمْ﴾ لإفادة إنقضاء زمن التولي وبقاء أزمنة الهداية والإيمان .

والنسبة بين أول آية السياق وخاتمة آية البحث هي العموم والخصوص المطلق لعلم الله عز وجل بما فعل ويفعل المسلمون والمسلمات ، فيدخل فيه تول طائفة من المسلمين يوم معركة أحد وصحيح أن خاتمة آية البحث جاءت بصيغة الفعل المضارع (تعملون) ولكنه لا يمنع من إرادة الزمن الماضي بلحاظ إنسباط الفعل المضارع على أفراد الزمان الطولية الثلاثة ، فالله عز وجل بصير وعليم بحال الذين تولوا من المسلمين من جهات:

الأولى : حال الذين تولوا قبل أن يلجأوا إلى الفرار والهزيمة.

الثانية : علة وسبب إختيار طائفة من المسلمين الفرار والتولي ، وترك النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسط الميدان.

الثالثة : ما جرى للذين تولوا بعد الفرار والهزيمة ، وإختيارهم الإستغفار.

إن الأشياء كلها حاضرة عند الله عز وجل ، وهو بصير بكل شئ من غير آلة باصرة .

الوجه الثاني : لقد بعث الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لتكون شريعته هي الباقية في الأرض ، وتتقوم بتحلي المسلمين بالصبر والتقوى ودفع الذين كفروا عن ثغور الإسلام الذي لا يأتي بالتولي والفرار ، فجاءت خاتمة آية البحث لحث المسلمين على ترك التولي ، ومنع أثره .

وقد أخبرت آية السياق عن حدوث القتال بين المسلمين والذين كفروا في معركة أحد ، والله عز وجل بصير بحال المسلمين من جهة النقص في العدد والعدة ، فلم تمر الأيام إلا وجعلهم الأكثر في العدد والعدة وزاد عليهم من فضله ، وفرق جمع الذين كفروا ، وهل هو من مصاديق قوله تعالى ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾^(١) ، إذ محى الله قوة ومنعة الذين كفروا .

ومحى حال التولي عن المسلمين ، وثبتهم في مواطن القتال ، ومقامات الهدى أم أن القدر المتيقن من الآية أعلاه هو محو الذنوب والآثام بالعمل الصالح ، الجواب هو الأول إنما ذكر محو الذنوب لأنه مسألة إبتلائية .

وقد ورد عن أبي أيوب قال : وقف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هل لكم إلى ما يمحو الله تعالى به الذنوب ويعظم به الأجر؟ فقلنا : نعم يا رسول الله قال : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة . قال : وهو قول

الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾^(١)، فذلكم هو الرباط في المساجد^(٢).

وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : سئل عن قوله { يمحوا الله ما يشاء ويثبت } قال : ذلك كل ليلة القدر ، يرفع ويخفض ويرزق ، غير الحياة والموت والشقاوة والسعادة ، فإن ذلك لا يزول .

وأخرج ابن مردويه وابن عساكر ، عن علي أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فقال له لأقرن عينيك بتفسيرها ، ولأقرن عين أمتي بعدي بتفسيرها ، الصدقة على وجهها ، وبر الوالدين ، واصطناع المعروف ؛ يحول الشقاء سعادة ويزيد في العمر ويقي مصارع السوء^(٣).

الوجه الثالث : من صفات الله عز وجل أنه بصير بأحوال وأمر العباد، وما ينفعهم وما يضرهم، وهو الذي يعلم أن القتال ضرر ولكن ﴿يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ﴾ طريق لصلاح الناس، وإجتثاث للفساد ومفاهيم الكفر والضلالة، وقد ذم الله عز وجل الكفار على إختيارهم عبادة الأوثان بقوله تعالى ﴿أَلَمْ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾^(٤)، لبيان فضل الله عز وجل في رزقهم الخواس والجوارح.

ومن معاني الجمع بين آية البحث والآية السابقة مسائل :

(١) سورة آل عمران ٢٠٠.

(٢) الدر المنثور ٢٥/٣.

(٣) الدر المنثور ٢٢/٦.

(٤) سورة الأعراف ١٩٥.

الأولى : إخبار المسلمين بأن الله بصير بلقائهم مع الذين كفروا في معركة أحد.

الثانية : توثيق واقعة أحد وإلى يوم القيامة، وفيه منع من تحريف الوقائع التي يذكرها القرآن، وهذا المنع من الإعجاز الغيري للقرآن وشاهد على عصمته الذاتية من التحريف، بفضل من عند الله، قال سبحانه ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزَلِّلُ الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(١).

الثالثة : إقتران الإخبار القرآني عن القتال بين المسلمين والذين كفروا ببيان قانون وهو أن الله عز وجل يرد كل ما يفعله المسلمون مجتمعين ومتفرقين، وفيه دعوة لهم لحسن السمات والصلاح.

الرابعة : من معاني الجمع بين الآيتين حث المسلمين الذين ثبتوا في الميدان على البقاء ومواصلة القتال وعدم محاكاة الذين تولوا وفروا، وهو من أسرار توجه الخطاب في كل من الآيتين إلى المسلمين كافة .

المسألة العاشرة : تقدير الجمع بين الآيتين : يا أيها الذين آمنوا إن الله غفور حلیم) وفيه وجوه :

الوجه الأول : لقد أخبر الله عز وجل الملائكة بأن الإنسان خليفة له في الأرض بقوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢) وترشح هذه الخلافة عن حلم الله عز وجل وإكرامه للإنسان بالعفو عنه والتجاوز عن ذنوبه وإمهاله ، لذا أختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^٩.

ويحتمل موضوع الحلم وجوهاً :

الأول : إرادة الحلم عن الناس مطلقاً في الحياة الدنيا .

(١) سورة الحجر ٩.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

الثاني : إرادة الحلم من الله عن المسلمين في الدنيا والآخرة ، وعن الذين كفروا بخصوص الدنيا .

الثالث : إرادة الحلم والإمهال من الله للناس جميعاً في الدنيا والآخرة .

والمختار هو الثاني والثالث أعلاه ، إذ يمهّل الله الناس في الدنيا لأنها دار إختبار وإبتلاء وعمل ، فان قلت إن الآخرة دار حساب من غير عمل فكيف يكون فيها الحلم والجواب ليس لأهوال وشدة مواطن الآخرة مثيل ، ويخففها الله عز وجل عن المؤمنين ويرأف بهم ، ويمهّل الناس جميعاً برحمته ، وعن سلمان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال (خلق الله يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة ، منها رحمة يتراحم بها الخلق وتسع وتسعون ليوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة)^(١).

الوجه الثاني : من معاني ودلالات الجمع بين الآيتين بعث المسلمين على التراحم فيما بينهم ، ونشر شآبيب العفو والمغفرة بين الناس ، قال تعالى ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾^(٢).

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار المغفرة ، ودار الحلم منه تعالى ، فالناس يعيشون في ملكه ، ويأكلون من رزقه ، ويمهلهم بحلمه ولطفه ولا يؤاخذهم بذنوبهم ، لذا فان رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لم تقم بالسيف ، إنما قامت بالحجة والبرهان الذي قد يستلزم وقتاً وجهداً وصبراً ، ولكن فيه نفع عظيم من جهات :

الأولى : ثبات الإيمان في النفوس والمجتمعات .

الثانية : السلامة من الكيد والمكر والبطش .

(١) الدر المنثور ٤/٢٦.

(٢) سورة البقرة ٢٣٧.

الثالثة : دفع الضرر ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾^(١).

الرابعة : الأجر والثواب .

فان قلت مع دعوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الله ﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾^(٢) فان كفار قريش جهزوا الجيوش العظيمة لقتاله ، والجواب هذا صحيح ، ولكن قد تخلف عنهم أناس كثيرون ، وامتنعوا عن نصرتهم في قتالهم النبوة والتنزيل ، وحتى الذين خرجوا مع كفار قريش لم يكونوا راغبين في القتال على الظاهر إذ ملأ الله قلوبهم بالرعب وجعلهم ينسحبون في ذات يوم المعركة .

وكذا في معركة الخندق فمع كثرة عدد أفراد جيش المشركين وبلوغه عشرة آلاف رجل فانهم عجزوا عن إقتحام الخندق ومواصلة القتال ليتجلى بعدها مباشرة تخلي القبائل عن رؤساء الكفر وزحف الناس أفراداً وأفواجا إلى المدينة قبل وبعد صلح الحديبية الذي أثبت عجز الكفار عن القتال لذا ورد في بعض النصوص أنه فتح.

وعن مجمع بن جارية الأنصاري قال : شهدنا الحديبية فلما انصرفنا عنها إلى كراع الغميم إذا الناس يوجفون الأباغر ، فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس ؟ قالوا : أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجنا مع الناس نوجف ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته على كراع الغميم فاجتمع الناس عليه ، فقرأ عليهم ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران ١١١.

(٢) سورة النحل ١٢٥.

(٣) سورة الفتح ١.

فقال رجل : يا رسول الله : أو فتح هو؟ قال : والذي نفس محمد بيده إنه لفتح فقسمت خير على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية ، فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانية عشر سهماً ، وكان الجيش ألفاً وخمسمائة منهم ثلثمائة فارس ، فأعطى الفارس سهمين وأعطى الراجل سهماً^(١).

الوجه الثاني : من الرحمة الخاصة بالمسلمين التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم تلقي القرآن لهم بالبشارة بأن الله عز وجل ﴿غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ فهو الذين يغفر ذنوبهم ويعفو عن سيئاتهم ، وهو الذي يمهّلهم في أيام حياتهم الدنيا ليستغفروا الله ، ويمد في أعمارهم ليجتهدوا في طاعة الله ، وهل يكون توجه المسلم في آخر أيام حياته وفي سني المعاش إلى عمارة المسجد والعناية بالفرائض والإكثار من الذكر ، الجواب نعم وجاءت آية البحث ببيان وظيفة المسلمين عامة من غير أولي الضرر ، بالمبادرة إلى النفي وعدم صد الذي يخرج للقتال ، فقد يأتي الصد من الابن والبنت والأخ والأخت والصديق والجار والشريك في العمل والزراعة ، لذا جاءت الآية بصيغة الإطلاق .

وهل تتضمن الآية دعوة المسلمين لإمهال المنافقين والصبر على أذاهم ، الجواب نعم ، فهناك فرق بين إجتناّب طاعة المنافقين أو الإصغاء لهم وبين الحلم والصبر على أذاهم ، وتقسيم السنة النبوية إلى أقسام :

الأول : السنة القولية .

الثاني : السنة الفعلية .

الثالث : السنة التقريرية .

وقد أضفنا لها أقساماً أخرى وهي :

الرابع : السنة التدوينية أي ما كتبه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للملوك يدعوهم إلى الإسلام وما كتبه إلى الأمراء والعمال في البلدان ، وما وهبه وقطعه لبعض الناس وهل تدخل كتابة آيات القرآن ونسخها في الورق واللحاف في السنة التدوينية ، الجواب لا ، فتدوين آيات القرآن أمر آخر غير السنة ، وهو خاص بالتنزيل وتوثيقه .

الخامس : السنة الدفاعية : وهي سيرة وقول وفعل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في ميادين القتال ومقدماته وبعد إنتهائه ، فان قلت يدخل هذا القسم في السنة القولية والعقلية وليس هو قسيماً لهما ، والجواب هذا صحيح على نحو الإجمال ، ولكن إنشاء علم جديد للسنة الدفاعية مدخل كريم لإقتباس المواعظ وإستنباط المسائل منه ، قال تعالى ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾^(١) إذ تبين الآية صيغ التعبئة وسنخية خطط القتال التي تترشح عن السنة النبوية ، وهذه السنة فرع الوحي من عند الله عز وجل ، لذا فهي ثروة عظمية للبشرية .

أراد الله عز وجل أن ينتفع منها المؤمنون مع بيان الضرر الذي ينتج عن عدم التقيد بها ، كما في ترك الرماة لمواضعهم التي عينهم بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ صار هذا الترك مقدمة وسبباً لخسارة المسلمين جولة من المعركة وسقوط عدد من القتلى ، وهل يتحمل هؤلاء الرماة وزر فرار وتولي عدد من المسلمين من الميدان والذي تذكره الآية السابقة بقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾ الجواب لا ، وفيه مسائل :

الأول : لزوم الفصل بين مجئ خيالة المشركين من خلف جيش المسلمين وبين تولي فريق من المسلمين .

الثاني : بيان قانون وهو لزوم ثبات المؤمنين في مواضعهم وإن اشتد القتال وبان ظهور الذين كفروا في الميدان فالحرب سجال .

الثالث : من إعجاز القرآن تقدم الآيات التي تخبر عن نزول الملائكة لنصرة المؤمنين ، ومن الإعجاز توجه الخطاب فيها إلى المؤمنين وليس للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاصة إذ جاءت أربع آيات متتالية ومتعاقبة بهذا الخصوص وهي :

الأولى : فكما نصر الله المسلمين في معركة بدر فانه ينصرهم في معركة أحد ، إذ تدل الآية أعلاه على تسخير قانون السببية والعلة والمعلول في القتال لمشيئة الله من وجوه :

الأول : التوافق بين السبب والمسبب والمؤثر والأثر، فيكون السبب للنصر بيد المسلمين ، وكذا المسبب والنتيجة .

الثاني : يكون السبب والرجحان في القتال لجانب الذين كفروا ولكن النتيجة تكون نصر المسلمين سواء السبب أعلاه أو تسخيره لنفع المسلمين ، قال تعالى ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

الثالث : يلتقي الجمعان وليس من رجحان لأحدهما ، فيفضل الله باستحداث سبب عند بدئ القتال فيكون النصر للمسلمين .

الرابع : تجلي معاني التكافؤ بين الجمعين في العدة والعدد ولكن النتيجة تكون النصر والغلبة للمسلمين بفضل من الله .

الوجه الثالث : لقد خلق الله عز وجل آدم عليه السلام ولم يجعله خليفة في الأرض إلا وقد سبقته المغفرة والحلم من عند الله عز وجل في الأرض والسماء، وقد تفضل الله وأقال زلة آدم وحواء في أكلهما من الشجرة بعد نهي الله عز وجل لهما عن الإقتراب والدنو منها، قال

تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ * فَسُوسَ لَهُمَا
الشَّيْطَانُ ^(١).

فتضمنت الآية أعلاه الزجر عن الإقتراب والدنو من الشجرة كيلا
يكون هذا الإقتراب مقدمة للأكل ، ومن أسرارها أنه بعد الإقتراب منها
يستحضر النهي عن الأكل من جهات :

الأولى : إستحضار آدم في الوجوه الذهني حرمة الإقتراب والأكل .
الثانية : إستحضار حواء في الوجود الذهني النهي عن الدنو
والأكل من الشجرة.

الثالثة : ذكر آدم وحواء للنهي ليس فقط في التصور الذهني وحده ،
ولكن بالمناجاة بينهما ، وليكون مناسبة لتأسيس قانون الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر ، وهل هو من مقدمة الحرام حرام ، الجواب نعم .
وجاءت آية السياق لتدل على أن إزلال الشيطان للإنسان قديم ،
وقد صاحب بدايات خلق آدم وحواء وهما في الجنة ويتصفان بخصال
الإيمان.

وورد عن ابن عباس قال: إن آدم عليه السلام طلب التوبة مائتي
سنة حتى أتاه الله الكلمات ، ولقنه إياها قال : بينا آدم عليه السلام
جالس يبكي ، واضع راحته على جبينه إذ أتاه جبريل فسلم عليه ،
فبكى آدم وبكى جبريل لبكائه ، فقال له : يا آدم ما هذه البلية التي
أجحف بك بلاؤها وشقاؤها ، وما هذا البكاء ؟ قال : يا جبريل وكيف
لا أبكي وقد حولني ربي من ملكوت السموات إلى هوان الأرض ،
ومن دار المقام إلى دار الظعن والزوال ، ومن دار العنة إلى دار البؤس
والشقاء ، ومن دار الخلد إلى دار الفناء؟ كيف أحصي يا جبريل هذه
المصيبة؟ فانطلق جبريل إلى ربه فأخبره بمقالة آدم فقال الله عز وجل :

انطلق يا جبريل إلى آدم فقل : يا آدم ألم أخلقك بيدي؟ قال : بلى يا رب قال : ألم أنفخ فيك من روحي؟ قال : بلى يا رب قال : ألم أسجد لك ملائكتي؟ قال : بلى يا رب قال ألم أسكنك جنتي؟ قال : بلى يا رب قال : ألم أمرك فعصيتني؟ قال : بلى يا رب ، قال : وعزتي وجلالي وارتفاعي في علو مكاني لو ان ملء الأرض رجالاً مثلك ثم عصوني لأنزلتهم منازل العاصين ، غير أنه يا آدم قد سبقت رحمتي غضبي ، قد سمعت صوتك وتضرعك ، ورحمت بكاءك ، وأقلت عثرتك ، فقل : لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً ، وظلمت نفسي فارحمني إنك أنت خير الراحمين^(١).

فتفضل الله عز وجل وأخبر المسلمين أنه الغفور لأبيهم آدم وأمهم حواء وللمسلمين الذين تولوا وفروا من الميدان يوم معركة أحد، وهو الغفور لأجيال المسلمين، وهل فيه إغراء بالمعصية ، الجواب لا، إنما هو دعوة للناس لإستحضار قرب رحمة الله عز وجل منهم، واليقين بأنه سبحانه يراهم ويعلم ما يفعلون، فلذا أختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

المسألة الحادية عشرة : تقدير الجمع بين الآيتين : إنما استزلهم الشيطان والله يحبي ويميت وفيه وجوه :

الوجه الأول : لقد أراد الله عز وجل بيان حقيقة وهي أن حياة الخلائق كلها بيده، وأخبر سبحانه أن الشيطان هو الذي أزلهم، وجاء القرآن بنفي سلطانه على المؤمنين ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(٢)، فهل إنتفى وغاب عنهم التوكل على الله عز وجل باختيارهم التولي، الجواب لا، وإنما يفيد الجمع بين

(١) الدر المنثور ١/٩٣.

(٢) سورة النحل ٩٩.

الآيتين أن الإزلال أدنى مرتبة من السلطان لذا تفضل الله عز وجل وأخبر في آية السياق بأنه سبحانه عفا عنهم لتبين آية السياق أن فتنة الشيطان ليست بعيدة عن الذين آمنوا، وتدل آية السياق والبحث على إنتفاء سلطانه عليهم أو إستمرار إغوائه لهم من جهات :

الأولى : إخبار آية السياق عن علة تولي طائفة من المسلمين من معركة أحد.

الثانية : إنتضاء موضوع الإزلال لأنه خاص بمعركة أحد.

الثالثة : دلالة آية السياق على تحذير وإنذار المسلمين من حبائل الشيطان، ومنها التولي عن ميدان القتال، والفرار من الزحف، والإنصات للذين كفروا الذين يدعون أن السلامة بالقعود .

تري ما هي النسبة بين القعود والتولي ، الجواب هو العموم والخصوص المطلق، فكل قعود هو تول وليس العكس.

الرابعة : إخبار آية السياق عن عفو الله عز وجل عن الذين تولوا من المسلمين، وهل نسبتهم إلى المؤمنين في بداية الآية بقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾ مقدمة وبشارة للإخبار عن عفو الله عز وجل عنهم ، الجواب نعم، وهو من اللطف الإلهي بالمسلمين.

الوجه الثاني: لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار إبتلاء وإمتحان ، ومن وجوه الإبتلاء سعي الشيطان لإغواء الإنسان، ومداعبة هواه وتزيين زخرف الدنيا له، ومحاولة إشغاله عن وظائفه وواجباته العبادية، ومن رحمة الله بالناس جميعاً عدم التخلية بينهم وبين الشيطان، إذ تفضل الله عز وجل بالنبوة والتنزيل بأن جعل آدم أبا البشر نبياً رسولاً ليقترن هبوط الإنسان بالأرض بالنبوة وما تدل عليه من العصمة من إغواء الشيطان، وصحيح أن علماء الإسلام إختلفوا في عصمة الأنبياء خاصة من الصغائر، والمختار هو عصمتهم مطلقاً من

الصغائر والكبائر من الذنوب، إلا أنهم أجمعوا على عصمة الأنبياء من إغواء الشيطان .

وجاء القرآن بالمعنى الأعم لهذه العصمة ، وأنها تشمل الأنبياء وغيرهم من عباد الله الذين أخلصوا له الطاعة وإنقادوا إلى أوامره، واتخذوا التقوى لباساً، وفي التنزيل حكاية عن إبليس ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾* [إِعْبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ] ﴿١﴾، وهل إزلال الشيطان للذين تولوا من المؤمنين من هذه الغواية التي تذكرها الآية أعلاه ، الجواب لا، وبين الغواية والإزلال عموم وخصوص مطلق، فكل غواية هي إزلال وليس العكس، فهذا الإزلال ليس من إغواء الشيطان للذين آمنوا إنما هو أمر عرضي طارئ بسبب حبهم للدنيا، وجعلهم الغنائم والمكاسب هي الأولى والأهم .

المسألة الثانية عشرة : تقدير الجمع بين الآيتين : يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان) وفيه وجوه :

الوجه الأول : ذكرت آية البحث توجيه الذين كفروا والمنافقين اللوم إلى إخوانهم من الأنصار بأنهم قتلوا بسبب الخروج إلى ميدان القتال ، وكذا يموتون إذا غادروا المدينة طلباً للرزق أو للدعوة إلى الإسلام ، والتبليغ بآيات القرآن وتلاوتها وحث الناس على التدبر في معانيها .

ومن الآيات أن المنافقين يحاولون صدّ المسلمين عن الخروج إلى ميدان المعركة ، بينما يخرج المسلمون للقتال ويقومون بحث الناس لدخول الإسلام ، ومنعهم من نصرة الذين كفروا في هجومهم على المدينة المنورة ، ويضرب المسلمون في الأرض لبيان صدق نبوة محمد

صلى الله عليه وآله وسلم خاصة في الأشهر الحرم التي ليس فيها قتال ، وهي شهر ذي القعدة ، وشهر ذي الحجة ، وشهر المحرم متصلة ، وشهر رجب منفصل وهو من مصاديق قوله .

وتبين آية السياق أن المسلمين لم يخرجوا للتجارة إنما كانوا يخرجون للقتال وبأمر من الله ورسوله ، وهو الذي يدل عليه قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾ وهو من أسباب إمتلاء صدور الذين كفروا بالحسرة والأسى .

الوجه الثاني : من معاني الجمع بين الآيتين تأكيد التباين بين المسلمين والذين كفروا ، ولزوم تقييد المسلمين بأداب وأحكام الإسلام والذي يؤدي طوعاً وإنطباعاً إلى التمييز والفصل بينهم وبين الذين كفروا نعم قد يستزل الشيطان عدداً من المسلمين ، ولكن هذا الإزلال لا يخرجهم عن ربة الإيمان .

فلم تأت آية السياق لإعادتهم للإيمان ، فهم مؤمنون ، إنما جاءت لبيان ثبات أمة من المسلمين على الإيمان وطاعة الله ورسوله في ساعة الشدة ، وعند إلتقائهم في ساحة القتال مع الذين كفروا ، فلم يضر بالإسلام إغواء الشيطان ، وهو من مصاديق دعاء المسلمين في كل يوم ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١) .

ليبان عجز الشيطان عن منع المسلمين عن مناهج الهدى والصلاح ، وتعاهدهم لسنن التقوى .

الوجه الثالث : لقد إستزل الشيطان عدداً من المسلمين في معركة أحد ، فجاءت آية السياق وبالأعلى عليه وعلى أتباعه ، وحجباً له عن المسلمين ، وبرزخاً دون إزلاله .

لقد أراد الشيطان إغواء المسلمين وإستدراج من بقي منهم في الميدان للهروب والفرار، فطمعه لم يقف عند الذين أزلهم وإنهزموا من المعركة، ولكنهم ثبتوا وقاتلوا حول النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإستشهد عدد منهم.

فلم يجعل الله عز وجل للشيطان وإغوائه عليهم سبيلاً ، وهل هو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(١). الجواب نعم ، ولكن صبر ومراعاة وجهاد أهل البيت والصحابة بين يدي النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتحت لوائه في معركة أحد مرتبة أعظم، وجهاد جلي بالنفوس والأبدان ، ليصير مقدمة للعمل بمضامين الآية أعلاه أما الذين إستزلمهم الشيطان فقد جاءت آية السياق لبيان علة هذا الإغواء والإستدراج بقوله تعالى ﴿بَعْضٌ مَّا كَسَبُوا﴾ ليدل في مفهومه على أمور :
أولاً : حسن نية المسلمين في معركة أحد، وإرادتهم قصد القربة بجهادهم وقتالهم ، ولا عبرة بالقليل النادر الذي جاءت آية البحث لتهديه.

ثانياً : تنزه المسلمين عن جعل الغنائم والمكاسب هي همهم وغايتهم في القتال أو في مقدماته.

ثالثاً : تأديب المسلمين لجعل أعمالهم خالصة لوجه الله عز وجل.
رابعاً : بيان قانون وهو أن حب الدنيا، والسعي لطلبها سبب لنفاذ الشيطان ، ومدخل للزلل والغواية.

خامساً : إحتراز المسلمين في المعارك اللاحقة من التولي والفرار، بعد أن بينت آية السياق علته وسببه وهو الشيطان، وفيه تأكيد لشدة عداوته للمسلمين والناس جميعاً.

وهل أراد الشيطان بازلال طائفة من المسلمين إيقاع الخصومة بينهم الجواب نعم ، وقد وقاهم الله عز وجل شره ، وأخبر عن عفوه عمن إستلزمهم ، قال تعالى ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾^(١).

فصحيح أن الآية أعلاه ذكرت الخمر والميسر كموضوع ومناسبة لإيقاع الشيطان العداوة والنفرة بين المسلمين إلا أنه يسعى للغواية والإضلال بتزيين الفرار، فجاءت آية السياق ليحترز المسلمون من الشيطان من جهات :

الأولى : صدق الإيمان.

الثانية : إخلاص النية في الجهاد.

الثالثة : التفاني في مرضاة الله .

إعجاز الآية الذاتي

مع إخبار الآية السابقة عن فرار طائفة من المسلمين في معركة أحد، حيث الحاجة إلى الصبر والثبات في الميدان ، وبعد تأديب المسلمين بملزمة الصبر للإيمان ، وعدم إمكان التفكيك بينهما ، وهذه الملازمة وسيلة مباركة لقهر الذين كفروا ورد عدوانهم المتكرر على المسلمين وثرهم الوحيد ، وهو المدينة المنورة ، لذا قال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في معركة بدر وأحد وحنين : (يا رب إن تهلك هذه العصاة في الأرض فلن تعبد في الأرض أبداً)^(٢).

فقد تعقبتها آية البحث بالإبتداء بنداء التشريف وشهادة

العز والفخر ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

(١) سورة المائدة ٩١.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٤١٧.

مما يدل على أمور :

الأول : سلامة المسلمين من الضرر عند توالي طائفة منهم من ميدان المعركة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾^(١).

الثاني : شمول الذين تولوا عن القتال بنداء الإيمان في آية البحث ، وهو من رشحات العفو الذي ذكرته الآية السابقة ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ وفيه أمانة وقرينة على أن نداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ شاهد على عفو الله عز وجل عن المسلمين والمسلمات ، وهو من أسرار تكراره في القرآن تسعاً وثمانين مرة ، ففي كل مرة يتلو المسلم أو المسلمة هذا النداء يكون تجديداً للبشارة بالعفو ، ومناسبة لمحو الذنوب والسيئات عنهم ووسيلة لإستدامة الحياة ودوام الرزق الكريم على الناس بلحاظ أن عبادة الناس لله عز وجل هي علة خلقهم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢).

الثالث : بعد النداء بالإيمان جاء النهي ، مما يدل على أن الإمتناع عن محاكاة الغير أمر ليس بالهين ، ويستلزم النية والعزم ، فجاء النداء بصفة الإيمان ليكون إرشاداً وتوفيقاً للمسلمين في سبل الفلاح .

(١) سورة آل عمران ١١١ .

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧ .

ترى لماذا ابتدأت آية البحث بنداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولم تبدأ بالنهي من رأس ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والجواب من جهات :

الأولى : أراد الله عز وجل بآية البحث إجتهد وجهاد المسلمين جميعاً للإمتناع عن محاكاة الذين كفروا .

الثانية : تنمية ملكة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند المسلمين والتعاون بينهم لإجتنب ما نهى الله عز وجل عنه ، قال تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(١).

ومنهم من حمل الآية أعلاه على خصوص الفئ والغنائم ، ونهي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الغلول ، كما عن الحسن البصري ، والسدي لنظم وسياق الآية أعلاه ، ورودها بخصوص الفئ وحكي الكلبي أن الآية أعلاه (نزلت في رؤساء المسلمين قالوا فيما ظهر عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أموال المشركين ، يا رسول الله صفيك والربع ، ودعنا والباقي فهكذا كنا نفعل في الجاهلية وأنشدوه : لك المربع منها والصفايا ... وحكمك والنشيطه والفضول)^(٢).

والمختار أن الآية عامة لأصالة الإطلاق وأصالة الظاهر ولأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لا يأمر إلا عن الوحي وبما فيه الصلاح والفلاح في النشاطين ، ولا ينهى إلا عن القبيح والفساد ، وبما فيه الضرر وسوء العاقبة .

(١) سورة الحشر ٧.

(٢) سورة النكت والعيون ٤/٢٥٣.

ووردت بعض الأخبار في باب الإحتجاج عن ابن عباس وابن مسعود بما يفيد الموضوع الأعم ، قال عبد الله بن مسعود : لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن ، المغيرات لخلق الله . فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب ، فجاءت إليه فقالت : إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت ، قال : وما لي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو في كتاب الله .

قالت : لقد قرأت ما بين الدفتين فما وجدت فيه شيئاً من هذا قال : لئن كنت قرأته لقد وجدته أما قرأت ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(١) ، قالت : بلى ، قال : فإنه قد نهى عنه^(٢).

وقد ورد عن رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : "إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه"^(٣).

الثالثة : بعث المسلمين على التفقه في الدين ومعرفة قانون الفصل والتمييز بينهم وبين الذين كفروا ، لترشح إجتنب التشبيه بالكفار عنه .

الرابعة : إبتداء آية البحث بنداء الإكرام لطف من عند الله عز وجل بالمسلمين وفيه دعوة لهم للشكر لله عز وجل على هذه النعمة ، ومن مصاديق الشكر في المقام التقيد بالنهاي عن محاكاة الذين كفروا .

(١) سورة الحشر ٧.

(٢) الدر المنثور ٤٥٩/٩.

(٣) تفسير ابن كثير ٦٨/٨.

الخامسة : لما بينت الآية السابقة إلتقاء المسلمين الذين كفروا في ميدان القتال والفصل بينهم بالسيف ، جاءت هذه الآية لإصلاح المسلمين لمقدمات القتال ، والإحتراز من تثبيط الهم الذي يقوم به الذين كفروا .

السادسة : تأكيد فضل الله عز وجل بتقريب المسلمين إلى منازل الإمتثال للأوامر والنواهي الإلهية بندايتهم بأحب الأسماء إليهم ، وما يدل على إرتقائهم في سلم المعرفة .

السابعة : إرادة الأجر والثواب للمسلمين ، وأن إجتنايتهم صد المسلمين عن الخروج للقتال أو للكسب وطلب الرزق إنما هو بقصد القرية والطاعة لله ، ومن ضروب هذا الإجتنايت السكوت عن الذي يخرج للجهاد وعدم القيام بمنعه ، وهذا السكوت أمر وجودي ، وشاهد الرضا .

الرابع : يفيد الجمع بين خاتمة الآية السابقة وإبتداء آية البحث بندايت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ البشارة للمسلمين بالعفو والمغفرة من عند الله وبيان أن عفو عن الذين تولوا من المعركة من المسلمين برحمة منه لأنه هو الغفور الرحيم ، وليس من منة من أحد على الله عز وجل سواء الذي دخل الإسلام طوعاً ، أو الذي خرج للقتال إلى جانب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ولكن الله عز وجل هو صاحب الفضل والمن .

والمنان من أسماء الله الحسنى ، ولم يرد في القرآن وورد في السنة النبوية ، وعن أنس بن مالك قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً في الحلقة ورجل قائم يصلي فلما ركع وسجد تشهد ودعا ، فقال في دعائه : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت وحدك ، لا شريك لك ، المنان ، بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم إني

أسألك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى^(١).

الخامس : لقد ذكرت الآية السابقة العفو عن الذين تولوا وفروا من المسلمين فجاءت هذه الآية بدعوة المسلمين جميعاً لإجتنباب الصدّ عن خروج المؤمنين للقتال لأن في خروجهم منعة للإسلام ، ووقاية من التولي والفرار ، بلحاظ موضوعية الكثرة في عدد جيش المسلمين وتفانيهم في مرضاة الله .

إذ أن النهي في الآية إنحلالي يتوجه إلى كل مسلم ومسلمة بإجتنباب التشبه بالذين كفروا مجتمعين ومتفرقين .

ومن معاني إختتام آية البحث بالإخبار عن المغفرة والحلم من عند الله عز وجل منع ديبب الحزن إلى نفس المسلم الذي تشبه بالكفار يوماً بأن طلب من غيره من المسلمين القعود ليبدأ مع الآية صفحة مشرقة تتقوم بأمور :

الأول : الإستغفار .

الثاني : إجتنباب صد المسلمين عن الخروج إلى ميدان القتال.

الثالث : القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ويمكن تسمية آية البحث «لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا» وقد ورد هذا اللفظ ست مرات في القرآن يتقدمه النداء بالإيمان في مرتين منها ، أحدهما آية البحث .

لقد تضمنت آية البحث بين المسلمين والمسلمات مجتمعين ومتفرقين عن محاكاة الذين كفروا في لومهم للمؤمنين الذين خرجوا للقتال في معركة أحد ، وسقطوا شهداء خاصة الأنصار

بدليل قوله تعالى ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ وكان عدد الشهداء من المسلمين سبعين شهيداً ، منهم خمسة وستون من الأنصار ، ترى هل يقصد الذين كفروا من كلامهم ولومهم خصوص الذين قتلوا الجواب لا ، إنما كانوا يريدون أموراً :
الأول : صد المؤمنين الأجباري عن مقاتلة الذين كفروا من قريش .

الثاني : تحريض النساء والصبيان لمنعهم من الخروج تحت لواء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو من أسرار لفظ ﴿إِخْوَانِهِمْ﴾ في آية البحث بلحاظ الصلات النسبية بين الأنصار من الأوس والخزرج ، وفيه نكتة وهي تعدد الأعداء الذين يواجهون رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من جهات :

الأول : كفار قريش الذين يحملون السلاح ، ويزحفون بكل ما عندهم من رجال وعدة للقضاء على الإسلام .
الثاني : القبائل التي توازر قريش سواء كان لها عهد وعقد مع قريش أو بسبب البغض للإسلام وشرعة التوحيد، وحباً بعبادة الأوثان والإقامة عليها .

الثالث : المنافقون الذين في المدينة ، وبين ظهراي المسلمين .
ومن إعجاز القرآن والدلالات على الأذى والضرر المترشح عن النفاق مجئ سورة كاملة باسم (سورة المنافقون) وتبدأ بالخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ

الْمُنَافِقِينَ لَكَادِبُونَ ﴿١﴾ وكان المنافقين يقولون كلاماً بحضرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ويقولون غيره وتقيضه في متدياتهم ومجالسهم الخاصة ، وهل يمكن تأويل فعلهم هذا بأنهم يصدقون برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على ألا تصل النوبة للقتال وخوض غمار المعارك الجواب لا ، إذ أخبرت السورة أعلاه وآيات أخرى من القرآن عن تلبس المنافقين بالكفر ، وذكرت سوء عاقبتهم في النار .

لقد قدمت آية البحث الضرب في الأرض على الغزو ، وفيه مسائل إعجازية :

الأولى : بيان كثرة وتعدد خروج المسلمين للتجارة .

الثانية : بشارة قلة وإنحسار المعارك التي يخوضها المسلمون مع الذين كفروا .

الثالثة : دعوة المسلمين للتهيئ للتجارة والكسب ، وقد نزل القرآن بالإخبار عن نعمة عظيمة على قريش وهي تجارتهم إلى الشام واليمن بقوله تعالى ﴿لَا يَلَا فِ قُرَيْشٍ * إِلَّا فِيهِمْ رَحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ (٢).

ومن فضل الله عز وجل على الناس أنه إذا أنزل نعمة على أهل الأرض فانه أكرم من أن يرفعها ، فهي باقية بين ظهرانيهم لتبين آية البحث بأن المسلمين ينالون هذه النعمة وتدل عليه الوقائع والأحداث .

(١) سورة المنافقون ١ .

(٢) سورة قريش ١-٢ .

وفي قوله تعالى ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ ^(١) وورد عن مقاتل بن حيان قال (كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَيَقُومُ قَائِماً ، وَإِنْ دَحِيَّةَ الْكَلْبِيِّ كَانَ رَجُلًا تَاجِرًا ، وَكَانَ قَبْلَ أَنْ يَسْلُمَ : قَدَمَ بِتِجَارَتِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ خَرَجَ النَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَى مَا جَاءَ بِهِ وَيَشْتَرُونَ مِنْهُ ، فَقَدِمَ ذَاتَ يَوْمٍ وَوَافَقَ الْجُمُعَةَ ، وَالنَّاسَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ ، وَهُوَ قَائِمٌ يَخْطُبُ ، فَاسْتَقْبَلَ أَهْلَ دَحِيَّةِ الْعَيْرِ حِينَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ بِالطَّبْلِ وَاللَّهْوِ ، فَذَلِكَ اللَّهْوُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ ، فَسَمِعَ النَّاسُ فِي الْمَسْجِدِ أَنَّ دَحِيَّةَ قَدْ نَزَلَ بِتِجَارَةٍ عِنْدَ أَحْجَارِ الزَّيْتِ ، وَهُوَ مَكَانٌ فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ ، وَسَمِعُوا أَصْوَاتًا ، فَخَرَجَ عَامَةُ النَّاسِ إِلَى دَحِيَّةَ يَنْظُرُونَ إِلَى تِجَارَتِهِ وَإِلَى اللَّهْوِ ، وَتَرَكَوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِماً لَيْسَ مَعَهُ كَبِيرٌ عَدَّةٌ أَحَدٌ ، فَبَلَغَنِي وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، وَبَلَغْنَا أَنَّ الْعَدَّةَ الَّتِي بَقِيَتْ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَدَّةٌ قَلِيلَةٌ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ ذَلِكَ : لَوْلَا هَؤُلَاءِ ، يَعْنِي الَّذِينَ بَقُوا فِي الْمَسْجِدِ؛ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَقَصَدَتْ إِلَيْهِمُ الْحِجَارَةُ مِنَ السَّمَاءِ) ^(٢).

لقد جحد كفار قريش بنعمة التجارة والكسب التي رزقهم الله ، فأثأها الله عز وجل للمسلمين وحذرهم من الإنصاف للذين كفروا الذين يريدون منهم القعود وعدم الضرب في الأرض .

(١) سورة الجمعة ١١.

(٢) الدر المنثور ١٠/١٠.

إعجاز الآية الغيري

تترشح عن النداء بصفة الإيمان للمسلمين مسائل :

الأولى : بعث معاني الرضا والفخر في نفوس المسلمين والمسلمات لتلقيهم الثناء من عند الله عز وجل .

الثانية : توجه المسلمين بالشكر لله عز وجل على نعمة إختصاصهم بنداء المدح والثناء .

الثالثة : ندب المسلمين لتعاهد سنن الإيمان ، وبذل الوسع في الإرتقاء في مراتبه ، وبلوغ درجات التقوى واليقين .

الرابعة : إدراك الناس جميعاً لقانون الملازمة بين الإيمان وأداء الفرائض العبادية ، لذا يبعث نداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على الشهادة والتدبر من وجوه :

الأول : حرص كل مسلم ومسلمة على أداء الواجبات العبادية .

الثاني : قيام المسلمين بالمناجاة بينهم بأداء الفرائض من الآيات تشريع صلاة الجماعة وإستحبابها إستحباباً مؤكداً وتجديد إجتماع المسلمين في مرضاة الله بصلاة الجمعة كما في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾^(١).

الثالث : إجتماع المسلمين والمسلمات بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الحث على العبادات وأداء الفرائض وتأكيد صدق إستحقاقهم لنيل مرتبة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

الرابع : التعاون والتأزر بين المسلمين لأداء الواجبات والسنن ، ومن الإعجاز في الشريعة الإسلامية تشريع الزكاة التي هي نوع مؤازرة

بين المسلمين وإعانة من الغني إلى الفقير ، وباعث لكل منهما على تقوى الله والصبر في مرضاته .

ومن إعجاز آية البحث أنها تجمع بين الندب والنفر للقتال ، والخروج للكسب والسعي في طلب الرزق ليكون من السبر والتقسيم وفق الإصطلاح البلاغي .

وتتحدى الآية الذين كفروا في بواطنهم وخلجات نفوسهم إذ تخبر بأنها تمتلأ بالحسرة والأسى والندامة لقوله تعالى ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾^(١).

كما تلازم الآية المسلم في حياته الدنيا من جهات :
الأولى : بعث المسلم على الحرص في إختيار كلامه وفعله وجعله في مرضاة الله .

الثانية : إدراك المسلم لحقيقة وهي وجود أمور نهى الله عز وجل عنها ، فلا بد من إجتناها والإبتعاد عنها .

الثالثة : دعوة المسلمين مجتمعين ومتفرقين إلى التدبر في مسألة صدّ الذين آمنوا عن الخروج لقتال الذين كفروا ، وما يترشح عن هذا الصد من الأضرار .

وهل في الآية بشارة دخول الناس الإسلام ومبادرتهم للخروج للنفير والجهاد في سبيل الله ، الجواب نعم لتكون آية البحث مقدمة ومناسبة وإنتظاراً لدخولهم الإسلام ، قال تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾^(٢).

الرابعة : تسليم المسلمين بأن الحياة والموت أمران بيد الله عز وجل فكل نفس يصعد ونفس ينزل هو من مصاديق الحياة التي يملكها الله عز

(١) سورة آل عمران ١٥٦.

(٢) سورة النصر ١-٢.

وجل ، وفيه دعوة لشكر الله عز وجل على نعمة إستدامة الحياة وتجلي هذا الشكر بتعاهد الفرائض ، والتقيد بالأوامر والنواهي الإلهية ، وهو من أسرار آية البحث بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لبعث المسلمين على فعل الصالحات والتنزه عن القبائح وما حرم الله ، قال تعالى ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُواهَا﴾ (١).

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار الأجر والثواب ، فتكتب الحسنات للمؤمن حتى في سكوته لأن إمتناعه عن نهى المجاهدين هو حسنة وعمل صالح ، ومن دلالات آية البحث أنها دعوة للمسلمات لجني الصالحات وإقتطاف الحسنات بالإمتناع عن نهى الابن والأخ والأب عن الجهاد في سبيل الله ، إذ تبث الآية النفرة في نفوسهن من محاكاة الذين كفروا رجالاً ونساءً ممن يصدون عن سبيل الله ، لذا جاء القرآن بذكر المنافقات على نحو التعيين في خمس آيات منه .

فنهى المؤمنين عن الجهاد في سبيل الله والصبر ، وتحمل الأذى في مرضاته من خصال المنافقين والمنافقات ، كما أنهم يقبضون أيديهم عن المعروف وعن إعانة المجاهدين ، فان أعرض المؤمن عن صدهم ونهيههم وخرج للقتال فانهم لا يمدونه بيد العون ، ولا يعينونه وعياله بالنفقة والمؤونة ، فجاءت آية البحث لبيان قبح فعلهم ، وكىلا يقولون غداً أنهم شاركوا في تحقيق النصر للإسلام في معاركه الأولى .

فلا غرابة أن تأتي آيات متعددة في ذم المنافقين من جهات :

الأولى : النعت بالنفاق نوع ذم وتقبيح .

الثانية : تحذير المسلمين من النفاق ، وإبطان الكفر وأسباب الشك

والريب .

الثالثة : ذكر المنافقات بعرض واحد مع المنافقين ، وفيه أمور :

أولاً : بيان حقيقة وهي وجود نساء متصفات بالنفاق ، وإخفاء الكفر مع إظهارهن الإيمان .

ثانياً : تنبيه المسلمين والمسلمات من المنافقات .

ثالثاً : دعوة المسلمات إلى أخذ الحيطة والحذر من المنافقات في المجالس الخاصة والعامة .

رابعاً : دعوة المنافقات للتوبة والإنابة .

رابعاً : تنبيه الأبناء من الإنصات للأم إذا كانت منافقة ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾^(١).

فمن إعجاز القرآن أنه يدخل إلى البيوت ، ويكون شريكاً مباركاً وعضداً حاضراً في الصلة من وجوه :

الأول : بين الأخ وأخيه ، لذا قالت آية البحث ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾.

الثاني : بين الأب وابنه .

الثالث : بين الزوج وزوجته ، بنهي وزجر وتنبيه كل واحد منهما من النفاق والإنصات له .

الرابع : يكون القرآن حاضراً مع الأم وإبناها وبناتها .

الخامس : حضور القرآن بين الأخ وأخته .

السادس : حضور القرآن بين الشركاء في التجارة والمكاسب والميراث ونحوه .

وهذا التعدد من مصاديق قوله تعالى ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾^(١).

الرابعة : بيان سوء عاقبة المنافقين وشدة عذابهم يوم القيامة .

الخامسة : من الإعجاز ذكر المنافقين والمنافقات خمس مرات في آيتين من القرآن بقوله تعالى ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ ﴾ (٢).

ومن الآيات ورود هاتين الآيتين في سورة التوبة ، وفيه دعوة لهم للإنبابة والتوبة ، وشاهد على حصول توبة كثير من المنافقين والمنافقات ، وترغيب المسلمين ببيان قبح النفاق .

السادسة : كما ورد لفظ المنافقين قبلها بآيتين في قوله تعالى ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُبَيِّنُ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مِمَّا تَحْذَرُونَ ﴾ (٣) فذات المنافقين يحذرون من نزول آيات القرآن وما فيها من المضامين وينزل القرآن بفضحهم وخزيهم ، وبتحذير المسلمين منهم ومن ضررهم الذي يكون على وجوه :
الأول : ضرر المنافقين على الإسلام .

الثاني : بث المنافقين روح الشك والريب ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (٤).

(١) سورة المجادلة ٧.

(٢) سورة التوبة ٦٧-٦٨.

(٣) سورة التوبة ٦٤.

(٤) سورة الأحزاب ١٢.

الثالث : إرادة المنافقين صدّ المسلمين عن الخروج إلى ساحات الدفاع عن الإسلام ، كما تدل عليه آية البحث .

الرابع : ضرر المنافق على نفسه ، وجلب الأذى والإثم لذاته ، وتذكر آية البحث وجهاً من وجوه الأذى وهو إمتلاء قلوب المنافقين والذين كفروا بالخسرة ، وأما الإثم فذكرت الآية سوء العاقبة الذي يترتب عليه .

لقد ذكر الذين كفروا والمنافقون مسألة وهي لو بقي الصحابة من الأنصار عندهم ولم يخرجوا إلى معركة أحد لما قتلوا بلحاظ أن هذا الخروج مقدمة وسبب للإقتال والقتل ، ولم يعلموا بالملازمة بين الإيمان والإبتلاء بالقتال دفاعاً عنه عندما يصير الذين كفروا على الهجوم كما في معارك الإسلام الأولى ، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ .

ومن الإعجاز الغيري لآية البحث مجئ الأحزاب من الكفار بعشرة آلاف رجل وإطلائهم على المدينة المنورة ، وإحاطة الجيوش لها ، ولم يمنعهم بقاء المؤمنين في بيوتهم وعدم خروجهم للقتال في أطراف المدينة . ترى هل أنصت المؤمنون إلى أقوال الذين كفروا وما كانوا يقصدونه من الحث على القعود الجواب لا ، فقد خرجوا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى معركة الخندق ، وربطوا خلفه ولم يفعلوا كما فعل المنافقون حيث إستأذنوا للذهاب إلى أهلهم بحجة أن بيوتهم مكشوفة ، وفي التنزيل ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ الْإِفْرَارَ﴾ ^(١) .

وإذا كان المؤمنون قد إمتنعوا عن طاعة الذين كفروا والإصغاء غلى اقوالهم وتحريضهم على القعود فلماذا نزلت آية البحث الجواب من جهات :

الأولى : بيان جهاد المسلمين في سبيل الله .

الثانية : تأكيد صدق إيمان الأنصار والمهاجرين وإخلاصهم في طاعة الله ورسوله .

الثالثة : توثيق الأذى والعناء الذي كان يلاقيه الصحابة في مرضاة الله .

الرابعة : النهي والمنع من تكرار الصد عن الدفاع عن بيضة الإسلام ، فمن إعجاز الآية الغيري إتصال وإستمرار مضامينها إلى يوم القيامة .

ولا يستطيع الناس وإن إجتمعوا أن يحصوا ويكشفوا المنافع العظيمة لآية البحث من جهات :

الأولى : ترغيب المسلمين بالجهاد في سبيل الله .

الثانية : التخفيف عن المؤمنين بزجر الذين كفروا والمنافقين عن صدهم .

الثالثة : كشف المنافقين ومعرفة المسلمين لهم بلحاظ نهيمهم عن الخروج ، قال تعالى في ذم المنافقين ﴿ وَكَوْشَاءُ لَا يَرِيئَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَتَعَرَّفْنَاهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾^(١).

قال الكلبي : فلم يتكلم بعد نزولها منافق عند النبي صلى الله عليه وسلم إلا عرفه^(٢).

(١) سورة محمد ٣٠.

(٢) النكت والعيون ١٣٥/٤.

الرابعة : حث المنافقين على التوبة والإنابة ، ودعوتهم لإصلاح السرائر ، وجعلها موافقة لظاهر ما يقولون .

الخامسة : منع وقوع الخلاف والنزاع بين المؤمنين فاذا أنصت بعضهم إلى أقوال المنافقين فانه يكرر قولهم بين المجاهدين ، وفيه تثبيت للهمم ، فجاءت آية البحث واقية منه ، وعدم إحصاء منافع آية البحث عند نزولها وحتى يوم القيامة من مصاديق قوله تعالى ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (١) .

وآية البحث من آيات بناء الدولة الإسلامية وأنشاء سور وجيش قوي ، واقتصاد متين ، فكأن الآية تقول يا أيها المسلمون جاهدوا في سبيل الله وأسعوا في المكاسب وطلب الرزق ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ (٢) .

وفي علم الأصول أنه لا يجب السعي لطلب مقدمة الواجب المشروط ، فلا يجب بذل الوسع لتحصيل الإستطاعة لحج بيت الله الحرام ، ولكن إن تحققت الإستطاعة من الزاد والراحلة ونحوها عند المسلم المكلف وجب عليه حج البيت .

وهل تدعو الآية المسلمين ليكونوا على قسمين :

الأول : الذين يجاهدون في سبيل الله .

الثاني : الذين يعملون بالتجارة والزراعة .

(١) سورة الأسراء ٨٨ .

(٢) سورة الأنفال ٦٠ .

الجواب لا إنما يكون المسلم مجاهداً وحاضراً في النفير عند الحاجة ومداهمة العدو لثغور المسلمين وكاسباً وعاملاً ومضارباً في حال السلم والمهادنة ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾^(١) كما تدل عليه آية البحث لإتحاد لفظ ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ وتعدد موضوع الموت والقتل وهما الضرب في الأرض أو القتال فذات الإخوان مرة يعملون في التجارة والزراعة وأخرى يخرجون للقتال تحت لواء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفي كلتا الحالتين هم عرضه للموت .

لقد أراد الله عز وجل الفصل بين الذين آمنوا والذين أصرروا على القيام على الكفر ، فتضمنت آية البحث نهى المسلمين عن محاكات الذين كفروا أو ترديد ما يقولون .
وقيل بقاعدة ناقل الكفر ليس بكافر وتسمى أيضاً حاكي الكفر ليس بكافر .

ولا أصل لهذا القاعدة ، نعم هو يصح إذا كان النقل من أجل دحض مفاهيم الكفر ودمها أو التحذير منها أو الرد عليها ، ولكن هذا لا يعني تأسيس قاعدة بهذا الاسم وقيل أن أمثلته في القرآن والسنة النبوية كثيرة ، ولكن هذه الأمثلة ليست نقلاً أو حكاية إنما هي حجة وتوثيق وأدلة على إستحقاق الذين كفروا العذاب والهلاك أن تخرج حكاية الكفر عن مقامات الإيمان .

الآية سلاح

إبتدأت الآية بنداء الإكرام والتشريف لعموم المسلمين والمسلمات ،
ليصاحبهم في حياتهم الدنيا سلاح سماوي مبارك من وجوه :
الأول : شهادة الله للمسلمين بصفة الإيمان ، وفيه دعوة للناس
بالإصغاء لهم ، والقول منهم .

الثاني : ترغيب الناس بالإسلام لدلالة تسمية المسلمين بالمؤمنين
على أن نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم حق وصدق .

الثالث : بعث المسلمين للمناجاة بينهم لتعاهد منزلة الإيمان التي
شرفهم الله عز وجل بنيلها وبلوغها ، وإدراك لزوم توارث هذه الصفة
بالصبر والتقوى ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ
وَالصَّلَاةِ﴾^(١) أي من ضروب هذه الاستعانة الحرص على تلقي صيغ
الإيمان تركة مباركة عن الآباء ، والحرص على إبقائها إرثاً للأجيال
اللاحقة .

لذا يكون سعي كل فقيه وعالم في تأريخ الإسلام ميراثاً للأجيال
اللاحقة من المسلمين .

الرابع : لقد أنعم الله عز وجل على النبي محمد صلى الله عليه وآله
وسلم والصحابة بنزول الملائكة لنصرتهم في معركة بدر وأحد وأنعم
على جميع المسلمين والمسلمات بالمدد السماوي الذي يطل عليهم كل
يوم وهو نداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فصحيح أن الموضوع الذي يأتي فيه
هذا النداء هو الأمر أو النهي إلا أنه يدل بالدلالة التضمنية على البشارة
بالنعيم الدائم وكأن آية البحث تقول : يا أيها الذين آمنوا أبشروا

بالنعيم الدائم) إذ أن جزاء الإيمان هو الثواب العظيم من عند الله عز وجل .

ومن الإعجاز في آية البحث أن النهي عن محاكاة المنافقين والكافرين في شماتهم وصددهم عن سبيل الله ، إنما جاء بعد الخطاب الكريم بصيغة الإيمان .

لقد أراد الله عز وجل البينة بين الذين آمنوا والذين كفروا ، وهو من الضروريات لبناء صرح الدولة الإسلامية وإقامة شعائر الله عز وجل كاملة ، وتقع على المسلمين مسؤولية حفظ التنزيل من التحريف والتبديل ، وإقامة الصلاة وإتقان أفعالها وضبط أحكام الواجبات الأخرى كالصيام والحج والزكاة والخمس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويتم هذا بتنزه المسلمين عما يفعله الذين كفروا من القبائح وقد بينت آية البحث جانباً منها .

مفهوم الآية

يبحث نداء الإيمان في نفوس المسلمين معاني الأخوة بينهم ويتضمن الإخبار بأنهم أمة مستقلة لم تجتمع أمة على مثل الأمر الذي اجتمعوا عليه والذي فيه خير الدنيا والآخرة ، بلحاظ أن المسلمين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر .

لذا فمن وجوه إيمان المسلمين العمل بأحكام القرآن والصدور عنه ، وكان القرآن يقول: يا أيها الذين آمنوا بي وبآياتي لولا أن هذا النداء نازل من عند الله عز وجل والقرآن كلامه الذي أنزله على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بشرى للمسلمين .

ويحتمل نداء يا أيها الذين آمنوا وجوهاً:

الأول : إنه بشارة للمسلمين .

الثاني : النداء بصيغة الإيمان إنذار للمسلمين .

الثالث : النداء التشرifi للمسلمين بشاره وإنذار من عند الله للمسلمين.

الرابع : ليس في نداء يا أيها الذين آمنوا بشاره أو إنذار إنما هو تشرifi وإكرام.

والمختار هو الأول أعلاه، وهو لا يتعارض مع ما ورد في الرابع أعلاه، وهو من إعجاز القرآن.

وهذا التشرifi إختبار وإمتحان، وهو مقدمة لنزول الأوامر والنواهي كما في آية البحث التي تتضمن النهي عن التشبيه بالذين كفروا في حثهم على الصدود عن سبيل الله.

ومن مفاهيم آية البحث تنمية ملكة التقوى عن المسلمين وإدراكهم أنهم أمة يخاطبهم ويشهد لهم بالإيمان الله عز وجل في التنزيل والكتاب الباقي إلى يوم القيامة ، ليكون نداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الذي إبتدأت به آية البحث وسام فخر يصاحب المسلم والمسلمة حياتهما ويبحث السكينة في نفوس المسلمين ويجعلهم يتطلعون إلى معاني الغبطة والسعادة والرزق الكريم الذي يترشح عن هذا النداء ، لقد خلق الله عز وجل الناس من آدم وحواء فهم جميعاً إخوان في أصل الخلق والنشأة قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾^(١) ولكن هذه الصلة النسبية لم تمنع من الفصل والتمييز في

موضوع الإيمان والكفر ، وهل يعلم المسلمون أن بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم دخولهم الإسلام فيصل بينهم وبين إخوانهم وأرحامهم ممن بقي على الكفر والضلالة ، الجواب نعم ، ومن رشحات الإيمان أن نفس المسلم تنفر من الذين كفروا ، وتكر قبيح أفعالهم ، لذا

قيدت آية البحث مسألة الإحتراز عن التشبه بالكفار بخصوص توجيه اللوم للذين خرجوا للقتال وأستشهدوا .

ومن مفاهيم آية البحث أنها شاهد على شدة الأذى الذي كان يلاقيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو مصداق لقوله (ما أؤذي نبي مثل ما أؤذيت) ^(١) إذ يشترك الذين كفروا والمنافقون في محاربة الإسلام ونشر الإشاعات التي تبعث الخوف من بطشهم وقوتهم وتخبر عن غاياتهم الخبيثة إرادة قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقتل أو أسر أهل بيته وأصحابه ، فجاءت آية البحث لتكشف كيدهم وسوء قولهم وتخبر عن إنتفاء أثره ، وتتضمن البشارة بأن كيد الذين كفروا لم يترشح عنه إلا الحسرة في قلوبهم فلم تحتتم الآية إلا وذكرت الأسى والحسرة التي أصابت قلوب الذين كفروا .

وهل تمنع الآية من العناية بالأسباب في موضوع الحياة والموت بلحاظ إخبارها بأن الحياة والموت بيد الله ، الجواب لا ، ولكنها تؤكد بأن الموت لا يطرأ ويحل بساحة إنسان إلا بمشيئة وإذن من الله سواء بسبب أو بغير سبب ، لذا ذكرته الآيات بصيغة الفاعل كما في قوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ﴾ ^(٢) فالموت أمر وجودي يغيب ويحضر ، وإذ حضر صار فيصلاً بين الحياة والموت ولا يستطيع الموت بذاته الحضور ، فلا بد أن الله عز وجل هو الذي يجعله حاضراً ، وتقدير الآية أعلاه : حتى إذا أحضر الله الموت .

(١) تفسير الرازي ٤٥٤/٢ .

(٢) سورة البقرة ١٨٠ .

وإذا كان الموت يحضر بأمر من عند الله في ساحة الإنسان فهل تحضر الحياة كل آن أو كل يوم أم أن أمر الله عز وجل لها واحداً من حين ولادة الإنسان وإلى أن يحين أوان موته ، فتكون الحياة كالموت لا تحضر إلا مرة واحدة في بداية خروج الإنسان طفلاً إلى الدنيا ، الجواب هو الأول ، وأن الله عز وجل بيده إستدامة حياة الإنسان فلا تمر عليه دقيقة واحدة إلا بإذن ومشئته من عند الله ، ويكون هذا الإذن بعدد شهيق وزفير الإنسان مما يعجز معه عن الشكر لله عز وجل على نعمة الإذن المتجدد بالحياة ، فيتنفس الإنسان البالغ في اليوم خمساً وعشرين مرة ، ليسحب إلى جوف الرئتين نحو مائة وثمانين متراً مكعباً من الهواء ويتنفس الأصغر من البالغ عدداً أكثر ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(١).

وتحتمل آية البحث في مفهومها وجوهاً :

الأول : الحث على الجهاد في سبي الله .

الثاني : الترغيب بالضرب في الأرض وطلب المكاسب والسعي في التجارة والصناعة .

الثالث : الندب إلى الوجهين أعلاه كل بحسب الحال .

الرابع : لا دليل في الآية على أحد الوجوه أعلاه وباستثناء الوجه الأخير فان الوجوه الثلاثة الأخرى من مصاديق ومفاهيم آية البحث ، وتقدير الآية : يا أيها الذين آمنوا إضربوا في الأرض ودافعوا الغزاة والله يحمي ويميت .

لتكون آية البحث من مقدمات بناء الدولة الإسلامية ومن أسباب الإزدهار الإقتصادي في المدينة المنورة وعند المسلمين .

إفاضات الآية

لقد أراد الله عز وجل للمسلمين العز في الحياة الدنيا والآخرة ، وهل يدل قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) على إرادة الفخر والمجد للمؤمنين في النشأتين ، الجواب نعم ، وهو المستقرأ من صيغة الإطلاق التي تتضمنها الآية أعلاه بالإضافة إلى الآيات الأخرى التي تتضمن الإنباء عن خلودهم في النعيم الأخروي ، ومن الآيات أن العز لا يختص بالرجال منهم ، مع أن الجهاد والقتال ساقط عن النساء ، قال تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾^(٢).

وإذ وردت آية البحث بخصوص القتال بين المسلمين والذين كفروا في معركة أحد فقد تضمنت آية البحث زجر المسلمين عن محاكاة الكفار في الصد عن سبيل الله والجهاد في سبيله ، وهل تتضمن الآية ودلالات الخطاب فيها المؤمنات أم أنها خاصة بالرجال من المؤمنين ، الجواب هو الأول ، وتقدير الآية يا أيها اللائي آمن لا تكن كالذين كفروا وقالوا لأخوانهم ..).

وللمرأة شأن في مقدمات القتال وفي إستدامته وكيفية إنتهائه ، فأراد الله عز وجل لكل مسلمة أن تكون عوناً وعضداً للمسلمين في جهادهم وقتالهم ، وكانت بعض النسوة يستقبلن الذين ولوا وفروا من ميدان المعركة بكلمات التبييت والتعير ، وكانت بعض المؤمنات تقاتل إلى

(١) سورة المنافقون ٨.

(٢) سورة التوبة ٧٢.

جانب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في معركة حنين ومعركة حنين مثل أم الحارث وأم عمارة الأنصاريّتين .

الآية لطف

من صفات الله عز وجل أنه لطيف بعباده ، وليس من حصر لمصاديق اللطف الإلهي ، وتعجز الخلائق عن إحصاء أفراد اللطف الإلهي على الناس ، وهل هو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (١) .

الجواب ورد لفظ ﴿نِعْمَةٌ﴾ في الآية أعلاه بصيغة الجنس ، واللطف الإلهي فرد من أفراد هذه النعمة ليكون من أسرار هذا اللفظ أنه سواء قرئ بصيغة الجنس وإرادة التكرير وما تدل عليه من صيغة العموم أو قرئ بصيغة المفرد وإرادة فرد واحد من أفراد النعمة الإلهية فإن النتيجة ذاتها من جهة التحدي وبيان عظيم فضل الله عز وجل على الناس .
ليكون من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (٢)
إنقياد الخلائق كلها لله عز وجل لما تراه من النعم العظيمة على الإنسان وغبطتها له للخلافة وتعدد النعم مما يستلزم الشكر لله عز وجل على هذه النعم .

ويتجلى الشكر بالإقرار بالربوبية المطلقة لله عز وجل والتصديق بالنبوة والتنزيل فبأمر فريق من الناس لدخول الإسلام ، وأخلصوا الطاعة إلى الله وخرجوا للدفاع عن مبادئ التوحيد في الأرض في معركة بدر وأحد ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في

(١) سورة النحل ١٨.

(٢) سورة النحل ١٨.

معركة بدر : اللَّهُمَّ إِنَّ تَهْلِكَ هَذِهِ الْعَصَابَةُ الْيَوْمَ لَا تُعْبَدُ^(١) . وقال في معركة أحد (إن تشأ لا تعبد في الأرض)^(٢).

وكذا في معركة الأحزاب عندما طال حصار الذين كفروا للمدينة ، إذ قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الناس عند زوال الشمس وحثهم على الصبر والمناجزة ، وورد (عن جابر بن عبد الله قال : لما كان يوم خيبر بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلا فجاء محمد بن مسلمة فقال يا رسول الله لم أر كاليوم قط قتل محمود بن مسلمة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فانكم لا تدرون ما يتتلون به منهم فإذا لقيتهم فقولوا اللهم أنت ربنا وربهم ونواصينا ونواصيهم بيدك وإنما تقتلهم أنت ثم الزموا الأرض جلوسا فإذا غشوكم فانهضوا وكبروا)^(٣) . وجاءت آية البحث لطفاً من جهات :

الأولى : تنمية ملكة الحيلة والإحتراف عند المسلمين .

الثانية : إخبار المسلمين بأن أعداءهم من المشركين لا ينحسرون بالذين يقاتلونهم في ميدان معركة أحد ، فهناك أعداء آخرون يصرف إخوانهم عنهم ، فقد ذكرت آية البحث الذين إستشهدوا بأنهم إخوان الذين كفروا من جهة النسب ، وهم إخوان للمؤمنين من جهة النسب والعقيدة ، قال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾^(٤) كما أن الذين كفروا يسعون لصد المؤمنين من الأنصار عن القتال والضرب في الأرض في الدعوة إلى الله عز وجل .

(١) السيرة النبوية لابن كثير ١/٦٢٦ .

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٣/٥٥ .

(٣) عيون الأثر ٢/١٣٦ .

(٤) سورة الحجرات ١٠ .

ليكون من معاني الإعجاز في الآية أعلاه وجوب عدم الإلتفات إلى صدهم عن سبيل الله لأن أخوة الإيمان تستلزم المبادرة إلى النفير وعدم التخلف عن نصرته النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والأخوة المؤمنين من أهل البيت والصحابة الذين معه .

لقد جاءت آيات القرآن بالحث على التمسك بآيات القرآن وما فيها من الأوامر والنواهي ، وبال دعوة إلى نصرته الإسلام ، وبناء صرح الإيمان ، قال تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ .

وقد أراد الذين كفروا بإظهارهم الشماتة والتأسي الزائف لصد المؤمنين عن الجهاد ، فجاءت آية البحث لتنتهي المسلمين عن محاكاتهم والتشبه بهم ، وليبين المائز والفيصل بين المؤمنين والكفار .

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بالنداء العام للمسلمين والمسلمات والذي يتضمن في لفظه ورسمه ودلالته معاني الثناء عليهم ، وهو من مصاديق اللطف والإحسان من عند الله وأنه سبحانه يعطي بالأوفى والأتم فنداء الإيمان نعمة عظمى ، وهل يترشح عنها بركات ورزق كريم أم أن النداء أمر مستقل بذاته جاء للبيان والتنبيه ، الجواب هو الأول من جهات :
الأولى : النداء بصيغة الإيمان إكرام للمسلمين .

الثانية : هذا النداء مقدمة لنزول الخير والبركة من عند الله .

الثالثة : المدد من عند الله عز وجل لوحدة المسلمين وتأخيهم وهو المستقرأ من لفظ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(١) .

الرابعة : بشارة العون والفضل الإلهي للمسلمين في القتال ، وتقدير النداء في أول آية البحث على وجوه :

الأول : يا أيها الذين آمنوا تعاقدوا طاعة الله ورسوله .

الثاني : يا أيها الذين آمنوا إن الله يحبكم لإيمانكم ، وفي التنزيل ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾^(١).

الثالث : يا أيها الذين آمنوا لا تلتفتوا إلى قول المنافقين والذين كفروا وصدّهم عن سبيل الله .

الرابع : يا أيها الذين آمنوا إن الذين كفروا أعداء لكم فأحذروهم إذ تبين آية البحث أن العداوة أعم من أن تنحصر بميدان القتال فتشمل مقدماته والتهمة له ، فإذا أراد المسلمون الخروج إلى ميدان القتال فإن الذين كفروا والمنافقين ييثون سموهم بين أهل المدينة وعوائل المؤمنين ، ويدل قوله تعالى ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾^(٢) ، على أن المسلمين لم ينصتوا أو يستجيبوا للذين كفروا في صدّهم عن سبيل الله .

ليفيد الجمع بين آية البحث والآية أعلاه قانوناً وهو تضمن القرآن الملازمة بين أمور :

الأول : بيان الأذى الذي يأتي من الكافرين والمنافقين .

الثاني : الوقاية من شرهم ودفع أذاهم .

الثالث : اللطف الإلهي بالمسلمين والذي يتجلى بنداء ﴿يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في أول آية البحث .

الرابع : التقارب والتداخل في نظم آيات القرآن بين الوجوه الثلاثة أعلاه وبصيف البيان والوضوح .

الخامس : من معاني الجمع بين الآيتين بعث المسلمين لأداء واجباتهم العبادية ، وعدم التخلف عن الدفاع عن النبوة والتنزيل .

(١) سورة آل عمران ٣١ .

(٢) سورة آل عمران ١٢١ .

لقد أراد الذين كفروا صدّ الذين آمنوا عن ميدان القتال والدفاع فنزلت آية البحث لتبدأ بالثناء على المسلمين ، وتحثهم على الثبات في منازل الإيمان وتبشرهم بالمقام الكريم عند الله عز وجل .
ويمكن تأسيس قانون وهو إذا بدأت الآية القرآنية بنداء الإيمان فانها تدل بالدلالة التضمنية على البشارة بخصوص مضامين تلك الآية من جهات :

الأولى : إمثال المسلمين للأوامر الواردة في الآية .
الثانية : إجتنب المسلمين لما نهى الله عز وجل في تلك الآية .
الثالثة : لحوق الخزي والهوان بالذين كفروا .
الرابعة : بقاء الآية القرآنية إلى يوم القيامة وبما من من التحريف والتبديل .

الخامسة : تلاوة المسلمين لآيات القرآن كل يوم ، فمن وجوه تفضيل القرآن على الكتب السماوية السابقة أنه لم يمر يوم على المسلمين إلا وهم يتلون القرآن وعلى نحو الوجوب العيني ، قال تعالى في الثناء على القرآن ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَهُدًى وَإِهْدِنَا صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١) ليكون القرآن أميناً وحافظاً للكتب السماوية السابقة .

فمن فضل الله عز وجل أن القرآن منع من إستمرار التحريف في الكتب السماوية السابقة .

السادسة : الحصانة والأمن من أذى وضرر الذين كفروا الذي تذكره تلك الآية وتقدير آية البحث : يا أيها الذين آمنوا لم ولن تكونوا كالذين كفروا الذين قالوا لإخوانهم إذا ضربتم في الأرض ..)

خاصة وأن المؤمنين هم أنفسهم يخرجون للقتال ، ليكون خروجهم هذا أحسن رد وزاجر للذين كفروا في شكهم وريبهم .
ومن خصائص آية البحث أنها إبتدأت بصيغة الإيمان وتعقبها النهي عن محاكاة الذين كفروا لبيان قانون وهو أن تفضل الله عز وجل ببناء المسلمين .

فمن إعجاز آية البحث أنها تنهى المسلمين عن فعل وتتضمن الدلالة على سلامتهم وعصمتهم من ذات الفعل ، وهل من موضوعية لآية البحث في هذه السلامة ، الجواب نعم ، ومن مصاديقها أمور :

الأول : خطاب المسلمين بصفة الإيمان ، وما تدل عليه من إجتماع شرائط الصبر وحسن السمات والمنعة من محاكاة الذين كفروا .

الثاني : الفصل والتمييز بين المسلمين وغيرهم إذ يستقل المسلمون بنعت الإيمان ، بينما تسمي آية البحث عدوهم بلفظ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ .

الثالث : عدم التعارض بين الإيمان والنهي من عند الله ، فمن مقومات الإيمان تلقي الأوامر والنواهي من عند الله من غير واسة ، فصحيح أن آية البحث نزلت على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبواسطة جبرئيل عليه السلام إلا أن خطابات القرآن تتوجه تارة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وتارة للمؤمنين والنبي هو إمام المؤمنين ، وسيد المرسلين ، وهل يخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الخطاب في الآية يفيد (قالوا لإخوانهم) بلحاظ أن الذين كفروا ينهون إخوانهم من الأنصار ، بينما النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من قريش ، الجواب نعم ، ولكن لا تصل النوبة إليه إنما يكون تقدير الآية الذين كفروا

وقالوا لإخوانهم الذين خرجوا مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لقتال الذين كفروا، وإذا كان المقصود بلفظ إخوانهم في آية البحث هم الأفراد والطوائف من الأوس والخزرج الذين خرجوا للقتال مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في معركة أحد، فهل هم ذاتهم المقصودون بلفظ إخوانهم على فرض تقدير الآية بلغة الخطاب للمسلمين، ولا تكونوا كالذين كفروا فقتلوا إخوانكم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزي) الجواب لا، فموضوع النهي في الآية الكريمة أعم، لتبقى سنخية المناجاة بين المسلمين تتصف بالندب إلى الجهاد والإعانة عليه والترغيب فيه، لذا وردت الآيات والنصوص بالحث على الجهاد بالأموال.

وبعد أن ذكرت آية البحث الذين آمنوا بصيغة الإكرام ذكرت الذين كفروا بلغة الذم من جهات :

الأولى : القبح الذاتي للكفر والجحود.

الثانية : نهى المسلمين مجتمعين ومتفرقين عن التشبه بالذين كفروا، ومن فضل الله عز وجل نهيه عن القبيح ذاتاً أو عرضاً.

الثالثة : بيان آية البحث لقول مذموم صادر من الذين كفروا.

الرابعة : مخاطبة الكفار لإخوانهم من المسلمين ، وإعادة ذات كلام الشك والريب حتى بعد قتلهم وموتهم .

الخامسة : بيان مفهوم الأخوة عند الذين كفروا إذ يقوم بالعود عن الواجب.

إذ يدل قوله تعالى ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا﴾ على حقيقة وهي أن الذين كفروا والمنافقين إمتنعوا عن الخروج لملاقاة الذين كفروا في معركة أحد، فان قلت هناك بعض المنافقين شارك في معركة أحد

مثل معتب بن قشير إذ ورد في التنزيل حكاية عنه ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قَتَلْنَا هَاهُنَا﴾^(١) .

الجواب نعم لذا ورد ذكرهم قبل آيتين ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾^(٢) ، ومن إعجاز القرآن أن تأتي آية البحث بلفظ الذين كفروا وهو أعم من المنافقين ويشمل الذين كفروا ممن أظهر الجحود بالربوبية ، أو أبطن الكفر برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

لقد تكرر في الآية الاسم الموصول (الذين) في آية البحث مع التضاد والتباين بينهما في الأشخاص والموضوع ، فورد ممدوحاً منادى منهيّاً بارادة الذين آمنوا ، وورد الثاني مذموماً بصفة الغائب ومنهي عنه وعن فعله ، وفيه دعوة للمسلمين للشكر لله عز وجل على نعمة الإيمان ، والسلامة من الكفر والضلالة .

وأراد الله عز وجل لهم التنزه عن التشبيه بالذين كفروا وهل هذا النهي مطلق في كل شيء حتى في المباحات وفي المكاسب والتجارات والصناعات وطلب العلوم ، الجواب لا .

إذ جاء قوله تعالى ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(٣) ، فورد تحصيل العلم بصفة الإنسانية وجواز الإكتساب فيها ، والقدر المتيقن من آية البحث هو النهي عن التشبه بالكفار فيما يترشح عن الكفر من الصدود عن سبيل الله ، والحث على القعود ، ومنه مقدمات

(١) سورة آل عمران ١٥٤ .

(٢) سورة آل عمران ١٥٤ .

(٣) سورة العلق ٥ .

خروج المسلمين للدفاع ، وتبسيط الهمم ، فلم يحثوا إخوانهم على القعود، ولكن الضرر من هذا الحث أكبر من جهات :
الأولى : محاولة إثارة روح الشك والريب بين المسلمين .

الثانية : نشر الخوف والإرباك في بيوت المسلمين .

الثالثة : إنشغال المؤمنين بالجدال والاحتجاج ، وإقامة البرهان بلزوم الدفاع بعد أن وصل جيش الذين كفروا إلى مشارف المدينة المنورة كما في معركة أحد والخندق، وهو يتوعدون بالبطش والإنقام.

وهل ينصت المؤمنون لأقوال الذين كفروا ، الجواب لا، إذ تبين آيات القرآن أنهم كانوا يعشقون الشهادة ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُلَاقَوْهُ﴾^(١) .

وقد أخبر الله عز وجل عن خلود الذين يقتلون في سبيله في النعيم وجنان الخلد ، وتضمنت السنة النبوية البشارة للمسلمين بنيل مرتبة الشهادة بالمعنى الأعم والأوسع من القتل في ميدان القتال .

وعن جابر بن عتيك : جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (يعود عبد الله بن ثابت فوجده قد غلب فصاح به فلم يجبه ، فاسترجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : غلبنا عليك يا أبا الربيع ، فصاح النسوة وبكين ، فجعل ابن عتيك يسكتهن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دعهن فإذا وجب فلا تبكين باكية قالوا : يا رسول الله ، وما الوجوب ؟ قال : إذا مات . فقالت ابنته : والله إني كنت أرجو أن تكون شهيدا ، فإنك قد كنت قضيت جهازك ، فقال رسول الله صلى

الله عليه وآله وسلم : قد أوقع الله أجره على قدر نيته ، وما تعدون الشهادة ، قالوا : القتل في سبيل الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله : المطعون شهيد ، والغريق شهيد ، وصاحب ذات الجنب شهيد ، والمبطون شهيد ، وصاحب الحريق شهيد ، والذي يموت تحت الهدم شهيد ، والمرأة تموت بجمع شهيدة ^(١).

وعبد الله بن ثابت الأنصاري أبو الربيع كفه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قميصه ، وهو غير عبد الله بن ثابت أبو أسيد الأنصاري وبين الحديث سعة فضل الله عز وجل على المسلمين ، وفيه خيبة للذين كفروا ودم لهم للإصرار على الكفر والصدود ، ولييان أن الجنة يدخلها إخوانهم المسلمون ممن أبتلي بالغرق وداء البطن ، والمرأة التي تموت في الطلق وعند الولادة .

الرابعة : إرادة الذين كفروا الترغيب بالقعود ، وبعث حال التراخي بين المسلمين .

الخامسة : سعي الذين كفروا ورؤساء النفاق للإيقاع بين المهاجرين والأنصار ، وفي التنزيل حكاية عنهم وعن وعيدهم للمهاجرين ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ ^(٢).

السادسة : لقد فزع الذين كفروا من إجهاد المسلمين في أدائهم الفرائض والعبادات وحرصهم على طاعة الله والرسول في حال السلم والحرب ، فأرادوا نشر روح الفرقة والشقاق بين

(١) المستدرک علی الصحیحین ٣٢٧/٢.

(٢) سورة المنافقون ٨.

المسلمين وإشاعة الفتنة في بيوتهم ، ففضل الله عز وجل وفصح الذين كفروا وبين سوء قولهم ، وخبث مقصدهم .

فمن إعجاز القرآن تعدد منافع البيان الذي تتضمنه آياته ، قال تعالى ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ ﴾ ^(١) ، لتدل مضامين وغايات الآية القرآنية على أن منافع البيان القرآني وأكثر من أن تحصى في ذاتها ومكانها وزمانها وبركاتها وفيوضاتها وهي متجددة وتوليدية ، وفيه جلب للمصالح ودفع للمفاسد .

لقد كانت نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم رحمة من عند الله لأهل مكة والمدينة والناس جميعاً ، ولكن شطراً من الناس جحدوا بها وقابلوها بالعداء والخصومة وبث روح الشقاق ونشر مفاهيم القعود عما هو مقدمة وبلغة لتحقيق مصاديق الرحمة ، لذا فمن معاني قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الوارد في آية البحث أنهم كفروا بمصاديق الرحمة العظيمة التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله عز وجل .

لتنضم آية البحث في منطوقها ومفهومها دعوة المسلمين والناس جميعاً إلى عدم الإصغاء للذين كفروا وإلى الإحتجاج عليهم وإبطال مغالطاتهم .

وهل تلاوة آية البحث من هذا الإحتجاج ، الجواب نعم ، وهو من إعجاز القرآن وأسرار تلاوته ، وما في بيانه من النفع العاجل والثواب الآجل .

ليكون من مصاديق اسم الإشارة (ذلك) الوارد في آية البحث ما يكون حسرة في قلوب الذين كفروا تلاوة المسلمين والمسلمات لآية البحث .

قانون إكرام المسلمين في كل آية قرآنية^(١)

لقد جعل الله عز وجل القرآن الكلام الحق، والنبأ الصادق في الأرض، وهو حرب على الكذب والتحريف والإفتراء، وواقية دائمة من خلط الحقيقة بالوهم والخيال، وتفضل الله وجعل كل آية قانوناً ومصدراً للقوانين والسنن، وأصلاً للتشريع.

من نعم الله علينا علم التفسير وإجتهد العلماء في تأسيس مدارسه وتثبيت قواعده ليكون ضياء للعلماء، وسبيل هداية للمسلمين والناس جميعاً.

لقد تعددت أبواب العلوم الثابتة في هذا السفر المبارك، وتقدم بيانه في أحد أجزاء التفسير^(٢).

وقد تم في السادس والعشرين بعد المائة تأسيس علم جديد هو قانون : منافع قانون الآية سلاح^(٣).

ونبين هنا علماً جديداً يستقرأ من مضامين كل آية من القرآن، وهو إكرام الله للمسلمين في الآية القرآنية، فكما أفردنا في تفسير كل آية أبواباً متعددة من ذخائر التأويل في كل آية كل فرد منها علم مستقل، ولأول مرة في التاريخ كما تقدم في المقدمة، فقد أسسنا علماً جديداً هنا.

لقد أخبر الله عز وجل عن قانون في الإرادة التكوينية وهو كون المسلمين ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٤)، ويمكن تأسيس قانون وهو شهادة

(١) تمت كتابة هذه السطور بجوار البيت الحرام في مكة المكرمة، في اليوم الثالث من شهر ذي الحجة ١٤٣٦ ليكون تأسيساً لعلم جديد يمكن إضافته إلى أبواب التفسير لكل آية في القرآن، والحمد لله.

(٢) أنظر الجزء الذي يشرح أبواب تفسيرنا هذا.

(٣) أنظر الجزء السادس والعشرين بعد المائة ص ٢٧٤.

(٤) سورة آل عمران ١١٠.

كل آية من القرآن بأن المسلمين (خير أمة) بلحاظ موضوع ومفاهيم ذات الآية القرآنية وعمل المسلمين بأحكامها، ومن الإعجاز في المقام تجلي حقيقة كونهم (خير أمة) في المقام بتلاوة كل مسلم ومسلمة لآيات القرآن في الصلاة الواجبة من جهات:

الأولى : إنتظار أوقات الصلاة فريضة بعد أخرى، وهذا الإنتظار من الكلبي المشكك الذي يكون على مراتب متعددة طويلاً وقصراً في مدته من جهات:

الأولى : من المسلمين من ينتظر وقت الصلاة اللاحقة حالما يخرج من الصلاة صاحبة الوقت كما لو صلى الصبح وخرج بالتسليم منها، فانه يستحضر في الوجود الذهني أن عليه أداء صلاة الظهر.

الثانية : إنتظار المسلم للصلاة عند التذكير بها، وعند سماع آيات القرآن وذكر الله عز وجل للتبادر والملازمة بين الذكر والصلاة.

الثالثة : يستحضر المسلم الصلاة التالية في وقتها عند الإبتلاء والشدة والمصيبة، وهل هو من مصاديق قوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١)، الجواب نعم، بتقريب أن الإسترجاع ذكر لله وطريق لإستحضار الصلاة وما فيها من مظاهر العبودية والخضوع لله عز وجل.

الرابعة : إستحضار الصلاة عند الشوق إليها، وميل النفس والجوارح للوقوف بين يدي الله عز وجل بخضوع وخشوع، وهو من أسرار نفخ الروح من عند الله في آدم لتتوارث ذريته الإقرار بمقام الربوبية.

الخامسة : تجلي معاني العبادة والطاعة لله عز وجل بالصلاة، وهي خير محض، وسبب لإستدامة الحياة في الأرض ، ويؤدي المسلمون

الصلاة اليومية في أوقاتها، فيصرف الله عز وجل الفناء عن الناس، ويتفضل برزقهم رزقاً كريماً، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١).

السادسة : تفضل الله بتذكير المسلم الفرد والجماعة بالصلاة وأحكامها وأفعالها، وما يبعث الرغبة في نفوسهم على أدائها، وليس من حصر لأسباب وسبل هذا التذكير، وهي على أقسام:

أولاً : الجدال والاحتجاج بخصوص الصلاة.

ثانياً : مناجاة المسلمين وتعاونهم في إتقان كيفية أداء الصلاة.

ثالثاً : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في باب الصلاة، وهو صفحة مشرقة تتجدد كل ساعة في حياة المسلمين، ومن الآيات أنه لا يختص بمراتب وقواعد المعاملة في الأبوة والبنوة، وإنقياد التابع للمتبوع، والمروءوس للرئيس، فقد يصدر الأمر بالمعروف من الأدنى إلى الأعلى، من غير أن يحمل صفة الأمر والعلو والإستعلاء، ويأتي النهي عن المنكر من قبل الابن لأبيه أو أمه، ومن التابع والمروءوس لمن هو أعلى منه، ويقدر على إيدائه، لذا لا بد من مراعاة الحال وأحكام التقية مع الجمع بين الأمر والنهي من جهة وبين السلامة والأمن من الضرر، ولو دار الأمر بينهما ففيه وجوه:

أولاً : إختيار السلامة مطلقاً ، وفي كل الأحوال وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الخاص بالمسألة التي يأتي منها الضرر عند الأمر بها أو النهي عنها ، لما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (لا ضرر ولا ضرار في الإسلام)^(٢).

(١) سورة الذاريات ٥٦.

(٢) تفسير الرازي ١/٦.

ثانياً : التفصيل ، وهو القيام بالأمر بالمعروف والدلالة على الخير النهي عن عما ورد تقييحه في الكتاب والسنة مع احتمال الأذى القليل ، وتركه عند رجحان مجئ الضرر الشديد للذي يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو متعلقه كما لو نهى عن السرقة فرموه بفرية أو نهى عن شرب الخمر فأدى هذا النهي إلى التعدي عليه وعلى بعض من متعلقه.

ثالثاً : إعطاء الأولوية للأجر والثواب في الأمر والنهي ، والتوكل على الله رجاء دفع الأذى والضرر .

وكم من مؤمن قال كلمة حق عند حاكم جائر فاستمع له ولم يبطش به ، وربما شكره وأثنى عليه وأعطاه جائزة وهدية للملازمة بين تولي الحكم ودخول فرد إضافي من الرحمة لقلب الحاكم ينزجر بها عن المحرمات وأسباب الهتك ولو على نحو الموجبة الجزئية ، ولا يعني هذا الفرد النادر لزوم قول الحق عند الحاكم الجائر ، إذ يمتنع الوجوب مع أدنى احتمال للضرر المعتد به .

رابعاً : الإطلاق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل الأحوال وأشدها مع رجحان الضرر ، وقربه من الأمر بالمعروف أو الناهي عن المنكر أو القائم بهما معاً في أن واحد ، وهذا القيام من أسرار إجتماعهما في القرآن بقوله تعالى ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١) .

ليتجلى في الآية أعلاه تقسيم القانون محل البحث ، وهو قانون إكرام المسلمين إلى أقسام:

أولاً : تضمن الآية القرآنية في منطوقها المدح للمسلمين مجتمعين ومتفرقين ، بموضوع الآية أو لغة الخطاب فيها ، فان قلت قد تأتي الآية

القرآنية نداء لأهل الكتاب أو خطاباً للذين كفروا يتضمن ذمهم وتوبيخهم .

والجواب حتى هذه الخطابات تفيد في مفهومها الثناء على المسلمين لإختيارهم جادة الهدى والصواب.

ثانياً : دلالة ما في الآية القرآنية من الأحكام على إكرام المسلمين والثناء عليهم ، وهذا الثناء من جهات:

الأولى : تعاهد المسلمين لنص أحكام الآية القرآنية من غير تبديل وتحريف وإن تقادمت السنين وتعاقبت الأجيال ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُزَلِّلُ الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾^(١).

الثانية : قراءة المسلمين مجتمعين ومتفرقين كل يوم لأحكام الآية القرآنية ، وليس من قانون أو تشريع يقرأه الناس معشار قراءة المسلمين لأحكام القرآن وتدبرهم فيها ، إذ تختص قراءة الدساتير والقوانين بأهل الاختصاص ، أما آيات الأحكام فيتلوها كل مسلم ومسلمة ، ليحيطوا بالأحكام في الجملة ، ويصبح المسلم والمسلمة قادرين على الفصل والتمييز بين الحكم السماوي الوارد في القرآن وبين غيره من الأحكام الوضعية.

الثالثة : بيان المسلمين لأحكام الآية القرآنية بعضهم لبعض وللناس جميعاً ، وهو من مصاديق خروجهم للناس بقوله تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾^(٢) ، وهل تلاوة المسلم للآية القرآنية في الصلاة وخارجها من هذا البيان الجواب نعم ، وهو من أسرار وجوب تلاوة المسلمين للقرآن في الصلاة .

(١) سورة الحجر ٩.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

فاذا كانت الآية القرآنية تتلى كل يوم في الصلاة، تكون الصلاة إعلاناً للأحكام ودعوة للعمل بمضامينها، وإنذاراً من مخالفتها، وزاجراً للقارئ والسامع عن الإعراض عن الحكم الوارد في الآية القرآنية، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(١).

ثالثاً : عمل المسلمين بأحكام الآية القرآنية ، ومن الإعجاز في الأحكام الواردة في الآية القرآنية أن تقيد المسلمين بأدائها وسننها سبب لثناء الناس جميعاً عليهم ، وهو واقية لهم وزاجر للذين كفروا عن التعدي عليهم ، ومن مصاديق قوله تعالى ﴿سَنُقَلِّبُ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾.

فان قلت : إن عمل المسلمين بمضامين الآية القرآنية لا يدخل في علم التفسير ، والجواب لا دليل على هذا القول لذا أفرد علم خاص لأسباب نزول الآية القرآنية ، ويتعلق موضوع هذا القانون بإكرام الآية القرآنية للمسلمين ، ومن إكرامها لهم أنها تجذبهم لسنن التقوى ، وتبعث على العمل بأحكام ذات الآية إذ يبدأ التقيد بالتقوى الذي يترشح عن ذات الآية القرآنية بالعمل بأحكامها.

رابعاً : من خصائص الآية القرآنية أنها تدعو القارئ والسامع لها للتدبر في معانيها والعمل بأحكامها ، فاذا سمع الإنسان قوله تعالى ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢) ففيه مسائل :

الأولى : ميل النفس إلى فعل الإحسان .

الثانية : إدراك حقيقة وهي أن تعاهد الإحسان محبوب ذاتاً .

الثالثة : قراءة أو سماع الآية أعلاه واقية من الشح والبخل ، وهو من إعجاز الآية الغيري وتهذيبها للنفوس .

(١) سورة العنكبوت ٤٥.

(٢) سورة البقرة ١٩٥.

الرابعة : الآية حرز من لوم الغير للمحسن على فعله الخيرات،
بمعنى أن الآية أعلاه تدعو الإنسان لأمر :

أولاً : أحسن وإفعل المعروف.

ثانياً : أدعو الناس إلى الإحسان .

ثالثاً : هيئ مقدمات الإحسان .

رابعاً : أشكر المحسن سواء كان إحسانه لك أو لغيرك ، نعم الشكر
على الإحسان للذات أكثر وأبلغ وأولى ، وثبت في علم الأصول أن
شكر المنعم واجب.

خامساً : لا تمنع الإحسان.

سادساً : إجتنب أن تحسد المحسن .

سابعاً : إسأل الله عز وجل أن تحسن وأن تكون من المحسنين .

الخامسة : بيان قانون وهو حب الله للمحسن ، وأن الذي يراف
بالناس ، ويمد لهم يد العون والمساعدة يكون محبوباً عند الله .

وعن ابن عمر قال (قيل : يا رسول الله أي العباد أحب إلى الله
قال : أنفع الناس للناس .

قيل فأبي العمل أفضل . قال : إدخال السرور على قلب المؤمن قيل
وما سرور المؤمن قال : إشباع جوعته وتنفيس كربته وقضاء دينه ومن
مشى مع أخيه في حاجته كان كصيام شهر واعتكافه ومن مشى مع
مظلوم يعينه ثبت الله قدميه يوم تزل الأقدام ، ومن كف غضبه ستر الله
عورته وإن الخلق السوء يفسد الأعمال كما يفسد الخل العسل)^(١).

السادسة : إرادة الإطلاق في الجهة التي يتوجه إليها الإحسان سواء
كان براً أو فاجراً.

السابعة : من مصاديق الإحسان ما كان للذات ، ومنه التقيد
بالإحكام الشرعية ، وترك المعصية والجحود .

الثامنة : إرادة قصد القربة في الإحسان لنيل الأجر والثواب عليه .

التاسعة : قوله تعالى ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ أمر ينحل إلى أقسام :

أولاً : توجه الأمر إلى الأمة والطائفة بالإحسان .

ثانياً : دعوة الفرد من المسلمين ذكراً أو أنثى إلى الإحسان ، وتقدير الآية للمفرد المذكر : وأحسن إن الله يحب المحسنين ، وللمفردة المؤنثة : أحسنني إن الله يحب المحسنات .

ثالثاً : دعوة الفرد والجماعة والأمة إلى الإحسان في الموضوع المتحد والمتعدد .

العاشرة : في أسباب نزول الآية أعلاه ورد عن الضحاك بن أبي جبيرة قال (كانت الأنصار يعطون ويتصدقون ، فأصابته سنة ، فأمسكوا ، فأنزل الله عز وجل : (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين)^(١))^(٢) .

وعن أسلم أبو عمران ، مولى لكندة قال : « كنا بمدينة الروم ، فأخرجوا إلينا صفا عظيماً ، من الروم ، وخرج إليهم مثله ، أو أكثر ، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم ، حتى دخل فيهم ، فصاح به الناس ، وقالوا : سبحان الله تلقي بيدك إلى التهلكة ، فقام أبو أيوب الأنصاري .

فقال : أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية ، على هذا التأويل ، إنما نزلت هذه الآية ، فينا معشر الأنصار إنما أعز الله الإسلام ، وكثر ناصره ، قلنا بعضنا لبعض سرا ، من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن أموالنا قد ضاعت ، وإن الله قد أعز الإسلام ، وكثر ناصره ، فلو أقمنا في أموالنا ، فأصلحنا ما ضاع منا ، فأنزل الله على نبيه صلى

(١) سورة البقرة ١٩٥ .

(٢) المعجم الأوسط للطبراني ٤١٠/١٢ .

الله عليه وآله وسلم ، يرد علينا ما قلنا (وأنفقوا في سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) ^(١) ، فكانت التهلكة الإقامة في أموالنا ، وإصلاحها ، وتركنا الغزو ، قال: وما زال أبو أيوب شاخصاً ، في سبيل الله ، حتى دفن بأرض الروم ^(٢).

الحادية عشرة : لما إحتج الملائكة على جعل الإنسان خليفة في الأرض لأنه ﴿يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ تفضل الله عز وجل وأخبرهم بصيغة الإحتجاج والبرهان ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ^(٣).

ومن فضل الله بلحاظ آية الإحسان هذه أمور :
أولاً : الإحسان ضد للفساد ، وإزاحة له من المجتمعات .
ثانياً : العزم على الإحسان حرب على الفساد ، وبرزخ دون وقوعه.

ثالثاً : من معاني ورشحات قوله تعالى ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ^(٤) إفشاء مبدأ الشورى بين المسلمين في وجوه الإحسان وكيفية الإنفاق ومقداره وجهته ، وفيه إشاعة لمعاني الصلاح ونبذ للفساد ومن يسعى في الإحسان للآخرين يتورع ويتجنب سفك الدماء .
الثانية عشرة : بعث المسلمين لإخراج الزكاة والحقوق الشرعية ، ودفعها لمستحقيها لأنه من الإحسان من وجوه :

(١) سورة البقرة ١٩٥.

(٢) صحيح ابن حبان ٤٣٧/١٩.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

(٤) سورة البقرة ١٩٥.

الأول : الإحسان للذات بأداء الفريضة ، قال تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾^(١) ومن يحرص على أداء الفرائض ويخرج المال قربة إلى الله تعالى يحرص على التنزه عن الإساءة للآخرين مطلقاً.

الثاني : إعانة الفقير والمحتاج ، وإدخال السرور إلى القلوب المنكسرة.

الثالث : في إخراج المؤمن الزكاة إحسان للناس جميعاً لما فيه من تعظيم لشعائر الله ، والدعوة إلى البر والمعروف والتأسي بال صالحين ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرُ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾^(٢) ، وفي الزكاة أطراف:

الأول : دافع الزكاة الذي يبلغ ماله النصاب، وتعلق به الصدقة الواجبة.

الثاني : مقدار الزكاة.

الثالث : مستحق الزكاة.

ومن الإعجاز في الشريعة الإسلامية أن الأفراد والجهات التي تنتفع من الزكاة ودفعها أكثر من أطراف الزكاة لأنها نوع صرح في الإحسان والإنفاق يتقوم بالإيمان وقصد القربة.

ولا يختص الإنفاق والإحسان في باب الصدقات بما هو واجب منها فيشمل المستحب والمندوب منها، وأيهما أكثر أفراداً الإحسان بالمال والصدقات أم غيرها مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والنصيحة وصلة الرحم وحسن الجوار وعيادة المريض وإصلاح ذات البين ، والعفو ، وفي التنزيل ﴿وَسَأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾^(٣).

(١) سورة البقرة ٤٣.

(٢) سورة الحج ٣٢.

(٣) سورة البقرة ٢١٩.

الجواب هو الثاني لأنه يتعلق بكل مكلف ، وتحضر مصاديقه في البيت والمسجد والسوق وميدان العمل .

وبين الإحسان والصدقات عموم وخصوص مطلق ، من جهات :
الأولى : ذات الموضوع إذ تتعلق الزكاة بالغلات الأربعة (الحنطة والشعير والتمر والزبيب ومما يكال ويدخر وبلغ نصاباً .

والأنعام كالأبل والبقر والغنم السائمة التي ترعى فيما أنبت الله عز وجل ، وليس من الراعية التي ترعى فيما زرعه الإنسان .

كما تتعلق الزكاة بالنقدين الذهب والفضة المسكوكين ، والمختار دخول العملة الورقية بزكاة النقدين لأنها بديل لهما ، أما بالنسبة لمواضيع الإحسان فهي متعددة ، وليس لها حصر من جهة الذات والمناسبة والمورد .

الثانية : سنخية الإحسان ، وعدم تقييده موضوعاً وقولاً وفعللاً ومكاناً وزماناً وكيفية .

الثالثة : قدرة كل إنسان على الإحسان للذات والغير ، وهو من أسرار خلافة الإنسان في الأرض من وجوه :

أولاً : قيام الإنسان بالإحسان .

ثانياً : صيرورة الإنسان سبباً للإحسان وداعياً إليه ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾^(١).

ثالثاً : من الإحسان أن يكون الإنسان واسطة فيه ، ونوع سبيل بين المحسن والمحسن إليه .

رابعاً : تلقي الإحسان والثناء عليه .

إذ يدل معنى الخلافة في قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١)، على حاجة الخليفة في ذاته ، وكل ممكن محتاج وقد تفضل

الله عز وجل وجعل حاجة الناس مجتمعين ومتفرقين إليه سبحانه ،
وتفضل وجعل حاجة الناس بعضهم لبعض ، ليكون موضوع هذه
الحاجة مناسبة للإحسان الطوعي والقهري ، وسبباً للهداية والصالح
ونبذ الفساد ومفاهيم الضلالة.

ومن لا يقدر على الزكاة يستطيع الإحسان إلى الغير بالقول
والفعل ، كما يستطيع الأغنياء الجمع بين ضروب الإحسان وإخراج
الزكاة .

الرابعة : ذات النسبة بين الإحسان والزكاة تكون بين المتلقي
للإحسان والمتلقي للزكاة ، وهي العموم والخصوص المطلق ، إذ يصل
الإحسان إلى كل فرد منهما .

وتختص الزكاة والخمس ونحوهما بالفقراء وذوي الفاقة ، قال
تعالى ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾^(٢) .

ولا يشترط التساوي بين أصناف مستحقي الزكاة في مقدار العطاء ،
وكذا لا يجب التساوي في الإحسان بين الناس ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى
بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾^(٣) ، سواء في الإحسان عامة أو الزكاة والصدقة
خاصة .

ومن الآيات تلاوة كل مسلم ومسلمة عدة مرات في اليوم والليلة
قوله تعالى ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾^(٤) ومن مصاديق الصراط الإحسان
ولتحاذه منهاجاً ، ومن إستقامته في المقام تلمس أبواب قصد القرية
ورجاء الثواب ، ليكون على وجوه :

(١) سورة البقرة ٣٠ .

(٢) سورة التوبة ٦٠ .

(٣) سورة الأنفال ٧٥ .

(٤) سورة الفاتحة ٦ .

الأول : ذات الإحسان صراط وتهذيب للنفوس ، وفيه طرد للكدورات وأسباب الغضاضة .

الثاني : الإحسان مقدمة لأفراد منه بلحاظ توالي فعل الإحسان من ذات الفرد والجماعة وصيرورته ملكة أو أنه مقدمة لصدور الإحسان من الغير محاكاة للمحسن .

الثالث : عاقبة الإحسان إستقامة ، لأنه من سنخية الصلاح موضوعاً وبلغة وغاية .

الرابع : في الإحسان قهر للنفس الشهوية والغضبية ، وبذل للجهد وإنفاق للمال طلباً لمصلحة الغير ، ودفع للمفسدة عنه ، وهل في هذا الإحسان دفع للمفسدة عن الذات .

الجواب نعم ، لأنه سبيل لنزع الغل من الصدور ، كما أنه باب للثواب واكتناز الحسنات .

ويمكن تأسيس قانون إسمه (الإحسان يجلب الحسنات)
والحسنة كنز نافع للإنسان في الدنيا والآخرة ، قال تعالى ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(١) .

ويمكن تسمية الدنيا (دار الإحسان) بلحاظ تعدد موارد البر والصدق ، وهل كظم الغيظ من الإحسان كما في بيان صفات المتقين في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِبِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢) .

الجواب نعم ، فمن الإعجاز في الآية أعلاه أن كل فرد منها إحسان محض وخير للذات والغير من وجوه :
أولاً : الإنفاق والبذل في حال الرخاء والسعة .

(١) سورة الزلزلة ٧ .

(٢) سورة آل عمران ١٣٤ .

ثانياً : الإنفاق من المال في حال الضراء والشدة في البدن ، وتقدير الرزق ، وظهور أمارات تبعث على الخشية مما يطرأ في الغد من المشاق والمصائب ، وقد أمر الله بالإنفاق مطلقاً ومع تباين أحوال الفرد والجماعة ، قال تعالى في الثناء على نفسه ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾^(١).

وهل في الآية أعلاه ترغيب للمؤمن بعمل الصالحات والإحسان والإنفاق في سبيل الله ليزيد الله عز وجل من فضله عليه ، أم أن القدر المتيقن من الآية الإخبار عن علم الله عز وجل بالغيب ، ومنه رزق وسعي كل إنسان .

الجواب هو الأول ، لبيان أن مقادير الأمور بيد الله ولورود الآيات التي تبعث على الإنفاق وتتضمن الوعد عليه بالخير الجزيل ، قال تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَعِجَ سَبَّالٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٢).

ثالثاً : حبس الغضب المترشح عن الأذى والضرر وترك الثأر والانتقام ، وفيه إحسان للذات والغير وحاجب دون الفساد ، فمن معالم كظم الغيظ تقييد الفساد بالأصفاة بعد إطلائته برأسه ، إذ يترشح الغيظ عن الشعور بالغب والظلم ، ومجئ الضرر مع إنعدام المقتضي ، فالذي يقام عليه الحد ثمانين جلدة على معصية تستحقه شرعاً لا يدب الغيظ إلى نفسه ، أما الذي يضرب جلدة واحدة أو يسمع كلمة جارحة بغير حق فانه يغتاظ ويغضب لذا يدل ثناء الله عز وجل على المسلمين بنعتهم بكظم الغيظ بالدلالة التضمنية على صبرهم وتحملهم الأذى في

(١) سورة لقمان ٣٤.

(٢) سورة البقرة ٢٦١.

جنب الله عز وجل ، فتكون الجنة مثوى لهم جزاء ، وفضلاً من عند الله تعالى .

ومن الإعجاز مجئ الإخبار في هذه الآيات عن اللبث الدائم في الجنة للمتقين قبل بيان صفاتهم بقوله تعالى ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ * الَّذِينَ يَتَّقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ ﴿١﴾ .

رابعاً : إختتام الآية أعلاه بالإخبار عن قانون حب الله للمحسنين وما فيه من الترغيب بالإحسان ، والبعث على الإيمان لأنه إحسان محض ، وطريق إلى الإحسان بأداء الواجبات والنوافل وإجتنب المعاصي والذنوب ولما كانت الدنيا دار الإحسان .

ومن أسرار علم إكرام الآية القرآنية للمسلمين أسباب نزول آيات القرآن ، وما فيها من الفخر والعز لهم ، وكيف أن الآية القرآنية تحكي أسبابها وتتضمن البيان في الموضوع والحكم بما ينير مسالك الإيمان .
منها علل الشرائع وتثبيت سنن الأحكام ، ووجوب أداء الفرائض العبادية على نحو الوجوب العيني كما في الصلاة ، وأداء الزكاة عند تحقق النصاب ، وصيام شهر رمضان ، وحج بيت الله مع الإستطاعة .

ومن وجوه حرب الزكاة على الفساد مسائل :
الأولى : إتعاض الفقير من الغني المحسن ، إذ يراه كيف يذل المال في سبيل الله .

الثانية : دعوة الفقير لإصلاح الذات والإحسان إليها .

الثالثة : تطلع الفقير إلى إعانة الغير .

الرابعة : رجاء الفقير السعة في الرزق للناس والخصب ، فينال من البر والإحسان .

الخامسة : حث الفقير على الدعاء للمحسن بالغنى والثروة كي يقوم بإخراج زكاة أمواله ، وسؤال إخراج غيره من الناس الصدقات .

السادسة : دعوة الناس للإقتداء بالمؤمنين الذين يخرجون الزكاة والخمس ، وفيه وجوه :

أولاً : إنه من مصاديق قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ﴾^(١).

ثانياً : القدر المتيقن من الآية أعلاه خصوص الأنبياء .

ثالثاً : إنه من مصاديق الآية ، ولكن بالواسطة بتقريب أن المؤمن يقتدي بالأنبياء في موضوع الإحسان وإخراج الزكاة .

والمختار هو أولاً وثالثاً أعلاه ، وتقدير الآية : فبهدهم وهدي الذين إقتدوا بهم فاقته .

السابعة : إشاعة روح التكافل والتعاون بين الناس ، وتنمية ملكة المودة والأخوة بينهم .

الثامنة : المنع من إزدراء الغني للفقير أو حسد ونقمة الفقير على الغني .

التاسعة : من علل تسمية الإنسان بالإنسان أنه يأنس بغيره ، وهو نوع مفاعلة ، فيكون على وجوه :

أولاً : يأنس الإنسان بغيره من البشر .

ثانياً : يكون عمل الإنسان موضوعاً لإستئناس غيره ورضاه ، بما يقوم به من الإحسان والمعروف ، قال تعالى ﴿حُذِّ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾^(٢).

(١) سورة الأنعام ٩٠.

(٢) سورة الأعراف ١٩٩.

والمراد من العرف في الآية أعلاه وفق الإصطلاح الشرعي المعروف والإحسان ، وليس ما شاع التعارف عليه .

وبين ما تعارف عليه الناس والعادة عموم وخصوص مطلق ويقدم المعروف وي طرح العرف والعادة ، وفيه واقية من النسخ في الحكم الشرعي .

ومن خصائص ﴿خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١) تعاهدها لأحكام الشريعة كما أنزلت على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

ثالثاً : يؤنس بقول وفعل الإنسان من قبل غيره من البشر ومن معاني الإيناس في المقام الإحسان والمبادرة إليه بلحاظ أن ذات المبادرة إحسان مستقل .

لقد بدأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في توزيع الغنائم يوم حنين بالمؤلفة قلوبهم والذين يتصفون بخصال :
الأولى : من كان حديث العهد بالإسلام .
الثانية : ضعيف الإيمان .

الثالثة : الذي وقف عند إظهاره الإسلام ، ولم يهتد قلبه بعد .
ومن الحكمة في تقديم النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم بالعطاء في واقعة مخصوصة هي غنائم حنين وجوه :
أولاً : إرادة تثبيت الإيمان في صدورهم .

ثانياً : إقامة الحجة عليهم بخطأ نهجهم وضلالتهم عندما كانوا يحاربون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

ثالثاً : ترغيبهم والناس جميعاً بالإسلام وأداء الفرائض والعبادات فانها سبيل للرزق الكريم .

رابعاً : المنع من ظهور مكر وخبث دهاة قريش .

خامساً : إرادة دخول الإيمان في قلب من أسلم من رجالات قريش ، وهو من حب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقومه ، وفي التنزيل ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^(١).

والآية أعلاه وإن ورد النص فيها بخصوص شطر من الأعراب لتقييدها بآية أخرى تثني على طائفة منهم ، إلا أن موضوعها ودلالاتها أعم إذ تشمل المؤلفلة قلوبهم الذين أظهروا نوع شماتة بالنبى محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين عندما إنكشفوا في بداية ذات معركة حنين لشدة هجوم هوازن المباغت .

قال ابن إسحاق (فَلَمَّا انْهَزَمَ النَّاسُ وَرَأَى مَنْ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ جُفَاةِ أَهْلِ مَكَّةَ الْهَزِيمَةَ تَكَلَّمَ رَجَالٌ مِنْهُمْ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الضَّغْنِ فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ : لَا تَنْتَهِي هَزِيمَتُهُمْ دُونَ الْبَحْرِ وَإِنْ أَلْزَلَامَ لَمَعَهُ فِي كِنَانَتِهِ .

وَصَرَخَ جَبَلَةُ بْنُ الْحَنْبَلِ قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : كَلَدَةُ بْنُ الْحَنْبَلِ وَهُوَ أَخِيهِ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ مُشْرِكٌ فِي الْمَدَّةِ الَّتِي جَعَلَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَلَا بَطَلَ السَّحَرُ الْيَوْمَ فَقَالَ لَهُ صَفْوَانُ أَسْكَتْ فَضَّ اللَّهُ فَآكَ فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَرِنِّي رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَرِنِّي رَجُلٌ مِنْ هَوَازِنَ)^(٢).

سادساً : تبكيت هوازن وثقيف الذين أصرروا على قتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذ صارت أموالهم بيد حلفائهم بالأمس من قريش الذين بادروا إلى دخول الإسلام يوم الفتح ، وبيان حقيقة وهي

(١) سورة الحجرات ١٤.

(٢) سيرة ابن هشام ٤٤٣/٢.

أولوية دخول هوازن وثقيف الإسلام بعد دخول رجالات قريش للإسلام .

وهل من مصاديق تسمية مكة (أم القرى) إتيان القبائل من حولها لأهل مكة بخصوص الصالحات وإختيار الهداية والإسلام ، الجواب نعم .

سابعاً : منع المؤلفة قلوبهم وأهل مكة عموماً من الخروج على حكم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ودولة الإسلام ، عندما يرجع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة المنورة .

ثامناً : زجر الناس عن التعدي على الإسلام ، وبعث الرعب والفرع في قلوب القبائل بالإعلان بأن قريشاً صاروا جنوداً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

تاسعاً : تسخير كبار رجالات قريش لدعوة الناس للإسلام ، والمنع من محاربة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

عاشرأ : بيان فضل الله عز وجل على قريش ببعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبركات الفتح ، وبعث الندم في نفوسهم على إصرارهم في السنوات السابقة على قتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين .

ولم ينحصر الأمر بالغنائم ، بل قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بجعل بعضهم أمراء في الأمصار وقادة في المعارك .

تتجلى مصاديق الإكرام بابتداء آية البحث بنداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا﴾ وهو كلام الله الذي نزل به جبرئيل على النبي محمد صلى الله عليه وآله ليكون نداءً وخطاباً ومقدمة للعمل موجهاً إلى :

الأول : المؤمنون .

الثاني : المؤمنات .

الثالث : المسلمون .

الرابع : المسلمات .

ولا يختص الخطاب بزمان التنزيل فهو باق إلى يوم القيامة ، يطل على الأرض في كل يوم وليلته كما تشرق عليها الشمس ويدفع ظلمتها القمر ، فان نداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ نور يملأ القلوب ضياء ، ويجعلها في سكينه وبهجة وطمأنينة في ذات يومها وعند النصر في قادم الأيام .
وإذ يصاحب نداء يا أيها الذين آمنوا المسلمين والمسلمات في الحياة الدنيا فهل يصاحبهم في الآخرة ، الجواب نعم ، ولكن تختص مصاحبتهم بالذين آمنوا وسلموا من النفاق ومن الصد عن سبيل الله والحث على القعود أو الشماتة بالشهداء والجرحى من المؤمنين .

ولا يختص الأذى في الخروج للقتال بالشهادة والجراحات ففيه تعطيل للأعمال وفراق للأحبة وهجران الحياة الدعة بين الأهل ، فيتخذ منها المنافقون مناسبة للغمز والتعريض والسخرية من المؤمنين ، وتبين آية البحث أن المنافقين لم يقفوا عند إبطان الكفر ، ولم يحرصوا على إخفائه ، بل أنهم يظهرونه حالما يجدون فرصة مؤاتيه ، فيظهرون معاني الغدر والكيد للدين والمؤمنين ، وفي التنزيل ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾^(١).

لقد كان المنافقون ييشون السموم بكلام معسول ، وإدعاء الإخلاص وموازن الأخوة لقوله تعالى ﴿وَقَالُوا لِلْإِخْوَانِهِمْ﴾ فجاءت آية البحث لفضحهم ، وتنبية المسلمين لسوء طويتهم وخبث مقاصدهم .
ليكون من إعجاز آية البحث أمور :

الأول : معرفة المسلمين لصفات المنافقين .

الثاني : تنزه المنافقين عن الخصال التي تدل على النفاق ، وعن ابن أبي مليكة (أذركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه) ^(١).

الثالث : إعراض المسلمين عن أقوال المنافقين وجدالهم لهم .
وبعد أن أكرم الله عز وجل المسلمين بنداء الإيمان تفضل بإكرامهم بنهيهم وزجرهم عن محاكاة الذين كفروا ويتجلى الإكرام بأمور :
الأول : نزول النهي من عند الله للمسلمين ، وكل ، وكل أمر ونهي نازل من عند الله هو لطف وخبر محض وإكرام وطوبى للذين يتلقون الأوامر والنواهي من الله عز وجل .

الثاني : تقيد المسلمين بأداب النهي عن التشبه بالكفار .
الثالث : تجلي منافع الإمتناع عن التشبه بالذين كفروا والمنافقين وليس من حصر لهذه المنافع التي تترشح على الذات والغير ، فتعم الذين كفروا أيضاً لما فيها من الفضح لفعلهم وتأكيد لؤم سريرتهم .
الرابع : طرد الوهم وسوء الظن بخصوص الخروج للجهاد ، ومنع المسلمين من التردد فيه أو الإبطاء عنه لأنه خير محض ، وفيه النجاة في الدنيا والثواب في الآخرة .

وتبين آيات معركة أحد هذه بطلان قول المنافقين ، وتتضمن الإخبار بأن المسلمين لن يخسروا ، وأن الذين يقتلون في سبيل الله ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ^(٢).

الخامس : إخبار آية البحث بأن الله عز وجل يحارب الذين كفروا ويرميهم بالحسرة ويجعل قلوبهم تمتلاً ندامة ، وهل يمكن تسمية الدنيا (دار الحسرة) .

(١) صحيح البخاري ٩٣/١.

(٢) سورة آل عمران ١٦٩.

الجواب لا ، فهذه الحسرة عرضية ، وهي خاصة بالذين كفروا لسوء إختيارهم ، نعم يمكن التقييد بالتسمية وتسمية الدنيا (دار الحسرة للذين كفروا خاصة) الجواب نعم ، للملازمة بين الكفر والحسرة ، قال تعالى ﴿وَأَنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(١).

وعن أبي سعيد الخدري قال (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار يجاء بالموت كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال : يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ ، فيشرفون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ، ثم يقال يا أهل النار هل تعرفون هذا ؟ .

فيشرفون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ، فيؤمر به فيذبح ، فيقال : يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت » ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : {وأُنذِرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة }^(٢) وأشار بيده وقال: أهل الدنيا في غفلة)^(٣).

السادس : قطع إفتراء وجدال الذين كفروا ، ومغالطة المنافقين ببيان آية البحث لقانون وهو (إن الله يحيي ويميت) فالحياة والموت أمران وجوديان بيد الله عز وجل ومستجيبان لمشيئته ، ولا يستطيع الإنسان دفع الموت عن نفسه ، نعم قد يكون الخروج إلى القتال سبباً للقتل ، ولكن الخروج للدفاع عن الإسلام والتنزيل وشخص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ضد هجوم كفار قريش واجب ، وهو

(١) سورة الحاقة ٥٠.

(٢) سورة مريم ٣٩.

(٣) الدر المنثور ٦/٤٦٤.

لا يقرب أجلاً إنما فيه العز والإكرام للمسلمين وإلى يوم القيامة لذا أختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(١).

إكرام الآية للمسلمين

إبتدأت آية البحث بالنداء من عند الله عز وجل للمسلمين والمسلمات بصفة الإيمان في فضل منه سبحانه على أهل الأرض عامة والمسلمين والمسلمات خاصة ، وفيه ترغيب للناس بدخول الإسلام للفوز بتلقي نداء الكرامة والشهادة بالصلاح من عند الله عز وجل .
لقد صار هذا النداء فيصلاً وفرقاً بين المسلمين والذين كفروا ، فقد هبط آدم إلى الأرض بعد أن أغواه إبليس بالأكل من الشجرة ولكن الله عز وجل لم يترك آدم وزوجته وذريته وشأنهم ، فكانت النبوة والتنزيل مصاحبين لهم .

ثم جاء نداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ليستقر في الأرض إلى يوم القيامة ، وإذا أعطى الله عز وجل فانه يعطي بالآتم والأوفى فكان عدد مرات هذا النداء في القرآن تسعاً وثمانين مرة ، وكل واحدة منها مدرسة بذاتها وموضوعها ومضامين الآية التي تبدأ به ويحل فيها .

وتتعدد وجوه إكرام المسلمين بنداء التشريف هذا من جهات :

الأولى : ذات النداء وحروفه وكلماته ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

الثانية : إبتداء الآية القرآنية بالنداء ، ومجيؤه مرة بأول ورأس الآية وأخرى بذكر الله إكرام إضافي للمسلمين في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾^(٢).

الثالثة : إرادة عموم المسلمين والمسلمات من النداء .

(١) سورة البقرة ٢٦٥.

(٢) سورة الأحزاب ٥٦.

الرابعة : تلقي المسلمين والمسلمات ، وهم في مساكنهم أو في المسجد أو العمل أو السوق بالقبول والرضا .

الخامسة : إنبساط نداء الإيمان على جميع أقطار الأرض لانتشار المسلمين فيها مقيمين ومسافرين .

السادسة : دخول الثواب المترشح عن هذا النداء إلى قبور المسلمين والمسلمات الذين تلوه حين كانوا في الحياة الدنيا ، وعملوا بأحكام الآيات التي ورد فيها وسعيهم في جعل نداء الإكرام تركة لمن بعدهم من وجوه :

أولاً : تلاوة النداء بصيغة القرآنية .

ثانياً : العمل بأحكام هذا النداء ليس فقط بخصوص مضامين الآية التي جاء بها ، بل بما يترشح عن هذا النداء من وجوب تعاهد الإيمان ، والإقرار بأن هذا النداء مدد وعون من عند الله عز وجل للمسلمين مجتمعين ومتفرقين .

ثالثاً : حرص المسلم على عدم مغادرة الدنيا حتى يعمل ولده بمضامين نداء الإكرام ليكون في عمل الولد هذا إكرام للأب في حياته وبشارة له بالأجر والثواب في الآخرة .

رابعاً : محاكاة الأبناء للأباء بالعمل بمضامين نداء الإكرام ، ومنها إجتناّب التشبه بالذين كفروا في صدودهم وعنادهم وضلالتهم .

السابعة : صيرورة نداء الإكرام مناسبة ووسيلة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين المسلمين وتوجههم إلى غيرهم بالترغيب بالإيمان وفعل الصالحات والزجر عن السيئات والمعاصي ، ليكون من إعجاز آية البحث عدم إنحصار موضوعها بالنهي عن تقليد الذين كفروا في صدهم عن سبيل الله ، بل تتضمن دعوة الذين كفروا إلى أمور :

أولاً : التوبة النصوح ، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : ارحموا تُرحموا ، واغفروا يُغفر لكم . ويل لأقماع القول

يعني الآذان ، ويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون^(١) .

وليس من كبيرة مع التوبة ولا صغيرة مع الإصرار ، لذا فان قول الذين كفروا الذي تذكره آية البحث ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ كبيرة وإصرارهم عليه معصية يجب الكف عنها والثوبة منها ، إذ أن عاقبتها هي الخلود في النار ، قال تعالى ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَكَسَبَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾^(٢) .

فإن قلت لم تأت الآية بصيغة المضارع التي تدل على الإستدامة والتجدد بل جاءت بصيغة الماضي الذي يدل على الإنقضاء ، والجواب إن ذكر قولهم بآيات القرآن ولغة الجمع شاهد على إصرارهم عليه .

ثانياً : دخول الإسلام ونصرة النبي محمد صلى الله وآله وسلم .

ثالثاً : محاربة الذين كفروا الذين يأتون من مكة بقصد الإغارة وإرادة الإجهاز على حوزة الإسلام ، وبيضة الهدى والإيمان .

ويتساءل الناس في كل جيل وإلى يوم القيامة عن سر محاربة قريش للإسلام مع تجلي معجزات نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم العقلية والحسية ، ومع أنهم عشيرته وأهله ، فجاء القرآن ببيان الجواب على هذا التساوي بوجوه يصعب إحصاؤها ، ففي كل آية من القرآن أجوبة متعددة على هذا التساؤل ، ومنها آية البحث من جهات :

(١) الدر المنثور ٢/٤٤١ .

(٢) سورة النساء ١٧-١٨ .

الأولى : دلالة نداء يا ايها الذين آمنوا ونهي الله عز وجل لهم عن التشبه بالذين كفروا على أمور :

اولاً : وجود آفة الكفر بين الناس .

ثانياً : إصرار فريق من الناس على الصدود عن النبوة والتنزيل .

ثالثاً : سعي الكفار لإضعاف الإسلام وقعود المؤمنين عن الجهاد ، في ذات الوقت الذي تأتي جيوش الذين كفروا بآلاف مؤلفة للإجهاز على الإسلام .

رابعاً : حاجة المسلمين للنهي عن محاكاة الذين كفروا ، ونزول هذا النهي من عند الله عز وجل .

الثانية : هجرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من مكة إلى يثرب وهي المدينة المنورة بعد أن ازداد أذى الكفار له ولأهل بيته وأصحابه ، وإرادتهم قتله غيلة في فراشه .

فان قلت بإمكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يجتنب المبيت في فراشه في تلك الليلة التي أرادوا فيها إغتياله ويبقى في مكة ولا يغادرها ، إذ بات الإمام علي عليه السلام في فراشه وأمره برد الودائع إلى أهلها .

والجواب إن محاولة قتل النبي في فراشه دليل على عزمهم قتله في الليل أو النهار خاصة وأنهم إتفقوا على العمل برأي أبي جهل بأن يأخذوا من كل قبيلة شاباً ليشاركوا جميعاً بقتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال (والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم تصرمونه بعد ، ما أرى غيره . قالوا : وما هو ؟ قال : نأخذ من كل قبيلة غلاماً شاباً وسيطاً نهذاً ، ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد ، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها ، فلا أظن هذا الحي من

بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها. فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل، واسترحنا وقطعنا عنا أذاه) ^(١).

وفي قوله تعالى ﴿وَأَذِمْ كُرْبِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ^(٢).

ورد عن ابن عباس قال (تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم : إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق - يريدون النبي صلى الله عليه وآله وسلم - وقال بعضهم : بل اقتلوه ، وقال بعضهم : بل أخرجوه . فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك ، فبات علي عليه السلام على فراش النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليه وآله وسلم حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون علياً عليه السلام يحسبونه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فلما أصبحوا ثاروا إليه ، فلما رأوه علياً عليه السلام رد الله مكرهم فقالوا : أين صاحبك هذا؟ قال : لا أدري . . . ! فاقترضوا أثره ، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا في الجبل ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا : لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاث ليال) ^(٣). ومعنا يثبتون : أي يقيدوك ويحبسوك .

ويدل الحديث أعلاه على إرادة كفار قريش المنع التام من زيارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى البيت الحرام وأدائه الصلاة وإخلاقه بالناس سواء بالقتل أو الحبس فتفضل وأمره بالهجرة ليلاقى النصر والتأييد وحسن الإيواء من قبل الأوس والخزرج ، ولكن الذين كفروا لم ينقطعوا أو يتوقفوا عن

(١) تفسير ابن كثير ٤/٤٤٤.

(٢) سورة الأنفال ٣٠.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/٤٤١.

محاولتهم قتله ومنع استمرار نزول آيات القرآن ومنها آيات الأحكام إذ أدركوا بحسهم وخبرتهم ومعرفتهم بأيام العرب وأحوال الناس بأن الإسلام يسفه أحلامهم ، ويأتي على سلطانهم ويقبض عروشهم ، ويسقط هيبتهم عند القبائل ، ويجعل عمار البيت الحرام ينفرون منهم ، لإنكشاف التضاد بين الجار والمجاور ، قال تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾^(١) .

ليان تقوم هذا الوضع بالهداية ولزوم تعاهد الإيمان بعمارته والإقامة بفنائها .

الثالثة : سعي الذين كفروا على نحو دائم للبقاء في مراتب الجاه والسلطان وأن يتولوا الحكم بأنفسهم ، ليتبعوا معه مفاهيم الفساد وعبادة الأوثان ، وأبى الله عز وجل إلا أن تتهيئ أسباب هداية الناس إلى اللبث الدائم في الجنان ، فأراد سبحانه بلوغ أحكام النبوة والتنزيل للناس جميعاً ، فحصل التضاد وأصر الذين كفروا على التشبث في مقامات الرئاسة مع البقاء على الكفر والجحود ، ومع هذا فلم يحاربهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولكنه إستمر بالتبليغ ﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾^(٢) فأفزع الذين كفروا تلقي الناس لدعوته بالقبول وهالتهم أمور :

الأول : سرعة إنتشار الإسلام .

الثاني : تلقي الناس معجزات النبي بالتدبر .

الثالث : تناقل الناس في الحل والسفر آيات القرآن ، وحرصهم على نقلها بالنص لإدراكهم ما يترشح عن معنى ودلالة النص .

(١) سورة آل عمران ٩٦ .

(٢) سورة النحل ١٢٥ .

الرابع : إتصاف أكثر الذين دخلوا الإسلام بأنهم في سن الشباب .

الخامس : توالي نزول آيات القرآن وتضمن السور المكية الإنذار والوعيد للذين كفروا والإطلاق في صيغ الإنذار من جهات :

الأولى : إنذار الذين كفروا فيما يلاقونهم من الأذى والضرر والعذاب في الحياة الدنيا ، قال تعالى ﴿وَيُلْكَلُّ هُمْزَةً لَمَزَةً﴾ * الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴿^(١) .

الثانية : مباغته الموت للإنسان ، قال تعالى ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ * وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿^(٢) .

الرابعة : شدة عذاب الذين كفروا وخلودهم في الجحيم ، قال تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ * نَارُ حَامِيَةٍ ﴿^(٣) .

السادس : صبر المسلمين الأوائل على تعذيب وبطش الذين كفروا وموت عدد منهم تحت وطأة التعذيب ، ومن أسباب خزي الذين كفروا على مر تاريخ الإنسانية وما يسمى بحقوق الإنسان هو تعرض النساء للتعذيب بسبب دخولهم الإسلام ، وموت بعضهن تحت التعذيب والتي هي من أوائل الذين دخلوا الإسلام ، ولم يكتفوا بعذاب زوجها وإبنها .

(١) سورة الهمزة ١-٢ .

(٢) سورة الزلزلة ١-٣ .

(٣) سورة القارعة ٨-١١ .

من غايات الآية

في الآية مسائل بلحاظ الغايات السامية ، والمقاصد السامية منها :
الأولى : بعث السكينة في نفوس المسلمين بنزول نداء التشريف والإكرام لهم من عند الله عز وجل ، لقد أراد سبحانه للصحابة من المهاجرين والأنصار الخلود في الوجود الذهني والنطق اللساني عند جميع المسلمين بتلاوة النداء الكريم الذي يخاطبهم به الله عز وجل .
الثانية : التوثيق السماوي لحال المسلمين في بداية الدعوة الإسلامية وكيف أن الأعداء يحيطون بهم من وجوه :

الأول : غزو الذين كفروا لشجر الإسلام المدينة المنورة وإرادتهم قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثاني : سعي المنافقين في تشييط عزائم المؤمنين .

الثالث : قيام الذين كفروا بتحريض عوائل المؤمنين لإرادة صدهم عن الجهاد .

الرابع : كشف آية البحث لضرب من ضروب مكر الذين كفروا ، فقد ورد في القرآن الإخبار عن خبثهم وسوء فعلهم ، قال تعالى ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(١).

لتكون آية البحث من مصاديق الآية أعلاه من وجوه :

الأول : بيان مكر وسعي الذين كفروا الإضرار بالمسلمين .

الثاني : تضمن آية البحث لمكر الله عز وجل بالذين كفروا من

وجوه :

أولاً : تسمية الذين كفروا بنعوت ومعاني إنكار الحق وجحود النعمة .

ثانياً : الجمع بين الذين كفروا والمنافقين بتسميتهم بالأقبح وهو الكفر ، فبين الذين كفروا وبين المنافقين عموم وخصوص مطلق بلحاظ أن الذين كفروا يتلبسون بالكفر ظاهراً وباطناً ، أما المنافقون فانهم يظهرون الإسلام ويطنون الكفر ، فان قلت ما هو الدليل على إرادة المعنى الأعم من لفظ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يتجلى الجواب ببيان القرآن لصفات المنافقين واتحادها مع صفة الذين كفروا في صدّ المسلمين عن الجهاد ، قال تعالى ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرْهُمْ لَا دِيْنَهُمْ﴾^(١).

ثالثاً : نزول المدد والعون للذين آمنوا من عند الله لصيرورتهم في حرز ومأمن من محاكاة الذين كفروا في نهيمهم وصدّهم عن النفير في سبيل الله .

رابعاً : من مكر الله عز وجل نزول آية البحث بفضح الذين كفروا إذ تطاردتهم هذه الآية ، وتتوجه إلى كل مسلم ومسلمة كل يوم لتحثهم على عدم الإصغاء لقول الذين كفروا .

خامساً : من رشحات كشف وفضح فعل الذين كفروا إخبار الناس جميعاً بأن الله عز وجل يعلم ما يقوله المنافقون ، وأنه سبحانه يذكر أقوال الذين كفروا ويوثقها في الكتاب السماوي الباقي إلى يوم القيامة ، سادساً : ذكر الله عز وجل لتفاصيل قول الذين كفروا والجهة التي يتوجه إليها نداؤهم وتحريضهم ، كما ورد في آية البحث ﴿وَقَالُوا

لَاخِرَانَهُمْ﴾.

سابعاً : تفضل الله عز وجل بالرد على الذين كفروا في ذات الآية التي تذكر مكرهم ، وهذا الرد ومحله من مصاديق ومعنى اسم التفضيل في ﴿حَيْزُ الْمَآكِرِينَ﴾ .

فلم تجعل آية البحث المسلمين والمسلمات يحققون ويسعون للبحث في آيات القرآن الأخرى.

الثالثة : من غايات آية البحث ترغيب الناس بالإسلام، بيان القرآن للنداءات والخطابات التشريفية التي خص الله عز وجل بها المسلمين ، فان قلت يشمل نداء (يا أيها الذين آمنوا) المنافقين والمنافقات لأنهم مسلمون على الظاهر والنطق بالشهادتين فكيف يقع الجمع بين هذا المعنى، وإرادتهم من النعت بالكفر في قوله ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ .

والجواب لا مانع من تعدد الخطاب بلحاظ تعدد أفراد الموضوع، ليكون حجة على المنافقين ، وكأن آية البحث تتضمن تخييرهم بين الإيمان والكفر، بين تلقي خطاب التشريف والإكرام، بصفة الإيمان، أو خطاب الذم والتقييح بصفة الكفر والضلالة.

إما أن يكونوا من الذين ينهون عن الخرج للجهاد ، فيلحقهم الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة، وإما أن يتوبوا إلى الله، ويكونوا مع المجاهدين في سوح القتال حيث تتغشاهم أجنحة الملائكة ، ليكون هذا التغشي والمدد في ميدان معركة بدر وأحد وحنين مقدمة ومرآة لتلقي الملائكة للمؤمنين في باب الجنة بالسلاسل ، وما يبعث السعادة والبهجة في النفس.

وأخرج عن الإمام علي عليه السلام قال : يساق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عيان تجريان ، فعمدوا إلى احداهما فشربوا منها

، فذهب ما في بطونهم من أذى وقذى وبأس ، ثم عمدوا إلى الأخرى فتطهروا منها ، فجرت عليهم نضرة النعيم ، فلن تغير أبشارهم بعدها أبداً ولن تشعث أشعارهم كأنما دهنوا بالدهان ، ثم انتهوا إلى خزنة الجنة فقالوا ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾^(١) ، ثم تلقاهم الولدان يطوفون بهم كما يطيف أهل الدنيا بالحميم ، فيقولون : ابشر بما أعد الله لك من الكرامة ، ثم ينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين ، فيقول : قد جاء فلان باسمه الذي يدعى به في الدنيا ، فتقول : أنت رأيته ؟ فيقول : أنا رأيته ، فيستخفها الفرح حتى تقوم على أسكفة بابها ، فإذا انتهى إلى منزله نظر شيئاً من أساس بنيانه فإذا جندل اللؤلؤ فوقه أخضر ، وأصفر ، وأحمر ، من كل لون . ثم رفع رأسه فنظر إلى سقفه فإذا مثل البرق . ولولا أن الله تعالى قدر أنه لا ألم لذهب ببصره^(٢) .

الرابعة : تفقه المسلمين في الدين ، وإرتقاؤهم في سلم المعرفة الإلهية ، بادراك قانون الفصل والتمييز بينهم وبين الذين كفروا ، في عالم الأقوال والأفعال ، ليكون هذا التمييز مقدمة لنصر المسلمين وغلبتهم في ميادين الدفاع ، وإنتشار الإسلام بالحكمة والبرهان طرداً وعكساً ، وتقدير الآية من وجوه :

- أولاً : لا تكونوا كالذين كفروا .
- ثانياً : لا تقولوا كالذين كفروا .
- ثالثاً : لا تفعلوا كالذين كفروا .
- رابعاً : لا تتناجوا كالذين كفروا .

(١) سورة الزمر ٧٣ .

(٢) الدر المنثور ٤٣٨/٨ .

الخامسة : إرادة توثيق أواصر الأخوة بين المسلمين وإظهارهم التعاون والتكافل بينهم، إذ تتضمن آية البحث ترغيب المسلمين بمعاني الأخوة وتدعو إليها من وجوه :

الأول : إشتراك المسلمين جميعاً بالنداء بصفة الإيمان، فقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ينسبط على عدد كل المسلمين والمسلمات ، وإذا مات المسلم هل ينقطع فرد الخطاب المتوجه له أم يبقى حياً غصاً طرياً ، الجواب هو الثاني .

الثاني : سعي المسلمين مجتمعين ومتفرقين للعمل بمضامين النداء. الثالث : يدل مجئ آية البحث بصيغة الجمع في ذات النداء ، وفي النهي (لا تكونوا) على لزوم التعاون والتعاقد بين المسلمين للتقيد بالنهي والمنع الذي تتضمنه الآية.

ترى هل يتعلق موضوع النهي عن التشبيه بالذين كفروا بذاته أم له أثر ونفع، الجواب هو الثاني ، فليس من حصر للمنافع وهي من جهات:

الأولى : نزول النهي عن التشبيه بالذين كفروا من عند الله عز وجل.

الثانية : تفضل الله عز وجل بمخاطبة المسلمين وحثهم على إجتنب التشبه بالذين كفروا.

الثالثة : مصاحبة الأوامر والنواهي الإلهية للمسلمين في حياتهم اليومية.

الرابعة : سلامة المسلمين من تعلق الذنوب بهم ، وما في النهي عن الجهاد والمراقبة من الآثام .

الخامسة : توافد المسلمين إلى ميدان القتال، وإجابتهم للنفير والدعوة إلى الدفاع عن الإسلام والتنزيل، وكان دفاع المسلمين عن التنزيل في بدايات الإسلام من وجوه :

أولاً : الدفاع عن إعجاز آيات القرآن.

ثانياً : بيان صدق نزول القرآن من عند الله عز وجل.

ثالثاً : حفظ المسلمين والمسلمات لآيات القرآن.

رابعاً : تلاوة المسلمين والمسلمات لآيات وسور القرآن في الصلاة

اليومية بالتسليم بأنها كلام الله عز وجل .

لقد استطاع كبار رجالات قريش تجنيد أهل مكة والقبائل ممن حولهم لقتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في معركة أحد ، نعم لم يخرج معهم كل أهل مكة ، ولا عموم أفراد القبائل التي حولها ، فمنهم من إمتنع عن غزو المدينة معهم لتجلي آيات النبوة للناس ، وصيرورة معركة بدر على وجوه :

أولاً : أنه مناسبة للصدود والإعراض عن دعوتهم لقتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين ، ليكون من إعجاز القرآن بيان آية البحث لسعي الذين كفروا لصد المسلمين عن القتال ففضحهم القرآن ، وحال دون ترتب الأثر على سعيهم الخبيث هذا ليتجاضى المسلمون بالدفاع عن الإسلام والمبادرة لملاقاة الذين كفروا ، وفي قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾^(١) ورد عن الربيع وقتادة قالوا (: أن أناساً من المؤمنين لم يشهدوا يوم بدر والذي أعطاهم الله من الفضل ، فكانوا يتمنون أن يروا قتالاً فيقاتلوا ، فسيق إليهم القتال حتى إذا كان بناحية المدينة يوم أحد؛ فأنزل الله { ولقد كنتم تمنون الموت . . . } الآية^(٢).

وقد يقال ورد العتاب في الآية السابقة ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ

التَّقْيِ الْجَمْعَانِ﴾ وفيه مسائل :

(١) سورة آل عمران ١٤٣.

(٢) الدر المنثور ٢/٤٤٧.

الأولى : جاءت الآية أعلاه بصيغة الخطاب لجميع المسلمين بدليل قوله تعالى ﴿تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾ .

الثانية : نسبة التقصير بالتولي إلى إزالال الشيطان .

الثالثة : بعث الآية السابقة في نفوس الذين تولوا وعموم المسلمين باخبارها عن عفو الله عز وجل منهم .

ثانياً : زجر عامة أهل مكة وأفراد القبائل عن نصرة الذين كفروا .
ثالثاً : رمي الذين كفروا بالضعف والوهن ، ليكون من مصاديق قوله تعالى ﴿وَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ ^(١) توالي رشحات النصر مع تقادم الأيام والليالي ، فقد وقعت معركة بدر في السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة المباركة ، وكان النصر في ذات اليوم لأن المعركة إنقضت وفر الذين كفروا في ذات يوم المعركة ، ولكن منافع ومصاديق النصر تتجدد كل يوم بعد المعركة .

ومع هذا فقد جاءت قريش بجيش عرمرم لا عهد لأهل يثرب به ، إذ أشرف عليها ثلاثة آلاف رجل يريدون الإنتقام والبطش ، ترى لماذا لم يشبطهم الله ويبعث الخوف في نفوسهم ، وهم في مكة قبل أن يخرجوا ويمنعهم من المجئ .

الجواب من وجوه :

الأول : إنه من معاني وعمومات الإبتلاء في الحياة الدنيا .

الثاني : إقامة الحجة على الذين كفروا .

الثالث : بيان حقيقة لأجيال المسلمين والناس جميعاً وإلى يوم القيامة وهي أن ثبات سنن الحق في الأرض ، وإقامة العدل يتمان ببذل النفوس والأموال وتحمل الأذى .

وهل من مصاديق قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾^(١) بأن الجهاد بالسيف كان حقاً وضرورة لإقامة دولة التوحيد ، الجواب نعم ، وهو الذي تدل عليه الوقائع والأحداث بعد البعثة النبوية ، إذ رفع الذين كفروا السلاح بوجه الإسلام ، وأنفقوا الأموال الطائلة لتجهيز الجيوش .

الرابع : بيان حاجة الناس لبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وسيادة شريعة وسنن التوحيد .

الخامس : تأكيد صدق إيمان المهاجرين والأنصار وحال طائفة من المنافقين ، وما يترشح عن إبطانهم الكفر من الأذى العام .

السادس : التباين في حال المسلمين وثبات فريق منهم مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وفرار طائفة منهم مع أن الذين فروا مؤمنون وليسوا بمنافقين .

السابع : إرادة الأجر والثواب للمؤمنين وصيرورتهم أسوة حسنة لأجيال المسلمين وفوزهم بالنعيم الدائم في الآخرة .

لقد ورد لفظ (حسرة) في الآية على نحو اللفظ المفرد ، ويحتمل وجوهاً :

الأول : المقصود الفرد الواحد من الحسرة على نحو التعيين .

الثاني : المقصود إرادة التنكير ، وصدق أي فرد من أفراد الحسرة وصرف الطبيعة منه .

الثالث : المقصود اسم الجنس ، ومعنى التعدد في ضروب وسنخية الحسرة .

والصحيح هو الثالث ، لبيان التعدد في وجوه ومعاني الحسرة التي جعلها الله في قلوب الذين كفروا ، لذا وردت الآية بصيغة اسم الإشارة للبعيد (ذلك) .

وفي حال المتعدد من الحسرة في المقام وجوه :
أولاً : يأتي فرد من الحسرة ، ثم تترى أفراد أخرى إضافة لما سبقها من مسمى الحسرة .

ثانياً : يحل كل فرد من الحسرة محل الفرد السابق له .
ثالثاً : تجدد الأسباب المستحدثة للحسرة والأسى والندامة في نفوس الذين كفروا .

والصحيح هو الأول والثالث أعلاه من غير تعارض بينهما إذ تدل الآية على تراكم وتجدد مصاديق الحسرة في قلوب الذين كفروا .
لقد أراد الذين كفروا والمنافقون من أهل المدينة بعث الفرقة والشقاق بين صفوف جيش الصحابة ، ومنع الأنصار من الأوس والخزرج من الخروج إلى القتال نصره للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاصة وأن بيعة العقبة الأولى كانت كبيعة النساء ، والثانية ليس فيها خروج للقتال .

صيغة الجمع في آية البحث

وجاءت الآية بصيغة الأفراد والجمع من جهات:
الأولى : إختصاص صيغة الأفراد بالله عز وجل ، وفيه نكتة وهي شهادة الآية على التوحيد ، ولما ابتدأت الآية بالنداء للمسلمين بصفة الإيمان ، ذكرت اسم الجلالة وصفات الله الحسنى ، وفيه وجوه:

الأول : ورد اسم الجلالة في آية البحث ثلاث مرات ، وفيه أمور:

أولاً : بيان إنفراد الله عز وجل بالربوبية المطلقة .

ثانياً : تنمية ملكة حب الله عز وجل عند المسلمين والمسلمات.

ثالثاً : تجديد ذكر المسلمين لله عز وجل، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(١).

رابعاً : بيان موضوعية كشف مكر الذين كفروا بالتحريض على القعود.

خامساً : إرادة الإخبار عن قانون وهو أن الله عز وجل يدفع شرور الذين كفروا ويطل سحرهم ويمنع المؤمنين من الإنصات لهم في دعوتهم للقعود.

سادساً : كل موضع يرد فيه اسم الجلالة له دلالات خاصة بالإضافة إلى إشتراك المتعدد من ذكره بمضامين وغايات أخرى، وتحتل هذه الدلالات في زمانها ومدة أثرها وجوهاً:
أولاً : إرادة أيام النزول والأسباب التي نزلت بخصوصها آية البحث.

ثانياً : إختصاص مضامين آية البحث بزمن النبوة والصحابة.

ثالثاً : شمول هذه الدلالات ومنافع تعدد ذكر آية البحث لاسم الجلالة للمسلمين والمسلمات في الحياة الدنيا.

رابعاً : إنتفاع الناس جميعاً من ذكر آية البحث لاسم الله عز وجل على نحو متكرر، وهل هذا الإنتفاع من الكلي المتواطئ أو المشكك، الجواب هو الثاني، فالمسلمون أكثر نفعاً من الذين كفروا، ومن الكفار من يصر على العناد والإستكبار، وورد

على لسان نوح في التنزيل ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا
* فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾^(١).

خامساً : إستدامة دلالات وغايات تعدد اسم الجلالة في آية البحث
في الدنيا وعالم البرزخ ويوم القيامة.
والصحيح هو الأخير، وتكون الوجوه الأخرى في طوله، فتكون
للمؤمنين باباً للأجر والثواب، وتكون حجة على الكافر وخزياً
للمنافق.

الثانية : ذكر المسلمين في آية البحث بصيغة الجمع، وفيه
وجوه:

أولاً : إفتتاح الآية بالنداء العام للمسلمين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾
لتكون الآية إنحلالية .

ثانياً : دعوة الناس للإيمان، وتقدير الآية على وجوه:

الأول : يا أيها الناس آمنوا.

الثاني : يا أيها الناس كونوا كالذين آمنوا .

الثالث : لقد تضمنت آية البحث نهى الذين آمنوا عن محاكاة وتقليد
الذين كفروا، ليكون من مفاهيم أول الآية والنداء فيها دعوة الناس
جميعاً ليكونوا مثل المسلمين، ولو أسلموا لما وقع القتال وسالت
الدماء.

الرابع : يا أيها الناس إن المسلم حجة عليكم، وكذا نداء (يا أيها
الذين آمنوا) ولا يتعارض معنى الحجة هنا مع دلالات الترغيب في
الإسلام التي يتضمنها هذا النداء .

ثالثاً : يتضمن نداء الإيمان في أول الآية ترغيب الذين كفروا
بالإسلام وبالضرب في الأرض والجهاد في سبيل الله .

التفسير

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

ورد هذا النداء المبارك تسعاً وثمانين مرة في القرآن ، وفيها مجمعة ومتفرقة إكرام وعز متصل للمسلمين والمسلمات الموجود منهم والمعدوم وإلى يوم القيامة ، ويحتمل الإكرام في المقام من جهة السعة والضيق وجوهاً :

الأول : تعلق الإكرام بأهل البيت والصحابة أوان نزول نداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من عند الله .

الثاني : تغشي الإكرام لكل جيل من المسلمين في زمانهم وأيام حياتهم .

الثالث : المقصود جيل زمان تلاوة آيات القرآن من قبلهم من المسلمين .

الرابع : إرادة أهل زمان تلاوة القرآن من الأحياء والذين يأتون بعدهم من المسلمين .

والمختار هو الرابع أعلاه ، وتقدير الآية (يا أيها الذين آمنوا أمس واليوم وغداً) وفيه إخبار للناس جميعاً عن عظيم منزلة المسلمين ولزوم إكرامهم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

فيغادر المسلم الدنيا لتبقى صلته معها ، وعند أهلها من وجوه :

الوجه الأول : تلقي النداء بصفة الإيمان من عند الله .

الوجه الثاني : عمل المسلم في حياته بمضامين النداء : يا أيها الذين آمنوا الذي هو في معناه على جهات :

الأولى : تعاهد الإيمان والإقرار بالعبودية لله عز وجل ، وتقدير النداء على وجوه :

أولاً : يا أيها الناس آمنوا بالله رباً وإلهاً واحداً .

ثانياً : يا أيها الذين آمنوا ببعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم رسولاً من عند الله عز وجل .

ومن وجوه الثناء على المسلمين في المقام أنهم آمنوا بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم من بين الناس مع أن رسالته لهم جميعاً ومن أجلهم في النشاطين ، وفي التنزيل ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾^(١).

ثالثاً : يا أيها الذين آمنوا بوجوب أداء الصلاة والزكاة والفرائض العبادية الأخرى .

رابعاً : يا أيها الذين آمنوا بالملائكة وأنهم خلق مكرمون ، إذ أن جبرئيل الذي ينزل بالقرآن من رؤساء الملائكة ، وملك الموت عزرائيل من ملائكة الله .

وفي هذا الإيمان إقرار بالصلة والاتصال بين أهل الأرض وأهل السماء ، وبين عالم الدنيا وعالم الآخرة.

خامساً : يا أيها الذين آمنوا بأن نصر الله حق وهو آت .

سادساً : يا أيها الذين آمنوا سارعوا في الخيرات ، واجتنبوا المحرمات .

وعندما إحتج الملائكة على جعل آدم خليفة في الأرض كما ورد في التنزيل ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾^(٢)، أجابهم الله عز وجل ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣) .

(١) سورة الأعراف ١٥٨.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

ومن علمه تعالى في المقام أمور :

الأول : ما تتضمنه آية السياق في رد الله على الملائكة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١) من جهات :

الأولى : وجود أمة مؤمنة في الأرض .

الثانية : تلقي أمة من الناس معجزات النبوة بالتصديق .

الثالثة : بيان قانون من وجوه :

أولاً : ليس كل أهل الأرض مفسدين .

ثانياً : من القتل في الأرض ما يكون بالحق وإستئصالاً للفساد .

ثالثاً : مصاحبة محاربة الفساد لأهل الأرض إلى يوم القيامة ، لذا فمن الإعجاز في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم إستدامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل أحوال الناس .

الرابعة : محاربة الإنسان لفساد أخيه الإنسان ، وكأن الله عز وجل يرد على قول الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٢) بأنه جعل فيها من يحارب الفساد ، ويتنزه عن سفك الدماء إلا بالحق .

الخامسة : حلول أيام من الحياة الدنيا يلتقي فيها الجمعان جمع الإيمان وجمع الكفر ، فتكون بداية وفيصلاً للقضاء على الفساد في الأرض .

السادسة : تبين آية البحث حقيقة وهي أن الفساد الذي يقوم به الإنسان بإغواء من الشيطان ، ولا ينحصر إغواء ووسوسة الشيطان بالذين كفروا ، إنما يعمل على إيقاع الذين آمنوا بالزلة والخطأ بتحريض الذين كفروا وإظهارهم شدة البأس في القتال .

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

ومن الآيات أن المسلمين لم يتولوا أو يفروا على نحو العموم ، ولم يستطع الشيطان إلا إزلال عدد منهم ، ومن علم الله عز وجل تفضله عليهم بالعفو والمغفرة .

السابعة : تبين آية السياق مجئ العفو من عند الله عز وجل ابتداء ، وهو الذي يدعو إلى سؤال المغفرة منه لإختتام آية السياق بثلاثة أسماء من الأسماء الحسنى تدل على اللطف والمغفرة والإمهال منه سبحانه بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^(١).

الثاني : ما تضمنه آية البحث من مصاديق الرد على الملائكة . إذ يرى الملائكة أمة مؤمنة يخاطبها الله بصفة الإيمان ، وينزل النداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في القرآن ليقى يخاطب أجيالها المتعاقبة إلى يوم القيامة .

ليكون من علم الله عز وجل والبرهان خلافة الإنسان في الأرض في المقام بأمور منها :

الأول : نزول النداء بصفة الإيمان .

الثاني : إكرام الله عز وجل للمسلمين بنداء الإيمان .

الثالث : تلقي المسلمين نداء الإيمان بالقبول والشكر لله عز وجل ، ويتجلى هذا الشكر من وجوه :

أولاً : تعاهد آيات القرآن رسماً ونطقاً ومعنى .

ثانياً : تلاوة آيات القرآن .

ثالثاً : العمل بمضمون آيات القرآن .

رابعاً : بقاء نداء يا أيها الذين آمنوا في الأرض إلى يوم القيامة .

خامساً : تقييد أجيال المسلمين المتعاقبة بالأوامر والنواهي التي وردت مع نداء وصيغة الإيمان .

سادساً : الإزدیاد الطردي كل يوم في أعداد المسلمين ، ليكون من أسرار النداء من عند الله بصفة الإيمان البركة والكثرة في المتلقين ، وأعدادهم ، وعملهم بسنن الإيمان .

سابعاً : توارث المسلمين الإيمان وإلى يوم القيامة .

الثانية : إجتهد المسلمين في طاعة الله ورسوله .

الثالثة : قيام المسلم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقصد القربة إلى الله سبحانه .

الرابعة : المناجاة بين المسلمين لحفظ بيضة الإسلام ، وتعاهد أحكام الإيمان ، ومسائل الحلال والحرام .

الخامسة : دفاع المسلمين عن نداء الإيمان ، وبذلهم النفوس والأموال في سبيل الله .

الثالث : دلالات الجمع بين آية البحث وآية السياق مما يكون مصداقاً لقوله تعالى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١) منها :

الأول : مجئ صيغة النداء بالإيمان بعد خبر التولي والفرار لطائفة من المسلمين .

الثاني : خروج المسلمين من القتال وإلتقاء الجمعين بتعاهدهم للإيمان وسنن التقوى .

الثالث : تفضل الله عز وجل بتحذير المسلمين من سنن النفاق فيخيب ظن الشيطان لعدم ترتب الأثر العام على إغوائه للمنافقين وإتباعهم لنهجه وخطوته .

الوجه ثالثاً : من وجوه صلة المسلم مع أهل الدنيا بعد مغادرته لها تسليم نداء يا أيها الذين آمنوا إلى ذريته من بعده من جهات :

الأولى : سلامة النداء من التحريف .

الثانية : بيان المصداق والأسوة بالعمل بمضامين النداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ .

الثالثة : مجئ الثواب للمسلم الميت بعمل المسلمين الأحياء .
وعن سعد بن عباد (أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال اي الصدقة اعجب اليك قال سقي الماء) ^(١) .
وورد الخبر بخصوص الآباء ، ويمكن إفادة العموم في رجاء الأجر والثواب لوحدة الموضوع في تنقيح المناط .

وإستدل الشافعي بقوله تعالى ﴿لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ ^(٢) على أن ثواب القراءة لا يصل الأموات ، وقيل أنه مذهب مالك أيضاً .
ولكن سعي الإنسان أعم من فعله بالذات فيلحقه الثواب بما يتركه إرثاً في ذريته وغيرهم ، وولد الإنسان من سعيه ، لذا ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له) ^(٣) .

وإختلف أصحاب الشافعي في الأمر ، فمنهم من قال بأن ثواب القراءة يصل إلى الميت ، وبوصول الثواب إلى الميت قال أحمد بن حنبل ، وذكر ابن قدامة وجوهاً من الإحتجاج بوصول الثواب ، كما قال بوصول الثواب للميت الحنفية .

ويؤيده قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وأن ولده من كسبه (وقد إستفاضت الروايات بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يدعو لأهل البقيع وشهداء أحد .

(١) السنن الكبرى البيهقي ١٨٥/٤ .

(٢) سورة النجم ٣٩ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤٤٢/١ .

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال : من عمل من المسلمين عن ميت عملاً صالحاً أضعف الله له أجره ، ونفع الله به الميت .

وأخرج عن الشعبي قال : كانت الأنصار إذا مات لهم ميت إختلفوا إلى قبره يقرأون القرآن (١) .

وعن أبي داود في إسناده عن (ابن المبارك عن سليمان التيمي عن أبي عثمان - وليس بالتهدي - عن أبيه عن معقل بن يسار قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « اقرءوا (يس) على موتاكم » (٢) . ورمى ابن القطان الحديث بالإضطراب وجهالة أبي عثمان من رجال سنده .

وقال الدارقطني هذا حديث ضعيف الإسناد مجهول المتن ، ولم يأخذ بتعديل ابن حبان لتساهله بالجرح ، فيؤخذ بجرحه دون تعديله إذا إختص به .

ومنه من فسر الحديث بأن المراد بأن الذي حضرته المنيّة يقرأها لا أن تقرأ عليه ولكنه يتعارض مع الأصل وهو قراءة الحاضر عند الميت ، ومنافع قراءة يس هنا عامة للحي والميت ، ووسيلة مباركة للصبر والمواساة .

ومن الإعجاز في المقام ورود النداء في هذه الآية والنداء السابق سياقاً ونظماً بصيغة النهي والزجر ، إذ ورد في آية البحث بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وورد في النداء السابق ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ (٣) وبين

(١) أبو بكر الخلال / الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٢٩٥/١ .

(٢) سنن أبي داود ١٦٠/٣ .

(٣) سورة آل عمران ١٤٩ .

موضوع الندائين عموم وخصوص من وجه ، فمادة الالتقاء من جهات:

الأولى : إكرام المسلمين بالخطاب والنداء بسنخية الإيمان بين أهل الأرض وإتصاف هذا النداء بالتشريف والشهادة لهم من عند الله بالإيمان .

الثانية : صبغة القرآنية في كل من الآيتين .

الثالثة : الاتحاد في جهة المخاطب والمتلقي ، وهم المسلمون والمسلمات .

الرابعة : مجئ أحكام قرآنية بعد كل من الخطابين .

الخامسة : تشريف وإكرام المسلمين في كل من الآيتين .

أما مادة الإفتراق فمن جهات:

الأولى : جاء قوله تعالى ﴿إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ بصيغة الجملة الشرطية، أما النداء في هذه الآية فورد بصيغة النهي.

الثانية : موضوع الآية أعلاه عام، أما موضوع هذه الآية فيتعلق بمحاكاة الذين كفروا بقول مخصوص، وإن كان العام يستقرأ من النهي عن التشبه بالكفار.

الثالثة : طاعة الذين كفروا سبب للإرتداد، اما القول الذي تذكره هذه الآية فلا يصل إلى الإرتداد.

الرابعة : موضوع آية (إن تطيعوا) كل خطاب للمسلمين ، أما آية البحث فانها تتضمن الإخبار عن رمي الذين كفروا بالحسرة في قلوبهم، وإن كانت آية لا تطيعوا سبباً لإلقاء الحسرة والأسى في قلوبهم لأن المسلمين يطيعون الله ورسوله ويتقيدون بالنهي الوارد في الآية فلا

يطيعون الذين كفروا، وقد ورد بذات صبغة النداء قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾^(١).

علم المناسبة

لقد تقدم ذات نداء الإيمان في نظم القرآن قبل سبع آيات ، وكان قارئ القرآن على موعد مع هذا النداء المبارك يقابله ويعيد أمام ناظره ويتلوه بعد آيات ذكرت وقائع معركة أحد المفجعة والتي غيرت مجرى تاريخ الإنسانية .

إذ ثبت المسلمون في الميدان واستطاعوا ردّ كبار كفار قريش بغيهم وطغيانهم ، ومن الإعجاز في المقام هو إتحاد موضوع النداء مع التوسعة في آية البحث إذ تعلقّت مضامين الآيات السابقة بواقعة أحد ، وما لاقاه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون فيها من الجراحات والكولم .

ولم يرد هذا النداء بعد في سورة آل عمران إلا في الآية الأخيرة منها بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢)، لبيان حقيقة وهي إنتفاع المسلمين الأمثل من النداء الإلهي لهم بصفة الإيمان .

وورد هذا النداء التشريفي في سورة آل عمران سبع مرات من بين تسع وثمانين مرة عدد مرات وروده في القرآن لبيان أن مضامين هذا النداء لا تختص بأحكام الحلال والحرام بل تشمل أمور الحرب والقتال لأنها أصل للعمل بالأوامر والنواهي الإلهية ، ومقدمة لإقامة حكم الله

(١) سورة محمد ٣٣.

(٢) سورة آل عمران ٢٠٠.

في الأرض وهو مقدمة ليحكم النبي محمد صلى الله عليه وآله والمسلمون بين الناس والقبائل والأفراد بالحق .

قوله تعالى ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾

لقد إبتدأت آية البحث بصيغة الإيمان لتكون واقية من محاكاة الذين كفروا التي تتضمنها هذه الآية ، فليس من فاصلة بين صفة الإيمان التي إبتدأت بها هذه الآية وبين النهي عن المشابهة والتمثيل للذين كفروا ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾^(١) .

لقد بين القرآن أحكام الحلال والحرام والأوامر والنواهي .
ومن الإعجاز في آية البحث ورود النهي فيها بعد الثناء على المسلمين ، ومن خصائصه أمور :

الأول : بعث السكينة والطمأنينة في نفوس المسلمين بأنهم قادرون على الإمتناع والإحتراز من طاعة الذين كفروا .

الثاني : تذكير المسلمين كل يوم خمس مرات بإيمانهم ، وما يترشح عنه من الأحكام والآداب ، ومنها العصمة من محاكاة الذين كفروا في الصدود عن النفير .

الثالث : بيان قانون وهو لزوم تعاهد المسلمين لمراتب الإيمان التي خصهم الله عز وجل بها ، إذ أنه أمانة الله عز وجل في الأرض ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾^(٢) .

ومن الإعجاز أن حمل المسلمين لأمانة الإيمان يتم بفضل ومدد وعون من عند الله عز وجل ، ومنه آية البحث التي تخاطبهم بصيغة

(١) سورة البقرة ١٨٣ .

(٢) سورة الأحزاب ٧٢ .

الإيمان ، وتبين لهم قانوناً وهو عدم إحصار التباين والتضاد بينهم وبين الذين كفروا بالإعتقاد والملة ، بل يشمل عالم الأقوال والأفعال .

الرابع : بيان أهلية المسلمين للعصمة من التشبيه بالكفار في الصدود عن البذل في سبيل الله .

الخامس : البشارة بطاعة المسلمين لله عز وجل في إجتنا ما نهى عنه من التشبه بالذين كفروا .

السادس : نيل المسلمين لفضل الله والثواب من عنده تعالى على طاعته والإمتثال لأوامره ونواهيه بدليل الوعد الكريم في خاتمة قوله تعالى ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ^{(١)(٢)} .

السابع : سلامة المسلمين مجتمعين ومتفرقين من داء ومرض القلوب ، ومن الحسرة التي تترتب على الصد والصدود عن الدفاع عن بيضة الإسلام وصيانة الثغور .

وتبين آية البحث وجهاً من وجوه إعجاز القرآن ، وهو الفصل بين المسلمين والذين كفروا في مقدمات وآثار القتال ، ويحمل النهي في الآية على الحرمة والمنع الذي لا يجوز معه الفعل ، فيجب ألا يكون المسلمون مثل الذين كفروا بخصوص القول للمجاهدين وذكر الذين قتلوا في سبيل الله .

ومن الإعجاز في الآية بيانها لوجه التشبيه المنهي عنه فقد تكون هناك وجوه من الشبه أخرى ، فقد يبرز من صفوف المسلمين بعض الشجعان ويطلب المبارزة ، كما حصل في معركة بدر واحد والخنديق ، أو عندهم خطط عامة تستلزم الحيلة والحذر ومقابلتها بخطط وصيغ للدفاع ودفع شر الذين كفروا .

(١) سورة آل عمران ١٣٢ .

(٢) أنظر الجزء الرابع والتسعين الذي جاء خاصاً بتفسير الآية أعلاه .

وورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : (الحرب خدعة) ^(١).

وإبتدأت هذه الآية بنداء الإيمان ثم ذكرت الذين كفروا لبيان الفصل والتمييز بين الفريقين من جهات:

الأولى : إكرام المسلمين بنداء الإيمان.

الثانية : وجوب عدم التشابه والمحاكاة بين المؤمنين والذين كفروا. وهل يختص نهى المسلمين عن التشيد بالكفار بمسألة نهى المؤمنين عن الخروج عن الجهاد، الجواب لا.

إذ ورد النهي على نحو الإطلاق والتقيد من وجهين:

الأول : الإطلاق والنهي العام في النهي عن المحاكاة والتشبه بالذين كفروا كما في قوله تعالى ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

الثاني : التقيد بقوله تعالى ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ بيان النهي الخاص فلم تقل الآية ولا تكونوا كالذين كفروا إذ قالوا) أو الذين قالوا) أو كما قالوا).

بل تضمنت حرف الواو في (وقالوا لإخوانهم) ومعنى الحال كما في قوله ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ ^(٢)، فلا مانع من إجتماع العطف والحالية في الجملة لبيان مسائل :

الأولى : عطف قول الذين كفروا على تلبسهم بالكفر والضلالة.

الثانية : بيان الإثم والمعصية التي إتصف بها الكفار إذ يصرون على الجمع بين الكفر والضلالة وبين إظهار المبرز الخارجي للكفر بسوء القول.

(١) الكشف والبيان للثعلبي ٢٤٢/٦.

(٢) سورة ن ٤٨.

الثالثة : إنذار المسلمين من سنخية الكفر بأن الكفار لا يقفون عند الإقامة على الجحود والعناد بل يحاربون الإسلام بالقول والإفتراء. وسيأتي في الجزء التالي / باب سياق الآيات بيان شذرات من الأسرار في مجي آية البحث بصيغة الجمع.

قوله تعالى ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾

تفيد الواو في قوله ﴿وَقَالُوا﴾ وجوهاً :

الأول : إرادة الحال إذ دخلت في الآية على جملة فعلية ، ويجوز أن تدخل على جملة إسمية ، أي أنهم حينما أرادوا منع إخوانهم في النسب من الخروج لم يستمعوا لهم ، وفيه أطراف :

أولاً : المانع والناهي عن الخروج في سبيل الله ، ووردت الآية بصيغة الجمع (الذين كفروا) لبيان أن المسألة ليست قضية شخصية أو فردية ، بل تفيد قيام الكفار والمنافقون بحث المؤمنين على القعود بينما صار آلاف من الذين كفروا على بعد بضعة أميال من المدينة ينوون غزوها وإستباحتها ، لذا تفضل الله عز وجل وأخبر عن مكرهم ، وحذر منه.

ثانياً : موضوع المنع ، وهو خروج المؤمنين إلى ميدان القتال دفاعاً عن سنن الإيمان.

ومن وجوه تقدير الآية : كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم بالكفر والضلالة وعبادة الأوثان إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى . وهو من أسرار ذكر الآية للفظ (لإخوانهم) بصيغة الغائب ولم تتحدث بصيغة الحكاية عن الذين كفروا فلم تقل الآية : وقالوا يا إخواننا.

ثالثاً : الذين يتوجه لهم المنع والنهي عن الخروج ، وهم المؤمنون من الأوس والخزرج.

لقد أراد الذين كفروا والمنافقون خروج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمهاجرين وحدهم للقاء العدو، مع أن عدد المهاجرين قليل ، أرادوا بصددهم هذا قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمهاجرين.

وهو من الإعجاز في ثنايا آية البحث بسبر أغوار مقاصد الذين كفروا، ومنعهم من أمور:

أولاً : منع الذين آمنوا من الخروج للجهاد.

ثانياً : ملاقة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لجيوش الذين كفروا بعدد قليل من أهل البيت والمهاجرين.

ثالثاً : إستباحة الذين كفروا المدينة، والبطش والانتقام بذات الأنصار الذين منعهم الذين كفروا من الخروج، وعلى فرض دخول جيش الذين كفروا المدينة بعد قعود الأنصار عن القتال ، ففيه وجوه محتملة :

الأول : قيام الذين كفروا من أهل المدينة باخبار جيش كفار قريش باسماء الأنصار من الأوس والخزرج ويوتهم ومحل وجودهم أو إختفائهم.

الثاني : دفاع الذين كفروا عن المدينة وعن إخوانهم من الأنصار، وهذا الدفاع من أصول ومعاني الأخوة النسبية.

الثالث : شفاعة الذين كفروا للأنصار ، وعدم تعرض الذين كفروا لهم خاصة وأنهم إدّعوا قصدهم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمهاجرين من قريش، في خدعة ومكر ومحاولة لبث الفرقة بين الصحابة ، وإصابتهم بالوهن لذا قال الله تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾^(١).

الرابع : إشتراك الذين كفروا والمنافقين في إستباحة المدينة ، وقتل المؤمنين.

الخامس : تنحي الذين كفروا والمنافقين ، وعدم التدخل عند رؤية جيش الذين كفروا يدخلون المدينة.

السادس : تلقي المنافقين جيش الذين كفروا خارج المدينة، والتصالح معهم، بتسليم الذين آمنوا لهم.

السابع : عدم سماح الذين كفروا والمنافقين لجيش الذين كفروا من دخول وإستباحة المدينة.

والمختار هو الأول والرابع أعلاه، لتكون آية البحث مدداً وضرورة للمسلمين في سلامتهم ونجاتهم من القتل .

الثاني : إرادة واو المعية ، كما في قوله تعالى ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾^(١) لتبين آية البحث إقامة المشركين على الكفر ، وإصرارهم على الجحود وصدور قولهم ونهيبهم لإخوانهم عن الخروج من منازل الكفر التي يقيمون فيها .

تختص الآية السابقة بميدان القتال فذكرت فرقتين في قوله تعالى ﴿يَوْمَ اتَّخَذَ الْأَبْجَعَانِ﴾ فجعلت الآية المسلمين جمعاً ، وجعلت الذين كفروا جمعاً ، وهم كفار قريش الذين جاءوا من مكة المكرمة غازين وبنية القتال والظلم والتعدي .

أما آية البحث فهي أعم في موضوعها إذ تخبر عن حال المسلمين والمسلمات وهم في حال السلم والمهادنة وإن تعلق الأمر بمقدمات وحال الحرب والقتال ، وذكرت الآية فريقين :

الأول : الذين آمنوا لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وتحتمل النسبة بين النداء في آية البحث وصيغة الجملة الخبرية والضمير في ﴿مِنْكُمْ﴾ في الآية السابقة وجوهاً :

أولاً : نسبة العموم والخصوص المطلق ، وأن نداء الإيمان في آية البحث هو الأعم بلحاظ أن المراد من الضمير في قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾ خصوص المسلمين الحاضرين في ميدان معركة أحد أو عامة المسلمين أيام نزول آية البحث .

ثانياً : نسبة العموم والخصوص من وجه ، فهناك مادة للإلتقاء وأخرى للإفتراق .

ثالثاً : نسبة التساوي في لغة الإخبار والنداء في آية البحث والآية السابقة .

والمختار ثالثاً أعلاه ، وهو شاهد على إرادة عموم المسلمين في لغة الإكرام والتأديب لهم وبيان احتمال تجدد ذات الأحوال التي لاقاها المسلمون الأوائل .

الثاني : الذين كفروا إذ ذكرتهم آية البحث على نحو التعيين ، ترى ما المراد من الذين كفروا في آية البحث ، الجواب من وجوه :

أولاً : الذين كفروا بالربوبية المطلقة لله عز وجل ، فجعلوا له أنداداً ووسائط وثنية يتقربون بها زلفى إليه سبحانه .

ثانياً : الذين كفروا بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولم يصدقوا بالمعجزات العقلية والحسية التي جاء بها ، وليس عن نقص في تلك المعجزات فكل واحدة منها تتضمن التحدي للناس وتبين عجزهم

عن الإتيان بمثلهما ، ولكن النقص والعيب في القابل ، كما في قوله تعالى ﴿وَأَنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لَتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾^(١).

الثالث : الذين كفروا بنزول القرآن من عند الله عز وجل ، لقد تفضل الله عز وجل وخاطب الناس وأنزل لهم كلامه بواسطة جبرئيل ، ونزل الملائكة يشيعون آيات القرآن ببهاء وجلال.

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال : لما نزلت سورة الأنعام سبّح رسول الله ثم قال شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق^(٢).
وعن الإمام الصادق عليه السلام : ان سورة الانعام نزلت جملة واحدة وشيعها سبعون ألف ملك حين أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله فعظموها وبجلوها ، فان اسم الله تبارك وتعالى فيها في سبعين موضعاً ، ولو يعلم الناس بما في قرائتها من الفضل ما تركوها^(٣).
وتحمل الآية وجوهاً :

الأول : أحد الذين كفروا قال لعدد وطائفة من المسلمين أقعدوا عن الجهاد تكونوا بأمن وسلامة.

الثاني : صد جماعة من الذين كفروا لطائفة من الذين آمنوا عن الجهاد.

الثالث : قيام جماعة وطائفة من الذين كفروا بتثبيط فرد من الأنصار ، كما لو كان ذا شأن أو أنهم رأوه يستعد للخروج ، أو يقومون بتذكيره بحال بعض الأنصار الذين أسشهدوا.

(١) سورة نوح ٧.

(٢) الإتيان في علوم القرآن ١١١/١.

(٣) البحار ٣٤٨/٨٨.

الرابع : قيام فرد من المنافقين بصد المسلمين عن الخروج للقتال ، كما في رأس النفاق عبد الله بن أبي بن أبي سلول الذي قال وسط الطريق إلى معركة أحد (علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس ^(١)). ترى ما هي النسبة بين نداء رأس النفاق أعلاه ولفظ (إخوانهم) الذي ذكرته آية البحث ، الجواب من جهات :

الأولى : نسبة العموم والخصوص المطلق ، وهو على قسمين :
الأول : المراد من القوم أعم وأكثر من الإخوان ، وقد كان عبد الله بن أبي رئيس الخزرج لذا قصد في قوله قومه من الخزرج .
الثاني : الإخوان أعم لإرادة الأخوة بالنسب وقصد التمييز بينهم وبين المهاجرين .

الثانية : نسبة العموم والخصوص من وجه ، فهناك مادة للإلتقاء وأخرى للإفتراق .

الثالثة : نسبة التساوي بين لفظ (إخوانهم) التي تذكرها آية البحث ، ولفظ الناس الذي ورد في قول عبد الله بن أبي (علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس) .

الرابعة : ليس من صلة ووجوه شبه بين الأمرين .
 والمختار هو الجهة الثانية أعلاه ، فمادة الإلتقاء هو الصد والصدود عن الدفاع عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتنزيل .

أما مادة الإفتراق فان الآية الكريمة تتحدث عن الذين كفروا ، وبينهم وبين المنافقين عموم وخصوص مطلق ، ويتحدث الذين كفروا عن الذين قتلوا من المؤمنين ، بينما كان المنافقون يتناجون بينهم للعودة من الطريق إلى معركة أحد ، من غير أن يخوضوا القتال ، ويدخل هؤلاء

الذين رجعوا مع رأس النفاق مع الذين كفروا في عموم مضامين الآية الكريمة.

الخامس : قيام جماعة من المنافقين بالتحريض على عدم الخروج إلى قتال ومحاربة الذين كفروا، وصد الذين يخرجون.

السادس : قيام عدد من المشركات والمنافقات بالهمس بين العوائل بأن الخروج للقتال والغزو والتجارة سبب للقتل والموت، وأن السلامة في القعود في المدينة ، لذا جاء القرآن بدم المنافقات على نحو الخصوص وتوعدهن بشدة العذاب ، قال تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ﴾^(١).

ترى لماذا ينهى الذين كفروا المسلمين عن التجارة والضرب في الأرض .

الجواب لقد أدرك الذين كفروا أن التجارة وجلب الأموال للمدينة عون للمسلمين في قتالهم وسبب للإنتعاش الإقتصادي في المدينة، وترغب للمسلمين من مكة والقبائل المحيطة بها والأمصار بالقدوم إلى المدينة ، وأخذ الأحكام الشرعية من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتعلم القرآن وآداب الإسلام ، والخروج مع النفير وزيادة عدد المسلمين .

وسياتينا بعد عدة آيات ما يدل على صدور قول الذين كفروا قبل معركة أحد ، وأنهم قاموا بتخويف المؤمنين من الأنصار ، ولكنهم لشدة إيمانهم لم يلتفتوا إلى كلامهم ، لقوله تعالى ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِ هُمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾^(٢) .

(١) سورة التوبة ٦٨.

(٢) سورة آل عمران ١٦٨.

ليكون تقدير آية البحث : كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم أقعدوا معنا فلم يطيعوهم فاستشهدوا في سبيل الله).

ويكون تقدير الآية على وجوه :

أولاً : وقالوا لإخوانهم الذين ضربوا في الأرض فماتوا أقعدوا معنا.

ثانياً : وقالوا لإخوانهم الذين خرجوا للقتال في معركة أحد أقعدوا معنا وأتركوا النفير ، ولكنهم إستجابوا لدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقتلوا ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(١).

ثالثاً : الذين قالوا لإخوانهم الأنصار بعد معركة أحد أقعدوا ولا تكونوا كالذين قلنا لهم أقعدوا فلم يسمعوا كلامنا وقتلوا في معركة أحد ، لبيان الأذى والصدود الذي يلاقيه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في رسالته ودعوته إلى الله عز وجل وما يقصده المنافقون من المكر وإعانة جيش الكفار من داخل المدينة ، لذا توعدهم الله بأشد ضروب العذاب ، قال تعالى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾^(٢).

بحث بلاغي

من ضروب البلاغة والبديع الالتفات ، وهو في اللغة الصرف واللي ، ومنهم من فرق بين اللفت واللي ، فاللفت هو الصرف. واللي هو أن ترمي به إلى الجانب.

(١) سورة آل عمران ١٧٢.

(٢) سورة النساء ١٤٥.

قال ابن منظور ت ٧١١ هجرية (لَفَتَ وجهه عن القوم صَرَفَهُ
والتَفَتَ التفاتاً والتَفَتُ أكثرُ منه وتَلَفَتَ إلى الشيء والتَفَتَ إليه صَرَفَ
وجهه إليه^(١)).

وورد قوله تعالى ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾^(٢)، أي
لا يلتفت برأسه ونظره إلى الوراء فيرى شدة العذاب الذي حلّ بقومه،
وعن ابن عباس في (لا يلتفت منكم) : أي لا يتخلف^(٣).
ولعله مستقراً من خاتمة الآية بالذهاب والبلد الذي أمرهم الله
المغادرة والهجرة إليه وهو بلاد الشام.
وهو لا يتعارض مع المعنى الظاهر للآية بعدم النظر إلى الوراء إذ
أن الالتفات أمر جامع لأمرين :
الأول : لي الرأس أو إستدارة البدن الى جهة الخلف أو اليمين أو
اليسار.

وقد جاء في القرآن بهذا المعنى وجاء بصيغة المجاز كما ورد في
التنزيل حكاية عن فرعون وقومه وردهم على دعوة موسى لهم
للتوحيد ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لَتُلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾^(٤).

الثاني : إقتران لي الوجه بالنظر إلى جهة غير ما يستقبله الإنسان.
أما في الإصطلاح فهو الإنتقال في الخطاب على وجوه :
الأول : الإنتقال في الخطاب من الحاضر إلى خطاب الغائب.
الثاني : الإنتقال من خطاب الغائب إلى خطاب الحاضر.
الثالث : الإنتقال في الخطاب من التكلم عن الذات إلى الغائب.

(١) لسان العرب ٨٤/٢.

(٢) سورة الحجر ٦٥.

(٣) الدر المنثور ٣٣٢/٥.

(٤) سورة يونس ٧٨.

الرابع : الإنتقال في الخطاب من المتكلم ولغة الأنا إلى المخاطب.
الخامس : الإنتقال من جماعة المتكلمين (نحن) إلى المفرد المخاطب (أنت) نحن نستهل هلال شوال وأنت في المسجد.
السادس : الإنتقال من جماعة المتكلمين (نحن) إلى المثني المخاطب (أنتما).

السابع : الإنتقال من جماعة المتكلمين (نحن) وما يدل عليه من سور الموجبة أو السالبة الكلية إلى جماعة المخاطب (أنتم) كما في قوله تعالى ﴿وَأَنَا أَوْلِيَاكُمْ لَعَلِّي هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(١)، ولا يتعارض هنا المعنى مع إحتساب الآية من اللف والنشر.
الثامن : الإنتقال من جماعة المتكلمين (نحن) إلى المفرد المؤنث المخاطب (أنت).

التاسع : الإنتقال من جماعة المتكلمين (نحن) إلى المثني المؤنث المخاطب (أنتما).

العاشر : الإنتقال من جماعة المتكلمين (نحن) في الكلام إلى الجمع المؤنث (أنتن) وما في معناه.

الحادي عشر : الإنتقال من جماعة المتكلمين (نحن) إلى المفرد المتكلم أنا، كما لو قلت : نحن خير أمة وأنا أتعاهد الصلاة بأوقاتها.

الثاني عشر : الإنتقال من صيغة المفرد (أنا) إلى صيغة جماعة المتكلمين (نحن) ما يدل عليه من سور الكلية مثل (جميعنا) (كلنا).

الثالث عشر : الإنتقال من صيغة جماعة المتكلم (نحن) إلى المفرد الغائب (هو) أو اسم مفرد غائب.

الرابع عشر : الإنتقال من صيغة جماعة المتكلمين (نحن) إلى صيغة المثني الغائب (هما) وما يدل عليه.

الخامس عشر : الإنتقال من صيغة جماعة المتكلمين (نحن) أو (أنا) إلى صيغة جماعة الغائبين (هم) أو ما يدل عليه ، كما لو قال الصحابة الذين إصطفوا في ملاقة الذين كفروا يوم أحد ، نحن لاقينا الذين كفروا وهم أي المنافقون إنسحبوا من وسط الطريق إلى المعركة.

السادس عشر : الإنتقال من صيغة المفرد المتكلم (أنا) إلى صيغة المفرد الغائب (هو) وما يدل عليه مثل اسم الإشارة (هذا).
السابع عشر : الإنتقال من صيغة المفرد المتكلم (أنا) إلى صيغة المثني الغائب (هما).

الثامن عشر : الإنتقال من صيغة المفرد المتكلم إلى جماعة الغائبين (هم) أو اسم الإشارة (أولئك) .

التاسع عشر : الإنتقال في صيغة الكلام من المتكلم المفرد (أنا) إلى المفرد المخاطب (أنت).

العشرون : الإنتقال في الكلام من المتكلم المفرد إلى المثني المخاطب (انتما).

الحادي والعشرون : الإنتقال في الكلام من المتكلم المفرد إلى جماعة المذكور (أنتم).

الثاني والعشرون : الإنتقال في الكلام من صيغة المتكلم (انا) وما يدل عليه إلى جماعة الأنثا (أنتن).

الثالث والعشرون : الإنتقال في الكلام بلغة المفرد (أنا) إلى المفردة الموثنة (أنت) أو الحديث عن حالها أو الدعاء لها .

الرابع والعشرون : الإنتقال في الكلام من الكلام عز الذات إلى المفرد المخاطب ، وفي التنزيل بخصوص الملكين هاروت وماروت ﴿وَمَا

يُعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَعْلَمُونَ مِنْهُمَا مَا يَفْرَقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴿١١﴾ .

فقد إنتقل الكلام من الحديث عن الذات إلى المخاطب المفرد إلى جماعة الغائبين ، إي أن الإلتفات لا يختص بالمتحد من الإنتقال في الكلام ، فقد تتعدد ضروب الإنتقال فيه .

الخامس والعشرون : الإنتقال في الكلام من المخاطب المفرد (أنت) إلى الغائب المفرد (هو) .

السادس والعشرون : الإنتقال في الكلام من المخاطب المفرد (أنت) إلى المثني الغائب (هما) أو هذان .

السابع والعشرون : الإنتقال في الكلام من المخاطب المفرد إلى الجمع الغائب (هم) أو هؤلاء (الذين) .

الثامن والعشرون : الإنتقال من المخاطب المفرد إلى المفردة المؤنثة (هي) أو (هذه) (تلك) .

التاسع والعشرون : الإنتقال في الكلام من المخاطب المفرد إلى المثني المؤنث (هما)(هاتان) .

الثلاثون : الإنتقال في الكلام من المخاطب المفرد إلى الجمع المؤنث (هن) (أولات) (هؤلاء) .

الحادي والثلاثون : الإنتقال في الكلام من المثني المخاطب (أنتما) إلى المفرد الغائب (هو) (الذين) .

الثاني والثلاثون : الإنتقال في الكلام من الجمع المخاطب (أنتم) إلى المفرد الغائب (هو) .

الثالث والثلاثون : الإنتقال في الكلام من الجمع المخاطب أنتم إلى المثني الغائب (هما) ، وقال جرير من الوافر

متى كان الخيام بذى طلوح ... سقيت الغيث أيتها الخيام
أتسى يوم تصقل عارضيتها ... بعود بشامة سقى البشام^(١).
الرابع والثلاثون : الإنتقال في الخطاب والكلام من الجمع المخاطب
إلى جماعة الغائبين هم ، هؤلاء ، أولئك .
الخامس والثلاثون : الإنتقال في الخطاب من الغائب المفرد هو أو
هذا ﴿وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْخَطْمَةُ﴾^(٢).

السادس والثلاثون : الإنتقال في الخطاب من الغائب المفرد (هو)
إلى المخاطب المثني المذكر (أنتما).
السابع والثلاثون : الإنتقال في الخطاب من الغائب المفرد (هو) إلى
الجمع المخاطب (أنتم).
الثامن والثلاثون : الإنتقال في الخطاب من الغائب المفرد (هو) إلى
جمع الأناث المخاطب (أنتن).
التاسع والثلاثون : الإنتقال في الكلام من المفرد الغائب (هو)
(هذا) (الذي) إلى ذات المتكلم (أنا) .
الأربعون : الإنتقال في الكلام من الغائب المفرد (هو) (هذا)
الذي إلى الإثنين المتكلمين (أنا) (نحن) بلحاظ أن أقل الجمع إثنين ،
وهو لا يتعارض مع التفصيل والفصل بين الإثنين والجمع الذين يبدأ
بالعدد ثلاثة .

الحادي والأربعون : الإنتقال في الكلام من الغائب المفرد إلى
جماعة المتكلمين (نحن) وفي التنزيل ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ
بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾^(٣).

(١) سورة البديع لابن المعتز ١٥/١.

(٢) سورة الهمزة ٥ .

(٣) سورة هود ٥٣.

الثاني والأربعون : الإنتقال في الكلام من الغائب المفرد (هو) (هذا) (الذي) إلى المفردة المؤنثة (أنا) .

الثالث والأربعون : الإنتقال في الكلام من الغائب المفرد (هو) إلى المثنى المؤنث المتكلم (إننا) .

الرابع والأربعون : الإنتقال في الكلام من الغائب المفرد (هو) إلى جمع المؤنث (إننا) .

الخامس والأربعون : الإنتقال في الخطاب في المثنى المخاطب ، كما في قوله تعالى ﴿فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾^(١) فلم تقل الآية (فتشقى) بألف التشية ، وقيل أن لغة المفرد أعلاه لمراعاة الفاصلة إذ أن الآية التي قبلها ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ ولكن المعنى أعم موضوعاً ودلالة .

وهناك وجوه أخرى تستقرأ من هذا التقسيم ، ومن منافع الإلتفات جذب الأسماع والحيلولة دونها ودون الضجر والملل ، ومنها إستدامة طراوة الكلام وترك البقاء على صيغة واحدة في الكلام ، مع خصائص في كل إلتفات .

وقد إبتدأت آية البحث بالنداء للمسلمين ثم تكلمت عن حال الذين كفروا وكيف أنهم يصرون عن الخروج للجهاد في سبيل الله ، ويذكرون الشهداء بنوع شماتة ويدعون أنهم لو بقوا عندهم ومعهم في المدينة لما ماتوا ولا قتلوا ، وصيرورة الأمر حسرة في نفوس الذين كفروا لأن الحياة والموت أمران بيد الله عز وجل لا يقدر عليها غيره ، ولا يموت أحد إلا بأجله الذي كتبه .

فهل في الآية إلتفات بمعناه الإصطلاحي ، الجواب لا ، بلحاظ أن مضامين الآية كلها خطاب للمسلمين والمسلمات حتى القانون الذي ورد في خاتمها جاء بصيغة الخطاب لهم ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ والذي

يدل بالدلالة التضمنية على حث المسلمين على الجهاد وعدم الالتفات إلى مغالطات وشكوك وصدّ الذين كفروا .

قوله تعالى ﴿أَوْ كَانُوا غُرَى﴾^(١)

بعد أن ذكر الذين كفروا الضرب في الأرض للتجارة وطلب الرزق كما في قوله تعالى ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ * إِلَّا لَهُمْ رَحْلَةُ الشَّاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾^(٢).

ذكروا مسألة خروجهم للغزو والظلم قبل البعثة وبعدها^(٣)، ولم تكن معارك الإسلام الدفاعية الأولى أيام النزول منحصرة بواقعة بدر وأحد ، فقد كانت سرايا قبل وبعد معركة بدر منها :

الأولى : سرية حمزة بن عبد المطلب في ثمانين راكباً إلى سيف البحر من أرض جهينة شهر ربيع أول من السنة الثانية للهجرة ، قاله المدائني وليس فيها قتال ، إنما كانت لإعتراض عير لقريش فيها أبو جهل بن هشام ، في ثلاثمائة رجل ، فحجز بين الفريقين مجدي بن عمرو الجهني ، وهو حليف لكل منهما .

وقدم ابن إسحاق سرية (عبدة بن الحارث)^(٤) .

الثانية : سرية عبدة بن الحارث بن عبد المطلب إلى بطن رابع من شوال من السنة الأولى للهجرة .

(١) وسيأتي مزيد كلام عن لفظ (غزى) واحتمال إرادة كفار مكة ، وأنهم الغزاة في الجزء (٢٥٦) من هذا السفر .

(٢) سورة قريش ١-٤ .

(٣) أنظر الجزء الثاني والتسعين بعد المائة ، وفيه مزيد بيان بأن المراد من (غزى) المشركون أنفسهم لأن الخطاب في آية البحث للذين آمنوا مع نهيمهم عن التشبه بالكفار ، وقد القينا محاضرة في البحث الخارج على فضلاء الحوزة بهذا الخصوص ، وهي معروضة على اليوتيوب .

(٤) الإستيعاب ١ / ١٠٩ .

الثالثة : سرية سعد بن أبي وقاص إلى الخرار في عشرين من المهاجرين في شهر ذي القعدة من السنة الأولى للهجرة ، لإعتراض عير لقريش .

الرابعة : سرية سعد بن أبي وقاص إلى حيّ من كنانة في شهر رجب من السنة الثانية للهجرة .

الخامسة : سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة في شهر رجب من السنة الثانية للهجرة .

السادسة : سرية عمير بن عدي لقتل عصماء بنت مروان في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة .

ومن مصاديق آية البحث إذا غاب الأنصاري في الدفاع قال الذين كفروا : لو كان عندنا ومعنا في المدينة لما قُتل ولا طراً احتمال قتله ولا خفنا عليه من القتل في غزو وصرنا نترقب الأخبار بخصوصه فحالما يخرج الصحابة من الأنصار والمهاجرين في السرايا يبدأ الذين كفروا بيث سمومهم .

فان قلت تضمنت آية البحث معنى الخطاب على نحو التقابل لقوله تعالى ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ وفيه أطراف :

الأول : الذين كفروا .

الثانية : قول الذين كفروا .

الثالثة : الإخوان الذين يسمعون قول الذين كفروا .

والجواب هذا صحيح وهو من مصاديق الآية إلا أن مضامينها أعم ، إذ تأتي اللام بمعنى عن ، كما في قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُوا إِلَيْهِ﴾^(١) أي قال الذين كفروا عن الذين آمنوا .

وكذا بالنسبة لآية البحث ، وتقديرها : كالذين كفروا وقالوا عن إخوانهم إذا ضربوا في الأرض . وإن كانت الآية أعلاه تحتمل ذات معنى الإختصاص الذي هو ظاهر في آية البحث أيضاً

وبدليل ورود مضمون القول بصيغة الغائب ، فلم ترد الآية وموضوع القول بصيغة الخطاب ، فلم تقل : وقالوا لإخوانهم لو كنتم معنا أو : لو تكونوا عندنا لا تموتون أو تقتلون .

ومن الغايات الخبيثة للذين كفروا الإرجاف في المدينة ، فقد كانت السرايا التي تذهب للدفاع تجمع المهاجرين والأنصار ، فيخرج بعضهم فيها ، ويكون الآخرون بالانتظار والترقب والتهيب للخروج والندب ، فأراد الذين كفروا تثبيط العزائم ، وبث روح القعود والخمول بين صفوف الأنصار والمهاجرين بضربهم المثل بخصوص الذين خرجوا للضرب في الأرض وماتوا أو قتلوا .

كما أراد الذين كفروا منع الإنتعاش الإقتصادي في المدينة ، فقد كان بعض المهاجرين يعمل بالتجارة وكسب المعاش ، ويعمل الأنصار في الزراعة ، ويمكن تكون فئة أخرى تتولى تسويق الحاصل الزراعي وجلب الحبوب ، وفئة تشتري وتبيع السلاح والثياب .

وكانت التجارة في المدينة في الغالب بيد بني قريظة والنضير ، فأراد الذين كفروا منع المؤمنين من التجارة والسعي في رخص الأسعار وتنوع البضائع في المدينة والحيلولة دون ورود الغنائم إليها والقصد من هذا المنع تحريض أهلها على الإسلام وكثرة المهاجرين وحال النفير التي عليها المسلمون .

ففضح الله عز وجل الذين كفروا بآية البحث والشواهد العظيمة المتجددة التي تتجلى في كل يوم من بدايات الإسلام وإلى يومنا هذا ، وما بعده ببيان الشأن والمنزلة العظيمة التي صارت للمدينة المنورة بين الناس وفي أقطار الأرض ، والإزدهار الإقتصادي والتجاري والتمدد

والسعة التي حدثت فيها ، وليكون المتر الواحد من الأرض فيها أغلى ثمناً من أي مدينة في العالم في هذه الأزمان .

وفي واقعة حنين في شهر شوال من السنة الثامنة للهجرة قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بتوزيع الغنائم ، وخص المؤلفة قلوبهم من قريش بعطايا كثيرة ، فصار في نفوس الأنصار وجد .

ورود (عن أبي سعيد الخدري . قَالَ لَمَّا أُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَا أُعْطِيَ مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا ، فِي قُرَيْشٍ وَفِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ وَجَدَ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ ؟ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُمْ الْقَالَةُ حَتَّى ، قَالَ قَائِلُهُمْ لَقَدْ لَقِيَ وَاللَّهِ رَسُولَ اللَّهِ قَوْمَهُ فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ .

فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْأَنْصَارِ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَمَّا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفِيءِ الْعَرَبِ ، وَلَمْ يَكُ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ .

قَالَ فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ ؟ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَنَا إِلَّا مِنْ قَوْمِي . قَالَ فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ . قَالَ فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ الْأَنْصَارَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ . قَالَ فَجَاءَ رِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا ، وَجَاءَ آخَرُونَ فَزَادَهُمْ .

فَلَمَّا اجْتَمَعُوا لَهُ أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ قَدْ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ : مَا قَالَةُ بَلَّغْتَنِي عَنْكُمْ وَجِدَّةً وَجَدْتُمُوهَا عَلَيَّ فِي أَنْفُسِكُمْ ؟ أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ وَأَعْدَاءَ الْإِلَهِ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ قَالُوا : بَلَى ، اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنٌ وَأَفْضَلُ .

ثُمَّ قَالَ أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ؟ قَالُوا : بِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْأَمَنُ وَالْفَضْلُ . قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ

وَسَلِّمْ أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصُدَّقْتُمْ أَتَيْتَنَا مُكَذِّبًا
فَصَدَّقْنَاكَ ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ ، وَطَرِيدًا فَأَوَيْنَاكَ ، وَعَائِلًا فَأَسَيْنَاكَ .
أَوْجَدْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِكُمْ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفَتْ بِهَا
قَوْمًا لِيَسْلَمُوا .

وَوَكَّلْتَكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ
النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى رِحَالِكُمْ ؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ
مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ لَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ أَمْرًا مِنَ الْأَنْصَارِ ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شُعْبًا
وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شُعْبًا ، لَسَلَكَتُ شُعْبَ الْأَنْصَارِ . اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ
، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ . وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ . قَالَ فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا
لِحَاهُمْ .

وَقَالُوا : رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قَسَمًا ، وَحَظًا . ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَتَفَرَّقُوا ^(١) .

وهل في قيام المؤمنين من المهاجرين والأنصار بالفاع ضرر على
الذين كفروا والمنافقين من أهل المدينة كما لو كانت أعباء إضافية في
العمل وطلب المعاش تقع عليهم عند غياب إخوانهم من الأنصار
فارادوا قعودهم ورضاهم بحياة الدعة اليومية الراضية .

الجواب لا دليل عليه ، والعكس هو الصحيح ، فلم تمر على بعثة
النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ستتان حتى جرت معركة بدر
فدخلت الغنائم المدينة لتكون مقدمة وبشارة للغنائم والفئى والمنافع
العظيمة التي ستأتي إلى المدينة وأهلها ، وهو من مصاديق تسمية يوم
بدر ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ ^(٢) .

فقد كان يوم الفصل والتمييز بين حال الفاقة والخوف عند المسلمين
إلى حال السعة والأمانة والعز .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤٩٧ .

(٢) سورة الأنفال ٤١ .

لقد تجلت بركات نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم على أهل المدينة عامة ، ولكن الذين كفروا أرادوا منع توالي البركات عليهم وعلى أهل المدينة ، ففضل الله عز وجل وفضحهم وكشف كفرهم في هذه الآية التي تتضمن في مفهومها حث ودعوة الذين آمنوا للخروج للدفاع والمرابطة والكسب الحلال .

ترى لماذا قدمت الآية الضرب في الأرض ، الجواب من جهات :

الأولى : كثرة خروج قريش للتجارة والكسب .

الثانية : قلة أيام الغزو والوقائع التي يخرج إليها قريش .

الثالثة : التعرض للموت بالخروج للتجارة أكثر من تعرض المقاتلين إلى القتل في الغزو .

ومن الإعجاز في المقام أن الذين كفروا لم يحتجوا باحتمال وقوع المؤمنين أسرى بيد الذين كفروا ، وفيه وجوه :

أولاً : تسليم الذين كفروا بأن المؤمنين في أمن وسلامة من الوقوع في الأسر .

ثانياً : دخول سبعين أسيراً من الذين كفروا منع الذين كفروا من الإحتجاج بأسر الذين آمنوا .

ثالثاً : إعلان المؤمنين بأنهم يجاهدون لنيل إحدى الحسنين ، أما النصر وإما الشهادة ، وفي خطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال الله تعالى ﴿ قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ﴾^(١) .

رابعاً : جعل الذين كفروا همهم في الموت ومغادرة الروح الجسد لبعث الخوف والفرع في قلوب المؤمنين وعوائلهم .

خامساً : الإشارة إلى عزم كفار قريش ومن والاهم الإنتقام من المسلمين في ساحات المعركة ، وفي الطرق البرية عند الخروج من المدينة .

سادساً : إرادة الذين كفروا الإستحواذ على التجارة وطرقها وإختصاصهم بجلب البضائع إلى المدينة ، وفيه إضعاف للإسلام وصيرورة المسلمين عاجزين عن نفقات القتال ، والله عز وجل يقول ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ...﴾^(١) .

ليفيد الجمع بين الآية أعلاه وآية البحث بفضل الله بتهيئة أسباب ومقدمات الإستطاعة وصيرورة المسلمين في حال يقدرعون معه على شراء السلاح والخيول التي لا تركب ظهورها إلا في ساحة المعركة .

سابعاً : لقد كانت قريش تشتغل بالتجارة وتستحوذ على طرقها ، قال تعالى ﴿لِيَايَلَاكَ قُرَيْشٌ * إِيَّاهُمْ رَحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾^(٢) ، وأكثر المهاجرين من قريش والأرجح أنهم دلّوا الأنصار على سبل التجارة ورغبوا في العمل بالتجارة كإخوان ، مما بعث الحسد والخشية في قلوب الكفار .

وعن أنس ، قال : قدم عبدالرحمن بن عوف فأخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع الانصاري ، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله ، فقال عبدالرحمن : بارك الله لك في أهلك ومالك ، دلني على السوق.

فربح شيئاً من أقط وسمن ، فرآه النبي صلى الله عليه وسلم بعد أيام وعليه وضر من صفرة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : مهيم يا عبدالرحمن ؟ قال : يا رسول الله تزوجت امرأة من الانصار . قال : " فما سقت فيها ؟ " قال : وزن نواة من ذهب ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : أولم ولو بشاة^(٣) .

(١) سورة الأنفال ٦٠ .

(٢) سورة قريش ١-٣ .

(٣) السيرة النبوية لابن كثير ٣٢٧/٢ .

ثامناً : إظهار الذين كفروا حسدهم للمسلمين وبغضهم لسنن الإيمان بتوجيه اللوم لإخوانهم من المسلمين ، وآفة الحسد مصاحبة للكفر ، وأول من حسد هو إبليس ليقضي الذين كفروا أثره ، فتنزل آيات القرآن لفضحهم وزجرهم ، ودفع شرور حسدهم ومكرهم ، وأخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم (مرشاس بن قيس وكان شيخاً قد عسا في الجاهلية ، عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ، على نفر من أصحاب رسول الله من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاضه ما رأى من ألفتهم ، وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية .

فقال : قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد . والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملوهم بها من قرار ، فأمر فتى شاباً معه من يهود فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم ، ثم ذكرهم يوم بعث وما كان قبله ، وأنشدهم بعض ما كانوا تناولوا فيه من الأشعار .

وكان يوم بعث يوماً اقتتل فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج . ففعل ، فتكلم القوم عند ذلك ، وتنازعوا وتفاخروا حتى تواءم رجلا من الحيين على الركب أوس بن قبيصة أحد بني حارثة من الأوس ، وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج فتناولوا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئت والله رددناها الآن جذعة . وغضب الفريقان جميعاً وقالوا : قد فعلنا . السلاح السلاح . . . موعدكم الظاهرة ، والظاهرة الحرة . فخرجوا إليها وانضمت الأوس بعضها إلى بعض ، والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية .

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال : يا معشر المسلمين الله الله . . . أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام ، وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً ، فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم لهم . فآلقوا السلاح ، وبكوا وعانق الرجال بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين ، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس ، وأنزل الله في شأن شاس بن قيس وما صنع { قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون } إلى قوله { وما الله بغافل عما تعملون }^(١) .

وأنزل في أوس بن قيثي ، وجبار بن صخر ، ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا { يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين } إلى قوله { أولئك لهم عذاب عظيم }^(٢) .

وبينما ذكرت آية البحث الضرب في الأرض على نحو التفصيل والبيان عطف عليه موضوع الغزو بكلمة واحدة هي ﴿ غَزَى ﴾ وتقدير الآية : أو كان كفار قريش غزى .

وقد ذكر الذين كفروا مسألة الخروج إلى الغزو بعد ذكر الضرب في الأرض وطلب المكاسب والمعاش ، ومن وجوه المكر الذي يتخذه

(١) سورة آل عمران ٩٨-٩٩ .

(٢) الدر المنثور ٢/٣٩٥ .

المنافقون منهاجاً التورية فكانهم جعلوا الموضوع الأهم هو التجارة ، مع أن قصدهم هو منع المؤمنين من الخروج للدفاع .

وتكرر لفظ (كانوا) في آية البحث بقوله تعالى ﴿أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا

عِنْدَنَا﴾ والنسبة بين اللفظين هي العموم والخصوص المطلق، فالثاني أعلاه أعم من الأول ، وتقدير الآية : أو كان بعضهم غزى لو كانوا جميعاً عندنا، فلم يرض الذين كفروا بخروج الأنصار إلى القتال ولا إلى التجارة لأن الغنى والنعم الظاهرة سبيل لأداء الوظائف العبادية، ويقوم المسلمون بتسخيرها في مرضاة الله، فيشترون بها المؤن ويخرجون للدفاع والسلاح وقلوبهم مطمئنة على معيشة عوائلهم، كما يشترون بالأموال السلاح ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾^(١).

وجاءت الآية بصيغة المثال والموعظة من الآخرين ، فلم تقل الآية (وقالوا لإخوانكم إذا ضربوا في الأرض وكانوا غزى) أو (قالوا لكم إذا ضربتم).

وكان الآية تحكي قصة قوم كافرين للإتعاظ منهم ، وبيان فضل الله على المسلمين من جهات :

الأولى : نزول آيات القرآن التي تحض على الصبر بسنن التقوى ، قال تعالى ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾^(٢).

الثانية : حض النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه على الدفاع والبشارة بالأجر والثواب ودخول الجنة .

(١) سورة الأنفال ٦٠ .

(٢) سورة آل عمران ١٢٥ .

الثالثة : مناجاة المسلمين بينهم بالدفاع عن النبوة والتنزيل .
وفيه توبيخ للمنافقين ، ومنع من محاكاة الكافرين ، وفي الآية دلالة على إنقطاع الغزو بين القبائل ، وبقاء الصبر والدفاع والفتح في سبيل الله ، لأن الآية التالية ذكرت القتل في سبيل الله بقوله تعالى ﴿وَكَيْفَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(١) .

ولم يرد لفظ غاز أو غزى بصيغة الجمع في آية أخرى من القرآن.

قوله تعالى ﴿لَوْ كُنَّا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾

تبين الآية حقيقة وهي أن النبي محمداً لم يجهز على الذين كفروا ومع كثرة الصحابة من المهاجرين والأنصار فانه لم يأمرهم بتخيير الذين كفروا بين الإسلام والسيف ، ولم يلجم أفواههم أو يشترط عليهم الإمتناع عن إيذاء المسلمين في حال حضورهم وغيبتهم فقد خرج مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ألف من المسلمين إلى معركة أحد ، ووصل إلى ميدان أحد منهم سبعمائة إصطفوا للملاقاة الذين كفروا . ويمكن توجيه جماعات وسرايا منهم إلى الذين كفروا في المدينة وما حولها ، وتفريق جمعهم وحملهم على دخول الإسلام ، ولكنه تركهم وشأنهم مما يدل على أن الإسلام لم ينتشر بالسيف ، وتدل آية البحث على أن المسلمين لم يعتزلوا الذين كفروا .

وقد خفف الله عز وجل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وعن المؤمنين بأن أنزل آية البحث لتكون حجة على الذين كفروا وزاجراً لهم ، وحصناً للمؤمنين من إفترائهم ومغالطتهم وسعيهم في الباطل ولتبقى حسرة في قلوبهم وتخلف الحسرة فيها ، بلحاظ عدم إنحصار الآثار المترتبة على الآية بنزولها وإبلاغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم

وسلم المسلمين بها وبكلماتها ، إذ تتجدد هذه الآثار كل يوم ، ومنها ما تبعته من الحسرة في قلوب الذين كفروا ، ومصاديق هذه الحسرة على وجوه :

الأول : مصادق الحسرة المستقرة .

الثاني : الحسرة العرضية الطارئة .

الثالث : الحسرة الذاتية التي تأتي من هم الكافر ولومه لنفسه على إختيار الإصرار على الكفر ، قال تعالى ﴿وَلَا تُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾^(١) ، وأختلف في معنى الآية أعلاه على وجوه :

الأول : إنها النفس التي تلوم صاحبها على ترك الإجتهد في طاعة الله ، وتقويت وتضييع الفرص للسعي في مرضاة الله وإرادة المؤمن الذي يراقب نفسه ، ويلومها على الكلمة التي تخرج منه والفعل الذي يصدر عنه مما ليس فيه ثواب وأجر .

الثاني : لوم الإنسان نفسه على الفعل المذموم ، وقال قتادة (اللَّوَّامَةُ)^(٢) الفاجرة .

الثالث : إرادة المعنى الجامع وحال الخير والشر ، فالذي يفعل الخير يلوم نفسه أنه لم يكثر منه ولم يزد فيه ، والذي يفعل الشر يلوم نفسه على فعله وما يترتب عليه من الإثم .

والصحيح هو الأخير لأصالة الإطلاق ، فان قلت كيف يقسم الله بالنفس التي ترتكب المعاصي ، والجواب جاء القسم بالنفس كمخلوق بديع لله عز وجل تعجز الخلائق عن درك ماهيتها أو إحصاء خلجاتها أو الإطلاع عليها وكشفها على نحو العموم الإستغراقي .

(١) سورة القيامة ٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣٧٥/٨ .

وهل يمكن أن يكون من معاني الآية أعلاه أن الذي يفعل الخير أو يترك الشر والمعصية يلوم نفسه على هذا الترك ، الجواب نعم ، قد يكون هذا ولكنه قليل نادر في ذاته وأفراده ومدته ولا عبرة بالقليل النادر فسرعان ما يزول مثل هذا اللوم ، ويحل محله الرضا والشكر لله عز وجل على السلامة من إرتكاب الشر والمعصية والإستغفار من حال لوم النفس هذا ، خاصة وقد تفضل الله عز وجل وجعل الدنيا مليئة بالشواهد التي تعين الإنسان على التوقي من لومها على فعل الخير وترك الشر ، والشواهد التي تبعث الطمأنينة في النفس على فعل الخيرات .

وجاءت آية البحث لبيان أفراد من هذه الشواهد في قلوب الذين كفروا وبما يجعلهم يلومون أنفسهم ، وهذا اللوم بذاته حسرة ، تترتب عليه الحسرة أيضاً .

ويتضمن قول الذين كفروا وجوهاً :

الأول : إرادة الذين خرجوا إلى القتال من المهاجرين الأنصار وأستشهدوا في معركة بدر وأحد وغيرهما ، وتقدير الآية : كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم المسلمين الموجودين في المدينة أن إخوانهم الذين ضربوا في الأرض أو كانوا غوى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا .

الثاني : المقصود الأنصار الذين ينوون الخروج للقتال ، كما يدل عليه قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾^(١).

الثالث : المقصود المؤمنون المرابطون في الثغور وعند مداخل المدينة المنورة .

الرابع : إرادة المسلمين الذين خرجوا للدعوة إلى الإسلام والذين بعثهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الملوك والأمراء والقبائل ، فمنهم من إعتدى على هؤلاء الدعاة والسفراء وقتلهم .

الخامس : المقصود المسلمون الذين يذهبون في الأرض للتجارة والكسب وإنتفاع الإسلام والمسلمين من كسبهم وتجارتهم ، فمثلاً كان دحية الكلبي يأتي بالبضائع من الشام لبييعها في المدينة .

السادس : ذم الكفار لإخوانهم الذين قتلوا في معركة بدر كأبي جهل وعتبة بن ربيعة خاصة وأنهم أصروا على القتال يوم بدر مع علمهم بوصول قافلة أبي سفيان سالمة في طريقها إلى مكة .

السابع : توجه الذين كفروا بكلامهم إلى الصحابة الذين لاقوا جيش كفار قريش في معركة بدر وأحد وعادوا سالمين إلى المدينة لأمر يقصدها الكفار منها :

أولاً : محاولة التظليل على إخلاص الإيمان والفضل العظيم بالخروج للقتال .

ثانياً : إنكار الأجر والثواب الذي فاز به المجاهدون .

ثالثاً : التقليل من النصر المبين الذي أحرزه المسلمون .

بحث بلاغي

من مباحث علم البديع في البلاغة اللف والنشر بأن تذكر أمرين على نحو الجمع والتداخل ، ثم تأتي بالبيان والتفسير على نحو الإجمال لأن السامع يميز بينهما ، ويرد كل واحد منهما إلى ما يناسبه ويلائمه مما تقدمه ، كما في قوله تعالى ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾^(١) فالمراد من وعاء السكن هو الليل ، ومن إبتغاء الرزق والكسب هو النهار .

فان قلت من الناس ما يكون كسبه في الليل ، والجواب إنه من القليل النادر والذي يكون هذا الطلب فيه بديلاً متزلزلاً عن الطلب والسعي في النهار ، وليس كمثلته ، ومع شوق ورغبة الكاسب بأن يكون إبتغاؤه الرزق كعامة الناس في النهار ، كما تمر عليه ساعات وهو في العمل يرغب فيها إلى الخلود إلى الراحة والنوم .
واللف والنشر على قسمين :

الأول : اللف والنشر المرتب ، وهو الأصل كما في آية البحث وقوله تعالى (وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا) فيقابل كل فعل نتيجته وعاقبته المحتملة فذكر الله عز وجل الضرب في الأرض ثم الغزو ، وبعدها ذكر نتيجة الضرب في الأرض للتجارة أو في سبيل الله بأنه الموت .
وذكر نتيجة خروج المشركين إلى الغزو وهو القتل ، وفيه زجر لهم عن محاربة الإسلام .

الثاني : اللف والنشر المعكوس ويسمى أيضاً المشوش ، ولكن هذه التسمية لا تناسب علوم القرآن بلحاظ أن العكس فيها له دلالة ويتضمن الموعظة وهو ذخيرة قرآنية ، وهو ذكر شيئين أو أكثر ثم تأتي بما يتعلق ويتصل بهما على سبيل الإنفراد ، ولكن من غير ترتيب بينهما فتبدأ بذكر ما يلائم المتأخر ، وتبطل فيما يخص المتقدم ، وهو من فنون البلاغة ، ولكن دلالاته في القرآن أعم وأعظم ، ولا تختص بالبلاغة والبيان ويستدل عليه بقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١﴾ .

وقد لا يكون هذا الإستدلال تاماً عند التدبر في الآيتين وموضوعهما إذ تبدأ الذكر فيها بيوم القيامة بقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ وكل مضامين الآيتين تتعلق بذات يوم القيامة ووقائعه ، وتقدم ذكر بياض الوجوه تشريفاً وإكراماً ، وإخباراً عن نشر شآبيب^(١) من رحمة الله وفيه ترغيب للناس برحمة الله في الآخرة وهو من مصاديق ما ورد في الحديث القدسي (إن رحمتي سبقت غضبي)^(٢).

وعن سلمان المحمدي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال (خلق الله يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة ، منها رحمة يتراحم بها الخلق وتسع وتسعون ليوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة)^(٣).

ثم ذكرت الآية الذين أسودت وجوههم وهو من ضمن ذكر أهوال يوم القيامة الذي ابتدأت به الآية بلفظ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ﴾ وليبيان حقيقة وهي ان أهل النار يحتاج عليهم يومئذ ، ويقام عليهم الدليل والبرهان ثم ينزل عليهم العذاب ، أما أهل الجنان فليس من إحتجاج عليهم ، لذا جاءت الآية الثانية أعلاه خاصة بهم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٤).

وتقدير آية البحث على وجهين :

الأول : إذا ضربوا في الأرض وماتوا .

(١) جمع شؤبوب ، ويأتي بمعنى الدفعة من المطر ، والقطرات الأولى منه ، والشدة والكثرة من كل شيء ، ومنه كثرة ضروب ووجوه الرحمة النازلة من عند الله سبحانه .

(٢) الدر المنثور ٣٦/٤ .

(٣) الدر المنثور ٢٦/٤ .

(٤) سورة الأحقاف ١٣ .

الثاني : أو كانوا غزى وقتلوا .

لتعلق الموت بالخروج للتجارة والسياحة في الأرض ، وكما في قوله تعالى ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾^(١) ولكن هذا المعنى لا يمنع من وجوه أخرى منها :

الثالث : إذا ضربوا في الأرض في سبيل الله والدعوة إل الإسلام فقتلوا .

الرابع : إذا ضربوا في الأرض للتجارة والكسب فقتلوا .

الخامس : إذا سافروا للحجز أو العمرة فقتلوا .

السادس : إذا خرجوا في كتائب فماتوا في الطريق .

السابع : إذا ندبوا أنفسهم للدفاع ، وإشتركوا في القتال ، ومات بعضهم في ساحة المعركة في أجله ، قال تعالى ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾^(٢) .

بحث أصولي

لقد بذل المسلمون الأوائل الوسع في إقامة صرح دولة الإسلام وكان هذا البناء بالدم والتضحية والفداء إذ يدل قول الذين كفروا ﴿مَا تَأْتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ حدوث القتل بين الصحابة وهو أمر جلي وواضح فمثلاً قتل من المسلمين في معركة أحد سبعون شهيداً ، ولم ينحصر قتل المسلمين بمعارك الإسلام بيدر وأحد والخندق وحنين ونحوها ، بل كانت السرايا والوفود تتعرض للقتل أحياناً .

وعن أنس بن مالك قال (بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبعين رجلاً لحاجة يقال لهم القراء .

(١) سورة المائدة ١٠٦ .

(٢) سورة لقمان ٣٤ .

فعرض لهم حيان من بنى سليم: رعل وذكوان، عند بئر يقال لها بئر معونة .

فقال القوم: والله ما إياكم أردنا وإنما نحن مجتازون في حاجة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم. فقتلوهم.

فدعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليهم شهرا في صلاة الغداة، وذاك بدء القنوت وما كنا نقنت) ^(١).

لتمر بضعة سنين وتفتح مكة ، ويبقى المسلمون في المدينة أعزة وينشغلون بأداء الفرائض والتفقه في الدين وتلاوة آيات القرآن والتدبر في معانيها ، ومنها آية البحث حيث يعرفون الذي كانوا يصدونهم عن القتال بأسمائهم وقد تاب أكثرهم فأعرض عنهم المؤمنون لأخوة الإسلام .

وإذ كانوا يخرجون للدفاع والقتال فهم لم يخرجوا من المدينة إلا قادة وأمراء وقضاة في الأمصار وجباة لأموال الزكاة .

لقد قصد الذين كفروا القضية الخارجية وقانوناً في الحياة الدنيا ، والقضية الخارجية هي الفعل والفرد من الأمر الذي يكون في الخارج كما لو قلت (زيد صائم) .

أما القضية الحقيقة فهي الأمر الثابت والمাহية كما في وجوب الصوم على المكلفين وقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ^(٢) لتكون حقيقة الصوم مصاحبة لأهل الدنيا وعلى نحو الوجوب العيني إلا ما خرج بالدليل .

(١) السيرة النبوية لابن كثير ١٣٩/٣.

(٢) سورة البقرة ١٨٣.

وكما في قوله تعالى ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾^(١) فالقضية الحقيقية في الآية أعلاه هي حلية البيع وحرمة الربا ، لإفادة الإطلاق في الحكم ، ومنع الحرج والخلاف فيه .

فكل بيع بين طرفين وفيه قبول وإيجاب هو حلال ، وهو قضية خارجية .

وكذا كل ربا وقرض جلب منفعة هو حرام ، وهو قضية خارجية .
وقيل إن القضية الحقيقية ترجع إلى الشرطية أي إذا وقع بيع فانه صحيح ، ولا دليل عليه إنما هو أصل وتشريع يتقوم به الفعل وحتى على فرض أنه شرط فهو شرط خاص بذات المعاملة .

لقد وقع الذين كفروا بسبب ضلالتهم وحنقهم إذ قاسوا على أفراد من قضايا خارجية لإرادة المغالطة ومحاولة التدليس والتحريف في القضايا الحقيقية ، قال تعالى ﴿قُلْ مَوْتُوا بِغَيْرِكُمْ﴾^(٢) .

فلقد قاس الذين كفروا على سقوط عدد من الشهداء في الميدان فأخذوا يزيفون الحقائق ويحرضون المؤمنين على عدم الخروج ، ويذكرون الشهداء بالشماتة ويرمونهم بعدم إختيار الفعل السليم الذي يتقوم بالبقاء في المدينة .

فجاءت آية البحث بقضايا حقيقية من جهات :

الأولى : لزوم الإيمان بالله ورسوله .

الثانية : إكرام الله عز وجل للمؤمنين .

(١) سورة البقرة ٢٧٥ .

(٢) سورة آل عمران ١١٩ .

الثالثة : نهى المسلمين والمسلمات عن التشبه بالكفار في نهيههم عن خروج المؤمنين للدفاع والجهاد في سبيل الله، والضرب في الأرض.

الرابعة : الأخوة النسبية بين المؤمنين والكفار، فمع أن الآية تتضمن النهي والزجر عن التشبه بالذين كفروا فانها أخبرت عن صدق الأخوة النسبية بين الفريقين.

وفيه دلالة على صدق إيمان المسلمين وثباتهم في مقامات الهدى، وفيه وجوه:

أولاً : تقديم المسلمين لأخوة الإيمان في القول والفعل والصلوات العامة، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(١).

ثانياً : عدم إنصات المسلمين للذين كفروا مع أنهم أخوتهم في الرحم والنسب.

ثالثاً : دعوة المسلمين لتحذير وإنذار الذين كفروا ونهيههم عن صدهم عن سبيل الله، وفي خطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال الله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٢).

وهل يمكن القول بعموم هذه الآية الجواب نعم، وتقدير الخطاب فيها على وجوه:

الأول : يا أيها المسلم أنذر عشيرتك الأقربين.

الثاني : يا أيها المسلمة أنذري عشيرتك الأقربين.

الثالث : يا أيها الذين آمنوا أنذروا عشيرتكم الأقربين.

رابعاً : تأكيد صدق إيمان المسلمين ، ومع أن إخوتهم بقوا على الكفر فانهم لم ينصتوا لهم ولم يرتدوا، ولم يتركوا منازل الهدى .

(١) سورة الحجرات ١٠.

(٢) سورة الشعراء ٢١٤.

قوله تعالى ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾

تدل الآية بالدلالة التضمنية على أن قلوب العباد بيد الله، وأنه سبحانه يجعلها كيف يشاء ويقذف فيها ما يشاء، وقد تقدم قبل خمس آيات كيف أن الله عز وجل يلقي الرعب والفرع في قلوب الذين كفروا، بقوله تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾^(١).

ومن الآيات أن عقوبة الشرك بالله هي نفاذ الرعب إلى القلوب، أما عقوبة صدّ المؤمنين عن القتال، وإظهار السماتة بهم عند القتل فهو إلقاء الحسرة والندامة في قلوبهم.

وبين الرعب والحسرة عموم وخصوص من وجه، فهناك مادة للإلتقاء وأخرى للإفتراق، نعم الرعب أشد وطأة وأذى على الإنسان، ويحتمل توجه الرعب والحسرة إلى قلوب الكفار وجوهاً :

الأول : إجتماع الرعب والفرع في قلب الكافر.

الثاني : تزاخم الرعب والفرع في الإستيلاء على قلب الكافر.

الثالث : التوالي والتتابع في نفاذ الرعب والحسرة إلى قلب الكافر بحسب اللحاظ ومناسبة الموضوع والحكم، لذا جاءت الآية أعلاه بصيغة المستقبل القريب الذي يدل عليه لفظ السين في ﴿سَنُلْقِي﴾.

الرابع : ما يتغشى قلب الكافر أعم من الرعب والحسرة، فقد تأتته الندامة أو قد تغزوه أسباب ومقدمات التوبة، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(٢).

(١) سورة آل عمران ١٥١.

(٢) سورة الأعراف ١٥٦.

وهل تختص الحسرة التي تحل في قلوب الذين كفروا بالحياة الدنيا، أم تشمل الآخرة، الجواب تصاحب الحسرة الكافر في الدنيا وفي عالم البرزخ وفي الآخرة ، لبيان قانون وهو الملازمة بين الحسرة والكفر، وورد عن البراء بن عازب قال : خرجنا في جنازة رجل من الأنصار مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فأنتهينا إلى القبر ، ولما يلحد له بعد ، فجلس النبي صلى الله عليه وسلم مستقبل القبلة ، وجلسنا معه كأن على رؤوسنا الطير .

فنكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء ، ثم رفع رأسه ، فقال : اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، قالها ثلاث مرات ، ثم أنشأ يحدثنا ، فقال : إن المؤمن إذا كان في قبل من الآخرة وانقطع من الدنيا ، نزلت إليه ملائكة كأن وجوههم الشمس ، مع كل ملك منهم كفن وحنوط ، فجلسوا منه مد بصره ، فإذا خرجت نفسه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض ، وكل ملك في السماء ، وفتحت له أبواب السماء كلها ، فليس منها باب إلا وهو يعجبه أن يدخل به منه .

فإذا انتهى به الملك إلى السماء قال : رب ، عبدك فلان قد قبضنا نفسه ، قال : فيقول : ارجعوه إلى الأرض ، فإنني وعدته أنني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى . قال : وإنه ليسمع خفق نعالهم ، إذا ولوا مدبرين ، فيقال له : يا هذا ، من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ .

قال : يقول : ربي الله ، وديني الإسلام ، ونبيي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم ينادي مناد من السماء ، وذكر كلاما ، وذلك قوله تعالى ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾^(١).

ثم يأتيه آت حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب ، قال : فيقول له : يا هذا : أبشر برضوان الله وجنات فيها نعيم مقيم . قال : فيقول : وأنت فبشرك الله بخير ، فمن أنت ؟ لوجهك الوجه يبشر بالخير . قال : يقول : أنا عمك الصالح .

فوالله ما علمت إن كنت لسريعا في طاعة الله ، بطيئا عن معصية الله ، فجزاك الله خيرا قال : فيقول : وأنت فجزاك الله خيرا . ثم ينادي مناد من السماء أن افتحوا له بابا إلى الجنة وافرشوا له من فرش الجنة قال : فيفتح له باب إلى الجنة ، ويفرش له من فرش الجنة . قال : يقول : رب ، عجل قيام الساعة قال : فيقولها ثلاثا ، حتى أرجع إلى أهلي ومالي .

وإن الكافر إذا كان في قبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا ، نزلت إليه ملائكة سود الوجوه ، معهم سراييل من قطران وثياب من نار ، فأجلسوه وانتزعوا نفسه معها العصب والعروق ، فإذا خرجت نفسه لعنه كل ملك بين السماء والأرض ، وكل ملك في السماء ، وغلقت أبواب السماء دونه ، فليس منها باب إلا وهو يكره أن يدخل منه ، فإذا إنتهى به الملك إلى السماء رمى به ، فيقول : أي رب ، عبدك فلان قبضنا نفسه ، فلم تقبله الأرض ولا السماء قال : فيقول الله : ارجعه إلى الأرض ، فإنني وعدته أنني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى ، وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين ، فيقال له : يا هذا ، من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ قال : يقول : لا أدري .

ثم ينتهره إنتهارة شديدة ، فيقول : يا هذا ، من ربك ؟ وما دينك ؟ قال : يقول : لا أدري ، قال : فينادي مناد من السماء : لا دريت ، ثم يأتيه آت قبيح الوجه ، منتن الريح ، قبيح الثياب ، فيقول : يا هذا ، أبشر بسخط الله وعذاب مقيم قال : فيقول : وأنت بشرك الله بالشر ،

فمن أنت ؟ لوجهك الوجه يبشر بالشر قال : أنا عملي السيئ ، والله ما علمتك إن كنت لسريعاً في معصية الله ، بطيئاً عن طاعة الله ، فجزاك الله شراً ، قال :

فيقول : وأنت فجزاك الله شراً ثم يقيض له أعمى أبكم معه مرزبة من حديد ، لو ضرب بها جبلاً لصار ناراً ، فيضربه ضربة يسمعها ما بين المشرق والمغرب إلا الثقلين ، فيصير تراباً ، ثم تعاد فيه الروح قال : قلنا للبراء : أملك هو أم شيطان ؟ قال : فغضب غضباً شديداً ثم قال : نحن كنا أشد هيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أن نسأله أملك هو أم شيطان قال : ثم ينادي مناد من السماء أن افرشوا له لوحين من نار ، وافتحوا له باباً من النار .

قال : فيفرش له لوحان من النار ، ويفتح له باب إلى النار ، فيقول : رب لا تقم الساعة ، لا تقم الساعة^(١) .
تؤكد آية البحث قانوناً وهو أن الله عز وجل مالك القلوب ، وفيه مسائل :

الأولى : هذه الملكية من عمومات ملك الله المطلق ، كما في قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾^(٢) فيدخل الإنسان وجوارحه وقلبه في ملك الله عز وجل .

وعن شهر بن حوشب قال : دخلت على أم سلمة بالمدينة ، وبينى وبينها حجاب ، فسمعتها تقول : كان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم : يا مقلب القلوب ، ثبت قلبي على دينك قال : ما من آدمي إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الرحمن ، إذا شاء أزاغه ، وإذا شاء هداه^(٣) .

(١) تهذيب الآثار للطبري ٢/٢١٢ .

(٢) سورة المائدة ١٨ .

(٣) المعجم الأوسط للطبراني ٥/٢٧٧ .

الثانية : دعوة الناس لنبد الكفر ومفاهيم الضلالة لأنها مجلبة للحسرة ، وتورث الندامة في الدنيا ، وعند دخول القبر ، وفي الآخرة حيث يخلد الكفار في العذاب الأليم .

الثالثة : هداية المسلمين إلى أسباب النصر على الذين كفروا ، وتأكيد ضعفهم ووهنهم لامتلاء قلوبهم بالحسرة والأسى .

الرابعة : بيان إعجاز القرآن بإصابة الذين كفروا بالبلاء في قلوبهم من جهات :

الأولى : قذف الرعب والفرع في قلوب الذين كفروا عند هجومهم على المسلمين وإرادتهم محاربة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من المهاجرين والأنصار .

الثانية : حلول الحسرة في قلوب الذين كفروا وتعدد أسباب هذه الحسرة كما تبينه آية البحث وغيرها من الآيات .

الثالثة : إجتماع الحسرة والرعب في قلوب الذين كفروا .
وتبين الآية قانوناً وهو الملازمة بين الكفر والحسرة ليشكر المسلمون الله عز وجل على نعمة الإيمان وما يترشح عنه من السلامة من الحسرة والخبية والأسى ، فيتخذ المسلمون الدنيا مزرعة للآخرة ، وليس عندهم ما يندمون أو يأسفون عليه .

وورد في آية البحث لفظ الإشارة للبعيد (ذلك) ويراد منه وجوه :
الأول : توجه النداء من عند الله عز وجل للمسلمين بلفظ الإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والذي تبدأ آية البحث به ، وما فيه من الدلالة على ثبات المسلمين في منازل الإيمان ، ويترشح عنه الصبر والتقوى والدفاع عن الإسلام وسنن الإيمان .

الثاني : شمول المسلمين والمسلمات بنداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهو باعث للحسرة في قلوب الذين كفروا ، إذ تفضل الله عز وجل

بمخاطبة المسلمين والمسلمات على نحو العموم الإستغراقي بنداء الإيمان ، وهو إنحلالي ، ويكون تقديره على وجوه :

أولاً : يا أيها المسلم .

ثانياً : يا أيتها المسلمة .

ثالثاً : يا أيها المؤمن .

رابعاً : يا أيتها المؤمنة .

الثالث : بيان إعجاز القرآن بتجلي معاني الحسرة على ألسنة الذين كفروا وفي أقوالهم ، لتتضمن الآية البشارة والإنذار ، إذ تفيد الآية في مفهومها إخبار المؤمنين بأن الذين كفروا في حسرة وأسى ، وليكون من مصاديق تسمية يوم بدر ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾^(١) التمييز في ذات القلوب وما تضمه ، إذ تضرر قلوب المؤمنين الغبطة والسعادة ، بينما تستقرأ الحسرة والندامة في قلوب الذين كفروا سواء الذين في مكة المكرمة أو في المدينة المنورة.

والآية إنذار للذين كفروا بأن الحسرة التي تملأ قلوبهم تجعلهم في حال كآبة وحزن وتسبب لهم الوهن والضعف .

وتقدير الآية والمراد من اسم الإشارة ﴿ذلك﴾ على وجوه :

الأول : ليجعل الله نزول القرآن حسرة في قلوب الذين كفروا لما فيه من الفضح والذم لهم ، فمن إعجاز آية البحث أنها تجمع بين أمور :

أولاً : فضح الذين كفروا .

ثانياً : ذم الذين كفروا .

ثالثاً : بيان إتحاد السخية بين الكفار والمنافقين بخصوص الصدّ عن

سبيل الله وتشيط همم المؤمنين .

رابعاً : تحذير الأنصار والمهاجرين من الذين كفروا .

خامساً : بيان قانون وهو محاربة الذين كفروا للمسلمين باسم الأخوة النسبية .

وهل هو نوع حمق من الكفار إذ يريدون أن ينفعوا فيجلبوا الضرر ، الجواب نعم ، ولكن هذا الحمق ليس أمراً مستقلاً ، بل هو فرع الكفر والضلالة .

الثاني : ليجعل الله عز وجل مجئ النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مهاجراً إلى المدينة حسرة في قلوب الذين كفروا من من سكتتها ، إذ كانت هذه الهجرة تأسيساً لدولة الإسلام ، وسبباً لهجوم كفار قريش إلى المدينة ورجوعهم منكسرين ، وهو من عمومات قوله تعالى (فينقلبوا خائبين) (١) .

الثالث : ليجعل الله عز وجل نصر الله عز وجل في معركة بدر حسرة في قلوب الذين كفروا ، خاصة وأن أخبار ودلالات ومنافع هذا النصر دخلت كل بيت من بيوت المدينة .

ومما يتصف به هذا النصر أن كل حديث بخصوصه يقود إلى التدبر بصيغة الإعجاز التي يتصف بها .

الرابع : ليجعل الله عز وجل توافد المهاجرين على المدينة من مكة وغيرها حسرة في قلوب الذين كفروا إذ أنهم يصرون على الجحود بالآيات والبراهين الساطعة التي تدل على صدق نبوة محمد ، فيأتي شباب وفتية ليعلموا إسلامهم ويظهروا العزم على التفاني في طاعة الله ورسوله .

الخامس : لقد سبب توافد المسلمين على المدينة وإقامتهم فيها نقصاً في فرص العمل خاصة وأن عدداً منهم جاءوا هاربين من أهليهم وقبائلهم ولاقوا الضنك والخرج لقلّة المؤن فيها ، فجعل الله عز وجل ذلك حسرة في قلوب الذين كفروا .

وجاءت معركة بدر لتدخل الغنائم دفعة واحدة إلى المدينة ومعها سبعون أسيراً من المشركين ترك النبي صلى الله عليه وآله وسلم للذين أسروهم أن يطلبوا مقدار البدل والفداء عنهم ودون أن يأخذ منه شيئاً حتى ولو بعنوان الزكاة ، ليكون ذلك أيضاً حسرة في قلوب الذين كفروا .

وكان أبو عزيز بن عمير من بين الأسرى الذين وقعوا بيد المسلمين يوم بدر، ومرّ عليه أخوه لأمه وأبيه مصعب بن عمير، فقال للأنصاري الذي أسره ، وهو أبو اليسر شدّ يديك به، فان أمه ذات متاع لعلها تفتديه منك^(١).

فقال له أبو عزيز : يا أخي هذه وصاتك بي، فقال له مصعب، إنه أخي دونك ، وسألت خناس بنت مالك من بني لؤي وهي أم أبي عزيز أخي مصعب بن عمير، واسم أبي عزيز هو زرارة، إذ كان من الأسرى الذين وقعوا بيد المسلمين ، سألت أمه عن أغلى ما فدي به قرشي، فقيل لها : أربعة آلاف درهم، فبعثت بذات المبلغ لفكه، ترى لماذا لم تبعث بأقل منه، فيه مسائل :

الأولى : شوق الأم لرؤية ولدها، وخلصه من الأسر.

الثانية : إعانة جيش المسلمين.

الثالثة : علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومعرفة المهاجرين بالسعة والفتن الذي تتصف به أمه.

الرابعة : ظن الأم أن ابنها مصعباً سيشدد بخصوص فداء أخيه.

ولا تعارض بين هذه الوجوه، وبينما كان أبو عزيز يحمل لواء المشركين يوم بدر فانه أسلم وحسن إسلامه فيما بعد.

ترى لماذا لم يقل مصعب : فان أمني ذات متاع ، أو فان أمني ذات متاع ، الجواب من جهات :

الأولى : بيان إتحاد سنخية الكفر بين أبي عزيز وأمه .
الثانية : الإعلان بأن مصعباً لا يوصي بالرفقة بأخيه في النسب .
الثالثة : تنبيه وتأديب الأنصار بالألا يلتفتوا إلى ما يقوله إخوانهم ممن بقي على الكفر من الأوس والخزرج أو تلبسوا بالنفاق بالمنع من الخروج للدفاع عن الإسلام .

ومن الإعجاز في السنة التبليغية أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث مصعباً بن عمير مع أهل المدينة بعد بيعة العقبة الأولى كما عن ابن إسحاق^(١) مع قلة عددهم وما قد يتعرض له من الأذى إذ كان عدد الأنصار الذين حضروا بيعة العقبة الأولى اثني عشر رجلاً ، وكان مصعب مدلاً بين أهله ، ولم يمنعه من الهجرة والتكليف احتمال قرب الضرر منه أن تلك البيعة فيها حرب وقتال ، وأنها كانت دعوة للتوحيد ونبد الشرك وترك السرقة والزنا والوَاد وإجتتاب الإفتراء إذ كان أهل المدينة على الشرك ، كما كان فيها اليهود من بني النضير وقريظة وقينقاع.

وعن قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعث مصعباً إلى المدينة حين كتبوا إليه أن يبعثه إليهم ، والأصح قول ابن إسحاق أي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث مصعباً معهم بعد موسم الحج . وأمره النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأمور:
الأول : الدعوة إلى الإسلام .

الثاني : أن يقوم مصعب بقراءة القرآن على الذين حضروا بيعة العقبة وغيرهم ليتدبروا في إعجازه الذاتي والغيري .
الثالث : تعليم الأنصار مبادئ الإسلام وخصائص الرسالة .
الرابع : تفقه الأنصار في الدين .

وكان مصعب يخرج إلى بيوتات المدينة للتبليغ والدعوة إلى الإسلام ، وعن ابن إسحاق بأسناده قال (أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بنى عبد الاشهل ودار بنى ظفر، وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد بن زرارة، فدخل به حائطاً من حوائط بنى ظفر على بئر يقال لها: بئر مرق، فجلسا في الحائط واجتمع إليهما رجال ممن أسلم.

وسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير يومئذ سيدا قومهما من بنى عبد الاشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه.

فلما سمعا به قال سعد لاسيد: لا أبا لك ! انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانهبهما أن يأتيا دارينا، فإنه لو لا أسعد بن زرارة منى حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدما.

قال: فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب: هذا سيد قومه، وقد جاءك، فاصدق الله فيه. قال مصعب: إن يجلس أكلمه.

قال فوقف عليهما متشتما فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

وقال موسى بن عقبة: فقال له غلام: أتيتنا في دارنا بهذا الرعيد الغريب الطريد ليتسفه ضعفاءنا بالباطل ويدعوهم إليه.

قال ابن إسحاق : فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره. قال : أنصفت.

قال : ثم ركز حربته وجلس إليهما ، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن.

فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الاسلام قبل أن يتكلم في إشرافه وتسهله.

ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله ! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟ قالوا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلى.

فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ.

ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه، وهم جلوس في ناديتهم، فلما نظر إليه سعد ابن معاذ مقبلا قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم.

فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت ؟ قال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسا، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت.

وقد حدث أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك.

قال: فقام سعد بن معاذ مغضبا مبادرا تخوفا للذي ذكر له من بنى حارثة، وأخذ الحربة في يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئا.

ثم خرج إليهما سعد، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيدا إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف متشمتا ثم قال لاسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة والله لو لا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا منى، أتغشانا في دارنا بما نكره ؟ قال: وقد قال أسعد لمصعب: جاءك والله سيد من ورائه ﴿ من ﴾ قومه إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان قال: فقال له مصعب: أو تقعد فسمع، فإن رضيت أمرا رغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره.

قال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الاسلام وقرأ عليه القرآن.

وذكر موسى بن عقبة أنه قرأ عليه أول الزخرف.

قال: فعرفنا والله في وجهه الاسلام قبل أن يتكلم، في إشراقه وتسهره.

ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين.

قالا: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق، ثم نصلى ركعتين.

قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين.

ثم أخذ حربته، فأقبل عائدا إلى نادى قومه ومعه أسيد بن الحضير، فلما رآه قومه مقبلا قالوا: نلحف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم.

فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الاشهل كيف تعلمون أمي فيكم ؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمتنا نقيية.

قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله.

قال: فوالله ما أمسى في دار بنى عبد الاشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما أو مسلمة.

ورجع سعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقاما عنده يدعوان الناس إلى الاسلام، حتى لم تبق دار من دور الانصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون.

إلا ما كان من دار بنى أميه بن زيد، وخطمة، ووائل، وواقف، وتلك أوس، وهم من الاوس بن حارثة^(١).

وقد أسلم على يد مصعب بن عمير سعد بن معاذ سيد الأوس ، فقال سعد لبني عبد الأشهل (كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تسلموا فأسلموا فكان من أعظم الناس بركة في الإسلام) ^(١) .

وأصاب سعد بن معاذ سهم يوم الخندق فعاش بعدها شهراً ، ثم أنتقض جرحه فمات سنة خمس للهجرة .

(وقال المنافقون لما خرجت جنازته: ما أخفها فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن الملائكة حملته) ^(٢) .

السادس : لقد كان عدد الأنصار في معركة بدر وأحد أكثر من عدد المهاجرين ، ففي معركة بدر كان عدد المهاجرين إثنين وثمانين رجلاً .

وعدد الأنصار مائتان وواحد وثلاثون رجلاً ، مائة وسبعون من الخزرج وواحد وستون من الأوس .

وعن البراء بن عازب قال (استصغرتُ أنا وابن عمري يومَ بدر ، وَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ يَوْمَ بَدْرٍ نِيفًا عَلَى سِتِّينَ ، وَالْأَنْصَارُ نِيفًا وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ) ^(٣) .

السابع : ليجعل الله عز وجل رجوع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم سالماً من معركة أحد حسرة في قلوب الذين كفروا .

لقد وردت الأخبار إلى المدينة المنورة أن الذين كفروا قادمون لقتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأسر المهاجرين من قريش فظن الذين كفروا ان المدينة ستعود كما كانت قبل الهجرة وسنخية الإيمان التي أفاضتها ، ولكن خاب ظنهم إذ رجع النبي صلى الله عليه وآله

(١) الإصابة في معرفة الصحابة ٤٣٥/١ .

(٢) الإصابة في معرفة الصحابة ٤٣٥/١ .

(٣) صحيح البخاري ٣١٠/١٣ .

وسلم إليها في ذات يوم معركة أحد ، وصلى صلاة المغرب في المدينة فتغشت الذين كفروا الحسرة والأسى من جهات :

الأولى : دخول النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة .

الثانية : إحاطة الصحابة من المهاجرين والأنصار بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مما يدل على عدم خروجهم عن طاعة الله ورسوله مع كثرة القتلى من بينهم وشدة الجراحات التي أصابتهم ، فكما ذكر القرآن خروج المسلمين إلى معركة أحد بانقياد لأوامر النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي هي فرع الوحي فأنهم عادوا معه بذات صبيغ الإنقياد وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(١).

وتبين آيات القرآن حال المسلمين عند عودتهم إلى المدينة من وجوه:
أولاً : نزول الملائكة لنصرة المسلمين .

ثانياً : إخبار القرآن عن حال المسلمين عند نزول المدد السماوي باتصافهم بالإيمان بدليل قوله تعالى ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾^(٢).

ثالثاً : تبين الآية أعلاه رضا الله ورسوله عن المهاجرين والأنصار الذين ثبتوا في ميدان القتال ، وهذا الثبات رشحة من الصبر والتقوى .
رابعاً : تضمن آيات القرآن البشارة والإشارة إلى أن معركة أحد ومع ما لحق المسلمين فيها من الخسارة فانها مقدمة للنصر ، وطريق للغلبة على الذين كفروا لقوله تعالى بخصوص معركة أحد ﴿وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران ١٣٢.

(٢) سورة آل عمران ١٢٤.

(٣) سورة آل عمران ١٢٦.

خامساً : تفضل الله عز وجل بإخبار النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين بحال الذين كفروا عند رجوعهم من المعركة بقوله تعالى ﴿فَيَنْتَقِلُوا خَائِبِينَ﴾^(١).

الثالثة : خروج المؤمنين من أهل المدينة من الرجال الذين أقعدهم العذر ، ومن النساء لإستقبال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتأكد من سلامته وإعلان غببتهم وسعادتهم بنجاته ، وأنها أعظم مؤاساة لهم في الشهداء الذين ضحوا بأنفسهم .

فقد خرجت النساء لرؤية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند عودته خاصة بعد إنتشار إشاعة قتله ، فمر بيوت بني عبد الأشهل وكانوا سيكون على قتلاهم ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم ودموعه تجري على خديه (وَلَكِنْ حَمَزةٌ لَّا بَوَأكِي لَهُ)^(٢) .

وقد يظن أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قصد أنه مات في دار غربة وليس في بيوت بني هاشم في مكة ، ولكن الأصل والمعنى هو مؤاساة النبي صلى الله عليه وآله وسلم للأنصار بأن عمه حمزة هو الآخر قُتل في معركة أحد ، وأن أهل البيت قدموا الشهداء أيضاً ، ولم يستحضر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقائع معركة بدر وكيف أن أول الذين تقدموا للمبارزة وملاقة الأعداء هم أهل البيت بأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فحينما خرج عتبة بن ربيعة وأخوه شيبه وإبنه الوليد بين الصفين ، ولم يرضوا بثلاثة من الأنصار خرجوا لمبارزتهم ، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم (قم يا علي ، قم يا حمزة ، قم يا عبيدة بن الحارث)^(٣) وهو عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ، وكان أكبر

(١) سورة آل عمران ١٢٧.

(٢) مسند أحمد ٢٧٨/١٠.

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٥٥/٣.

المسلمين سنأ وأستشهد في معركة بدر و(كان أسن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعشر سنين)^(١).

وقيل أسلم قبل أن يدخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم دار الأرقم بن أبي الأرقم وهاجر إلى المدينة مع أخويه الطفيل والحصين إبنى الحارث اللذين شاركوا في معركة بدر وماتا في السنة الثلاثين .

وكان للحارث منزلة وشأناً عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبعثه بسرية في ربيع الأول سنة إثنين للهجرة في ثمانين ركباً ، وقيل في ستين ، ومن خصائص هذه السرية أن كل أفرادها من المهاجرين ، وليس فيها أنصاري واحد.

الرابعة : مرور النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عند عودته من معركة أحد ببيوت الأنصار في دلالة على حبه لهم ، وحبههم له حتى مع كثرة الشهداء الذين سقطوا منهم ، وهذا المرور من مصاديق قوله تعالى ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ .

ومن الآيات في المقام أن نساء الأنصار أظهرن الولاء التام للنبي عند عودته وكأنه تجديد للبيعة .

وحينما مرّ النبي على بني النجار خرجت امرأة قد قتل أبوها وزوجها وأخوها مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في معركة أحد وعندما نعا إليها بادرت للسؤال عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : خيراً يا أم فلان هو بمحمد الله كما تحبين ، ومع عظم مصيبتها لم تكتف بقولهم هذا بل أصرت على رؤيته سالماً معافى قد رجع وعادت معه إلى مدينة النبوة والتنزيل والفخر والمجد إلى يوم القيامة (قال : أرونيه حتى أنظر إليه ، فأشاروا لها إليه ، حتى إذا رآته قالت : « كل مصيبة بعدك جلل »)^(٢).

(١) الإستيعاب ٣١٣/١.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٣٦٤/٣.

ليكون قول وفعل هذه المؤمنة من مصاديق الحسرة التي جعلها الله عز وجل في قلوب الذين كفروا .

وهل الحسرة المترشحة عن فعل المؤمنة أعلاه متحدة أم متعددة ، الجواب هو الثاني ، وتقدير الجمع بين الآية الكريمة والخبر أعلاه على جهات:

الأولى : قالت أروني النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ليجعل الله ذلك حسرة في قلوب الذين كفروا .

الثانية : قالت حتى أنظر إليه ليجعل الله ذلك القول حسرة في قلوب الذين كفروا .

الثالثة : خيبة الذين كفروا والمنافقين من الكيفية الإيمانية التي تلقت بها هذه المؤمنة قتل أبيها وزوجها وأخيها ليجعل الله ذلك حسرة في قلوب الذين كفروا فقد كانوا يظنون أن كلامهم ﴿لَوْ كُنَّا عِنْدَ مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ يبعث السأم والأذى في نفوس عوائل الشهداء أو يجعلهم ينشغلون بمصيبتهم ويتلاومون بسبب الأذى الذي أصابهم بعد خروجهم لقتال الذين كفروا ، ولكن عوائل المؤمنين أظهرت الصبر والرضا بأمر الله ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١).

الرابعة : تقديم الأنصارية رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الإنشغال بمصيبتها وتلقي التعازي ، ليجعل الله ذلك حسرة في قلوب الذين كفروا .

الخامسة : إستجابة الصحابة لسؤالها رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإشارتهم إليه ، مما يدل على أنه كان محاطاً بالصحابة وأنهم يعلمون مكانه ليجعل الله ذلك حسرة في قلوب الذين كفروا

السادسة : إجابة الصحابة للأنصارية بلغة الإكرام والتسليم بأنها لا تحب إلا أن ترى النبي صلى الله عليه وآله وسلم حياً وبخير وسلام إذ ردوا عليها : بحمد الله كما تحبين) ليجعل الله ذلك حسرة في قلوب الذين كفروا .

السابعة : مشاطرة الصحابة من المهاجرين والأنصار غبطة الأنصارية بسلامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتقديمهم الشكر لله عز وجل ، إذ قالوا (هو بحمد الله) ليجعل الله ذلك حسرة في قلوب الذين كفروا .

الثامنة : بيان إرتقاء المسلمين في سلم المعارف الإلهية إذ أنهم لم يجيئوها إلا بلغة الحمد والثناء على الله لسلامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليجعل الله ذلك حسرة في قلوب الذين كفروا .

التاسعة : إقرار المسلمين بأن نجاة المسلمين بآية من عند الله عز وجل خاصة وأنهم يعلمون بصيرورة العدو قريباً منه وتصله نبالهم وحجارتهم ، ولكن الله تعالى نجاه وسلمه ليجعل ذلك حسرة في قلوب الذين كفروا ، قال تعالى ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدَهُ مَا يَغِیْظُ﴾^(١).

العاشرة : إعلان المؤمنة بصوت جهوري بأن كل مصيبة بعد سلامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر سهل ويسير ليجعل الله ذلك حسرة في قلوب الذين كفروا .

الحادية عشرة : صيرورة هذه المؤمنة أسوة للنساء والرجال من الأنصار ليجعل الله ذلك حسرة في قلوب الذين كفروا .

الثانية عشرة : تأكيد خيبة الذين كفروا والمنافقين في الأيام والمعارك اللاحقة لمعركة أحد ، لأن إعلان الأنصارية وجواب الصحابة لها شاهدان على إستعداد المسلمين للخروج مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المعارك اللاحقة ليجعل الله ذلك حسرة في قلوب الذين كفروا.

الثامن : ليجعل الله عز وجل إلتعاض وإنتفاع المسلمين من خطأ وزلل الرماة بالنزول من الجبل حسرة في قلوب الذين كفروا بعد أن نزل الرماة المسلمون من مواضعهم على الجبل طمعاً بجمع الغنائم مع تأكيد النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليهم بعدم تركها بأي حال من الأحوال ، ووعدهم باستيفاء حصتهم من الغنائم ، وقد تقدم في معركة بدر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سار في ميدان المعركة مسافة ثم قام بتوزيع الغنائم ، ولعل الرماة أرادوا أسر عدد من المشركين لأن بدل ونداء الأسير يعود ملكاً طلقاً للذي أسره ، ولكن من الأسرى ما قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بتوزيعهم على الصحابة ، قال ابن أسحاق (وحدثني نبيه بن وهب اخو بنى عبد الدار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اقبل بالاسارى فرقمهم بين اصحابه وقال استوصوا بهم خيراً)^(١) وأطلق عدداً من الأسرى ، وجعل فداء بعضهم تعليم صبيان الأنصار .

وبعد أن أرسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة بشيرين إلى أهل المدينة بالنصر ، وعندما وصل إلى مضيق الصفراء قام بتوزيع النفل بين المسلمين بالتساوي .
والصفراء قرية في قديم الزمان في بدايات الوادي وتبعد عن المدينة المنورة مائة وثلاثين كيلو متراً وتسمى في هذه الأيام قرية الواسطة ، وبقي وادي الصفراء على تسميته .

وكان العدو يرجون صيرورة هذا النزول سبباً لهزيمة المسلمين في ميدان المعركة ، ومادة للخلاف والخصومة بينهم بعد إنقضائها ، ولكن أياً من الأمرين لم يقع ليصاب الذين كفروا بالأسى وهو من مصاديق الكبت في قوله تعالى ﴿أُوْكَبِّهٖمُ﴾.

التاسع : ليجعل الله بطلان إشاعة قتل النبي حسرة في قلوب الذين كفروا والمنافقين .

لقد إتصفت معركة أحد بمسألة وهي إنتشار خبر قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بين صفوف الفريقين ، وتقدير الآية السابقة يوم إلتقى الجمعان فتلقوا إشاعة قتل النبي ، فكانت بهجة زائلة عند الذين أشركوا وحزناً عند المسلمين وسرعان ما إنكشف كذب هذه الإشاعة لتبقى الحسرة بسبب هذه الإشاعة وبطلانها دائمة في نفوس الذين كفروا .

فمع سلامة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من القتل في معركة أحد في السنة الثالثة للهجرة إستمر التنزيل والفتوحات ودخول الناس في الإسلام إلى أن نزل قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾^(١).

لتكون الآية أعلاه شاهداً سماوياً نزل لاحقاً يدل على حفظ الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في معركة أحد إلى أن يتم إكمال الدين ، إذ نزلت الآية أعلاه في حجة الوداع (عن أبي سعيد الخدري قال « لما نصب رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً يوم غدير خم فنأدى له بالولاية ، هبط جبريل عليه بهذه الآية { اليوم أكملت لكم دينكم } »)^(٢).

العاشر : من معاني اسم الإشارة (ذلك) إرادة البعد وإفادة مضامين الآيات القرآنية التي تقدمت في ذات موضوع آية البحث وهو

(١) سورة المائدة ٣.

(٢) الدر المنثور ٣/ ٣٢٣.

معركة أحد ومقدماتها ، وما يترشح عنها إذ أنها تبدأ من قبل ست وثلاثين آية قرآنية ، ومن قوله تعالى ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾^(١) .

مما يستلزم تقدير قوله تعالى ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾^(٢) تأليف مجلدات عديدة تبين مصاديق الأسى والأسف التي أصابت الذين كفروا والمنافقين في إستعداد وخروج وقتال المسلمين في معركة أحد تحت لواء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

الحادي عشر : من إعجاز آية البحث صيرورتها سبباً لإلغاء الحسرة في قلوب الذين كفروا من وجوه :

أولاً : تعلق أسب اب نزول آية البحث بخصوص معركة أحد .

ثانياً : تعدد الغايات الحميدة من آية البحث ، وقد جعل الله كل غاية منها سبباً ونوع طريق لإحاطة الحسرة بقلوب الذين كفروا .

ثالثاً : نفرة المسلمين من مفاهيم الكفر وإعراضهم عن الذين كفروا باعث للحسرة في قلوب الذين كفروا .

رابعاً : دعوة عوائل الذين كفروا لمعرفةهم بخصال الكفر وما فيها من الجحود والعناد والضلالة في ذات الوقت الذي تتوجه فيه المعجزات وسبل الجذب إلى الإسلام على نحو مباشر وبالواسطة ، وكل فرد منها يدعوهم إلى الإيمان لتملاً الحسرة قلوب الذين كفروا .

الثاني عشر : لقد أنزل الله عز وجل آيات عديدة تبين منزلة الشهداء وكونهم أحياء عند الله وهم بخير حال وتغبطهم الملائكة والخلائق لتغزوا الحسرة قلوب الذين كفروا من جهات :

(١) سورة آل عمران ١٢١.

(٢) سورة آل عمران ١٥٦.

الأولى : نزول كل آية بخصوص الشهداء والعز الدائم بالقتل في سبيل الله، قال تعالى في بيان حالهم ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(١).

الثانية : تكفير الشهادة للذنوب إلا الأمانة وردھا .

الثالثة : تطلع الشهداء إلى إخوانهم الذين يلحقون بهم بالشهادة في المعارك اللاحقة للإسلام ، وفي مرسله (إسحق بن عبد الله بن أبي فروة قال : حدثنا بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إن الشهداء ثلاثة ، فأدنى الشهداء عند الله منزلة رجل خرج منبوءاً بنفسه وماله لا يريد أن يقتل ولا يُقتل أتاه سهم غرب فأصابه فأول قطرة تقطر من دمه يغفر له ما تقدم من ذنبه ، ثم يهبط الله جسداً من السماء يجعل فيه روحه ثم يصعد به إلى الله ، فما يمر بسماء من السموات إلا شيعته الملائكة حتى ينتهي إلى الله ، فإذا انتهى به وقع ساجداً ، ثم يؤمر به فيكسى سبعين حلة من الاستبرق ، ثم يقال : اذهبوا به إلى إخوانه من الشهداء فاجعلوه معهم ، فيؤتى به إليهم وهم في قبة خضراء عند باب الجنة يخرج عليهم غداؤهم من الجنة»^(٢).

وورد عن سعيد بن جبیر (في قوله { ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم }^(٣)) قال : لما دخلوا الجنة ورأوا ما فيها من الكرامة للشهداء قالوا : يا ليت إخواننا الذين في الدنيا يعلمون ما صرنا فيه من الكرامة ، فإذا شهدوا القتال بأشروها بأنفسهم حتى يستشهدوا فيصيبون ما أصابنا من الخير ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأمرهم ، وما هم فيه من الكرامة ، وأخبرهم أنني قد أنزلت على نبيكم ، وأخبرته بأمركم وما أنتم فيه من الكرامة ، فاستبشروا بذلك . فذلك قوله { ويستبشرون

(١) سورة آل عمران ١٧٠.

(٢) الدر المنثور ٤٨٥/٢.

(٣) سورة آل عمران ١٧٠.

بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم { يعني إخوانهم من أهل الدنيا أنهم سيحرصون على الجهاد ويلحقون بهم }^(١).

الرابعة : تلقي إخوة وعوائل الذين قتلوا في سبيل الله نبأ قتلهم بالرضا والقبول والسعادة ، وهو من مصاديق الطمأنينة والسكينة التي تملأ قلوب المسلمين بذكر الله بلحاظ أمور :

أولاً : خروج الشهداء للمعركة بقصد القربة إلى الله عز وجل .

ثانياً : بذل الشهداء الوسع في الدفاع فلم يقتل أحدهم وهو مدبر أو هارب مع شدة بطش العدو وكثرة أفراد جيشه .

ثالثاً : دفاع الشهداء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والإسلام وثباتهم في مقامات الإيمان وسلامتهم من الشك والريب .

رابعاً : توالي نزول الآيات التي تدل على سلامة إختيار المسلمين الدفاع عن الإسلام.

خامساً : تحقق النصر والغلبة للمسلمين في معارك الإسلام الأولى ، ليكون نفع المسلمين من كل قطرة دم للشهيد حالاً وعظيماً.

سادساً : من منافع توالي نزول آيات القرآن وتضمنها الثناء على الشهداء عدم إصغاء المؤمنين لصّد الذين كفروا وتحريضهم على القعود، وإذ وردت الآية بنسبة وصلة الأخوة بين الذين كفروا والشهداء من المؤمنين ، فهل ينظر المؤمنون المؤمنون للذين كفروا بذات صلة الأخوة، الجواب لا، إذ يتقيد الأنصار والمهاجرون أخوة الإيمان، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾^(٢).

سابعاً : فضح آيات القرآن للمنافقين، وكشف لؤم طويتهم ، وتحذير المسلمين والمسلمات منهم.

(١) الدر المنثور ٢/٤٨٦.

(٢) سورة الحجرات ١٠.

ثامناً : ذكر القرآن للمنافقات على نحو التعيين، ولم يمنع منه إزدراء بعضهم للمرأة أو القول بأنها عورة، أو لأن أثر المناققة قليل في أيام الإسلام الأولى وإنشغال المسلمين بالقتال.

إذ ذكر لفظ (المنافقات) خمس مرات في القرآن منها قوله تعالى ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾^(١)، والأربعة الأخرى بخصوص عالم الآخرة وما ينتظرهن بالذات من العذاب الأليم^(٢).

الثالث عشر : ليجعل الله عز وجل صيرورة المسلمين في حال سعة وغنى حسرة في قلوب الذين كفروا .

بعد أن كان المسلمون في ضيق تبدلت حالهم بعد معركة بدر لذا تفضل الله عز وجل بقوله ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدْرٍ وَأَتَمَّتْ إِذِلَّةٌ﴾^(٣) ليكون نصر المسلمين من جهات كثيرة ، كل جهة تبعث الحسرة في قلوب الذين كفروا ، ويحتمل قول الذين كفروا بأنه لو بقي إخواننا معنا قاعدين لم يضربوا في الأرض ولم يخرجوا في سرايا الإستطلاع ونحوها لم يموتوا ولم يقتلوا وجوهاً :

أولاً : إرادة خصوص معركة أحد بلحاظ أنها سبب وموضوع النزول .

ثانياً : المقصود الخروج لمعركة أحد وما بعدها من معارك الإسلام .

ثالثاً : شمول معركة بدر وإن تقدم زمانها على أوان نزول آية البحث.

والمختار صحة الوجوه الثلاثة أعلاه لبيان حقيقة وهي أن الحسرة التي نفذت إلى قلوب الذين كفروا لم تبدأ بمعركة أحد ، ترى ما هي

(١) سورة التوبة ٦٧.

(٢) أنظر سورة التوبة ٦٨ - سورة الأحزاب ٧٣ - سورة الحج ٦ - سورة الحديد ١٣.

(٣) سورة آل عمران ١٢٣.

الأسباب المترشحة عن معركة بدر التي تخلف الحسرة والندامة في قلوب الذين كفروا ، فيه وجوه :

أولاً : خروج المسلمين إلى معركة بدر مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتحت لوائه .

ثانياً : مع إقتصار بيعة العقبة على إعانة ونصرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة ، فان الأنصار بادروا إلى الخروج معه إلى ميدان معركة بدر ، ففوجئ الذين كفروا بخروج الأنصار مع المهاجرين مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم للقاء العدو ، مما قذف الحسرة في قلوب الذين كفروا هذا قبل أن تأتي نتائج المعركة والنصر فيها .

فان قلت يدل موضوع الآية في قوله تعالى ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ على صدور قولهم بعد حصول القتل وكثرة الجراحات وسقوط القتلى ، والجواب من جهات :

الأولى : تعدد وكثرة أسباب الحسرة التي تغزو قلوب الذين كفروا .
الثانية : إفادة قوله تعالى ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أنها حسرة مستحدثة تضاف إلى وجوه أخرى من الحسرة التي أصابت الذين كفروا ، لذا وردت الآية بصيغة التنكير .

وتقدير الآية ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم بالإضافة إلى ما سبقها من الحسرات .

الثالثة : تأكيد قانون الملازمة بين الكفر والحسرة ، فالكفر بالله عز وجل سبب للحسرة ، وكذا الكفر بمعجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومنها تفاني المسلمين في طاعة الله ورسوله .

ثالثاً : إمتلاء أزقة المدينة المنورة بالأسرى من رجالات قريش ، إذ كان عددهم سبعين أسيراً ، ولم تكن المدينة آنذاك ذات سعة وشوارع ،

ومن الآيات في المقام أن المسلمين لم يحبسوا الأسرى في سجن أو مكان مخصوص.

رابعاً : قيام الأسرى بتعليم أبناء الأنصار الكتابة والقراءة، لبيان تأسيس دولة العلم والعلوم بأشراق الإسلام ، وفيه أمانة على أن أحكام الشريعة ستنتشر بالعلم، والقرآن بالتلاوة والكتابة والنسخ.

خامساً : وفود رجال من قريش، ومعهم الأموال من الذهب والفضة لفكك أسراهم.

الرابع عشر : لما احتجت الملائكة على خلافة آدم في الأرض بأن ذريته يندسون الأرض بفسادهم ، ويؤذونها بسيلان الدماء ظلماً عليها أجابهم الله عز وجل ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١) فانقادوا لأمر الله عز وجل ولهجوا بالإستغفار لعلمهم بأن آيات من علم الله ستري في الأرض ، ومنها النداء القرآني ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ونزوله في القرآن على نحو التكرار والتعدد ، ويبعث كل فرد منها الحسرة في قلوب الذين كفروا .

فان قلت هذا بعد بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما هو الحال قبل إطلالة إشراقتها .

الجواب هناك ملازمة بين حياة الإنسان على الأرض والنبوة ، إذ ابتدأت بآدم عليه السلام فقد كان نبياً رسولاً ، وفي الفترة التي ليس فيها نبي يعمل المؤمنون من أهل الأرض بالشريعة التي جاء بها الرسول السابق ، وكانت بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿عَلَى قَرَّةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾^(٢) فلم تنقطع عبادة الله في تلك الفترة وكانت وعاءاً زمانياً للبشارة برسالاته والتطلع إلى أيام نبوته.

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة المائدة ١٩.

(قال علي عليه السلام: ليس في القرآن يا أيها الذين آمنوا إلا وهي في التوراة يا أيها الناس، وفي خبر آخر يا أيها المساكين) (١).
ومن علم الله عز وجل الذي إحتج به على الملائكة أنه سبحانه قريب من الناس ليس من برزخ أو حاجب يفصله عن المؤمنين ، وعن الإمام علي عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن موسى بن عمران عليه السلام سأل ربه عز وجل وقال : يا رب أبعد أنت مني فاناديك ؟ أم قريب فاناجيك ؟ فأوحى الله عز وجل إليه: يا موسى بن عمران أنا جليس من ذكرني) (٢).

لقد هبط آدم إلى الأرض نبياً لتستديم الصلة بين الله عز وجل وبين الناس ، وليس من حصر لأفراد ومصاديق الرحمة النازلة من عند الله لتتجلى معاني قوى الصعود بالعبادة وسنن التقوى والإستغفار أما الذين كفروا ، فيتلقون النعم من عند الله ويقابلونها بالصدود ، ومحاولة منع المؤمنين عن جلب الخير والبركة لهم ولذراريهم ، فتفضل الله بنعمة عظمت وهي آية البحث بأن أخبر المسلمين بسوء فعل الذين كفروا وحذرهم منهم ، وفيه بيان لجهالة الذين كفروا بسعيهم لغلغ أبواب الرحمة عن أنفسهم ، فمن معاني تقدير الآية مخاطبة الذين كفروا من جهات :

الأولى : إيمان إخوانكم من الأنصار خير محض وفضل من عند الله عز وجل عليكم .

الثانية : يغادر المؤمنون المدينة طلباً للرزق من أجل عز الإسلام ودفع الفقر والفاقة عن أهلها .

الثالثة : قيام المؤمنين بالدفاع واقية وأمن لأهل المدينة جميعاً من المسلمين واليهود والذين كفروا ، فمع خروج المسلمين بسرايا قتالية فان

(١) البحار ٩٠ / ١٤٢ .

(٢) البحار ١٣ / ٣٤٥ .

كفار مكة زحفوا عليها بجيوش عظيمة للبطش والفتك والنهب والسبي ، وكانت في المدينة آنذاك أسواق ، كما أنشأ النبي صلى الله عليه وآله وسلم سوقاً ، ولا يميز الغزاة المشركون بين سوق وآخر ، لذا أولى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عناية خاصة بكيفية إنسحاب الذين كفروا من معركة أحد وليطمئن أنهم لم يتوجهوا إلى المدينة مع عزمه على منعهم من دخولها .

وبين وقائع معركة بدر ومعركة أحد عموم وخصوص من وجه فمادة الالتقاء هو تحقق النصر للمسلمين ، أما مادة الإفتراق فهي ليس من جولة للذين كفروا في معركة بدر ، وكانت لهم جولة وزحف في معركة أحد ، فلما إنصرف المشركون يوم أحد خشي المسلمون عكوفهم على المدينة وهجومهم عليها وليس فيها إلا النساء والأطفال وذوو الأعدار إلى جانب الذين كفروا والمنافقين واليهود .

(فأشفق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون فاشتدت شفقتهم من أن يغير المشركون على المدينة فتهلك الذراري والنساء، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لسعد ابن أبي وقاص: إئتنا بخبر القوم، إن ركبوا الإبل وجنبوا الخيل فهو الظعن، وإن ركبوا الخيل وجنبوا الإبل فهي الغارة على المدينة، والذي نفسي بيده، لئن ساروا إليها لأسيرن إليهم ثم لأناجزنهم)^(١) والمراد من الظعن هنا إرادة الذين كفروا السفر إلى مكة .

ولم تذكر آية البحث خوف وتخويف الذين كفروا بهجوم جيش الكفار على المدينة وإستباحتهم لها ، فهل كانوا يعلمون أنهم لن يصلوا إليها ، إذ يدل قوله تعالى ﴿وَقَالُوا لَإِخْوَانَهُمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ...﴾ في مفهومه بأن المؤمنين من الأنصار إذا كانوا قاعدين في المدينة فلن يضرهم دخول الكفار لها غازين .

الجواب قد أرسل رجالات قريش من الكفار خبراً إلى المدينة قبل المعركة أنهم يرومون قتل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وأسر الصحابة من المهاجرين وإعادتهم إلى مكة . ليكون إنسحاب الذين كفروا من معركة أحد على نحو مفاجئ ومن دون تحقيق أي غاية من غاياتهم الخبيثة من مصاديق اسم الإشارة في قوله تعالى ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

ولم تكن مسألة غزو المدينة بعيدة عن أذهان جيش الكفار يوم معركة أحد وحتى عند إنقضائها وقبل توجههم إلى مكة وأثناء الطريق إليها إذ (وقفوا وقفةً بالعقيق وتشاوروا في دخول المدينة، فقال لهم صفوان بن أمية: قد أصبتم القوم، فانصرفوا فلا تدخلوا عليهم وأنتم كالون، ولكم الظفر، فإنكم لا تدرون ما يغشاكم. قد وليتم يوم بدر، والله ما تبعوكم الظفر لهم! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: نهاهم صفوان) ^(١).

ومع صدور هذا النهي من أحد أقطاب الكفر إلا أنه يخلف الحسرة والأسى في قلوب الذين كفروا لبيان قانون وهو مجيء الحسرة إلى الذين كفروا وغزوها لقلوبهم حتى من أقوال وأفعال الذين كفروا أنفسهم .
الخامس عشر : لقد أخبر الله عز وجل بأنه يقذف في قلوب الذين كفروا الرعب والخوف ، قال تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ..﴾ ^(٢) وذكرت آية البحث أمراً آخر حالاً في قلوبهم وهو الحسرة لتكون النسبة بينهما على وجوه :

الأول : نسبة التساوي وأن الحسرة في آية البحث هي ذاتها الرعب الذي تذكره الآية أعلاه .

(١) المغازي / ١ / ١١٢.

(٢) سورة آل عمران ١٥١.

الثاني : نسبة العموم والخصوص من وجه ، فهناك مادة للإلتقاء بين الرعب والحسرة ، وهناك مادة للإفتراق .

الثالث : نسبة العموم والخصوص المطلق ، وهو على شعبتين :
الأولى : الحسرة أعم من الرعب ، وكل حسرة هي رعب وليس العكس .

الثانية : الرعب أعم من الحسرة ، وكل رعب هو حسرة مع إمتناع النقيض .

والمختار هو الثاني أعلاه ، فمادة الإلتقاء من وجوه :
أولاً : كل من الرعب والحسرة عقاب عاجل من عند الله على التلبس بالكفر .

ثانياً : إتحاد المحل لكل من الرعب والحسرة وهي قلوب الذين كفروا لبيان سلامة قلوب المؤمنين من الرعب والحسرة .

ثالثاً : ترتب الأذى للذين كفروا من جهات :

الأولى : إلقاء الرعب في قلوبهم .

الثانية : إستقراء الحسرة في قلوبهم .

الثالثة : إجتماع الرعب والحسرة في قلوبهم .

الرابعة : إدراك علة وسبب مجئ الرعب والكفر ، وهو الإصرار على الكفر ، والسعي في محاربة الإسلام .

أما مادة الإفتراق فمن وجوه :

أولاً : إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا من عند الله عز وجل من غير واسطة سببية ، بينما تضمنت آية البحث الإشارة إلى مقدمات وأسباب الحسرة .

ثانياً : بيان علة إلقاء الرعب وهو الشرك بالله بينما تكون علة إلقاء الحسرة في قلوبهم متعددة وتشمل قبيح فعلهم وحسد هم .

ثالثاً : بيان حقيقة وهي بعث الرعب والوهن بين صفوف الذين كفروا وهو مناسبة لنصر الإسلام وسلامة المؤمنين في ميدان القتال فيكون سبباً لقذف الحسرة في قلوب الذين كفروا .

رابعاً : حلول الرعب في قلوب الذين كفروا مطلقاً ومجئ آية ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ بخصوص كفار مكة الذين زحفوا لقتال المسلمين في معركة أحد ، وإن كان موضوع الآية أعم^(١) بينما جاءت آية البحث في ذم الذين كفروا والمنافقين من أهل المدينة لبيان أن الذين كفروا يحيطون بالمسلمين وبين ظهرائهم ، ولكن آيات القرآن كانت سلاحاً ومدداً وعوناً للمسلمين ، وسبباً في إلقاء الحسرة في نفوس الذين كفروا .

واحتمل الصلة بين إلقاء الرعب وقذف الحسرة في قلوب الذين كفروا وجوهاً :

الأول : بقاء كل من الرعب والحسرة على حاله في القلب كالمتجاورين .

الثاني : تجلي أثر كل من الرعب والحسرة بحسب مناسبة الموضوع والحكم وهو على شعب :

الأولى : يستحوذ الرعب على قلب الكافر كما في حال الحروب ومقدماتها ، وعن الإمام علي عليه السلام قال (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهوراً، وَأُعْطِيتُ جِوَامِعَ الْكَلِمِ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحُلْ لِنَبِيِّ كَانَ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، خَمْسٌ لَمْ يُؤْتَهُنَّ نَبِيٌّ كَانَ قَبْلِي)^(٢).

(١) أنظر الجزء التاسع عشر بعد المائة الذي جاء خاصاً بتفسير الآية أعلاه من سورة سورة آل عمران .

(٢) تفسير الطبري ٧٠/١٤.

الثانية : إمتلاء قلوب الكافرين بالحسرة عند حدوث أسبابها كما في آية البحث ، وخروج المؤمنين للجهاد تحت راية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

الثالثة : خلو قلب الكافر من أثر الرعب والحسرة أحياناً رحمة من عند الله ، وصيرورته مناسبة للتدبر والإنابة ، ولكن هذا المعنى خلاف منطوق القرآن ، وواقع الكفار ومن رحمة الله عز وجل بهم قانون الملازمة بين الكفر وإقتباض النفس .

الثالث : التداخل بين الرعب والحسرة وإجتماعهما بالذات في قلب الكافر والأثر في قوله وفعله .

الرابع : صيرورة الرعب سبباً لأفراد إضافية من الحسرة ، وكذا العكس بأن تكون الحسرة علة لظرو مصاديق مستحدثة ومتعددة من الخوف والرعب في قلوب الذين كفروا .

الخامس : التباين في حال الذين كفروا ، فمنهم من يغلب عليه الرعب ، ومنهم من تستحوذ عليه الحسرة وإن كانوا في موضع واحد . وباستثناء الشعبة الثالثة والوجه الخامس أعلاه فإن الوجوه الأخرى كلها مما أصاب الذين كفروا من الأذى والضرر النفسي ليكون مقدمة لمنع من التعدي على الإسلام ، ويكون هذا المنع مناسبة لتثبيت أحكامه في الأرض ، وتفقه المسلمين في الدين ، وصيرورة الفرائض العبادية جزءاً من الوجود الذهني والواقع اليومي لهم .

ليكون التداخل بين الرعب والحسرة ومصاحبتها للكافرين من مصاديق اسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾ في قوله تعالى ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ .

ومن الآيات أن هذه المصاحبة لا تختص بحال الذين كفروا وتكون حاضرة في متدياتهم ، فإن قلت لماذا لم تذكره الآية ، وتبين أثر الحسرة في مجتمعات الكفر والضلالة ، الجواب ينزل القرآن بالأصل ، لتدل

الوقائع والتدبر والدراسات على فروعها ، وما يترشح عنه ، فتأتي مدارس علم الاجتماع ، واختصاصات علم النفس لتبين الصلة بين حال قلب الإنسان وفعله وكيف تنعكس حال الانقباض أو الانشراح على الفعل ، ليكون مرآة لما في بواطن الإنسان ، وفيه دعوة لمعرفة الذين كفروا بما يصدر عليهم من الأقوال والأفعال .

السادس عشر : لقد جاءت آية البحث بصيغة الفعل المضارع في قوله تعالى ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى : إنه شاهد على تجدد مصاديق الحسرة التي تغزو قلوب الذين كفروا ، وتأتي هذه الحسرة من جهات :

الأولى : حدوث وقائع تؤدي إلى حصول أفراد جديدة من الحسرة.

الثانية : توالي نزول آيات القرآن ، ويحتمل هذا النزول وجوهاً :

أولاً : كل آية تنزل من آيات القرآن سبب لبعث الحسرة في قلوب الذين كفروا .

ثانياً : تتعلق الحسرة بخصوص موضوع الآية ، فإذا كانت الآية النازلة تدم الذين كفروا ، وتفضح نواياهم فإنها تبعث الحسرة في نفوسهم .

ثالثاً : إذا إنشغل الكفار بأنفسهم ومعاشهم لا يلتفتون إلى الآيات النازلة من القرآن بما يكون سبباً للحسرة في نفوسهم .

والصحيح هو أولاً أعلاه ، وتترشح الحسرة من وجوه :

أولاً : ذات نزول الآية القرآنية من عند الله .

ثانياً : تجلي معاني الإعجاز في الآية القرآنية .

ثالثاً : شهادة الآية القرآنية على صدق نبوة محمد صلى الله عليه

وآله وسلم .

رابعاً : حال النبي وأثر وقوع التنزيل عليه ، إذ يتصبب جبينه عرقاً

في اليوم الشديد البرودة عندما ينزل عليه القرآن .

خامساً : تلقي المسلمين الآية القرآنية النازلة بالعبادة والقيام بهم بتبليغها ونشرها فيما بينهم ، وإظهار الغبطة بتلاوتها ، وهو أمر يبعث الحسرة في قلوب الذين كفروا .

سادساً : عمل المسلمين بمضامين الآية القرآنية ، وهو من أسرار صيغة الفعل المضارع ﴿لِيَجْعَلَ﴾ وتجدد الحسرة في قلوب الذين كفروا .

سابعاً : قيام المسلمين بالتدريس في مضامين الآية القرآنية النازلة على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتفسيرها وتعلم ما فيها ومنها آية البحث إذ تتضمن أموراً :

الأول : بعث المسلمين على التدبر في نداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وإلحلال معاني الإكرام به لهم جميعاً رجالاً ومساءً .

الثاني : لزوم شكر المسلمين لله عز وجل على تفضله بمناداتهم واستنهاضهم لما فيه صلاحهم ، ونفعهم في الدنيا والآخرة بنداء الإيمان .

الثالث : دعوة المسلمين للتآخي والتآزر بينهم كأمة متحدة ، ومن منافع هذا التآزر التوقي من محاكاة الذين كفروا والتشبه بهم .
وتقدم مزيد كلام في باب (إكرام الآية للمسلمين) (١) .

الرابع : تلاوة المسلمين للآية القرآنية وصيروتها سبباً لبعث الحسرة في نفوس الذين كفروا من وجوه :

أولاً : قراءة المسلمين الآية القرآنية في الصلاة .

ثانياً : تلاوة إمام الجماعة الآية القرآنية وإصغاء المأمومين له .

ثالثاً : تلاوة المسلمين والمسلمات للآية القرآنية خارج الصلاة جهراً وإخفاً .

رابعاً : عناية المسلمين بالقرآن تفسيراً ، وحرصهم على إتخاذه إماماً وضيأً ، ورجاؤهم شفاعته .

(١) أنظر ص ١٧١ من هذا الجزء المبارك .

الجهة الثالثة : تأتي الحسرة للذين كفروا بخروج المسلمين إلى الدفاع مع الحيلة وقيامهم بالضرب في الأرض وعدم الإصغاء إلى قول الذين كفروا ، ليكون هذا الخروج باعثاً للخيبة والحسرة في نفوسهم .
الرابعة : تقيد المسلمين بطاعة الله ورسوله في حال الحرب والسلام والمهادنة .

الخامسة : تعاون وتكافل عوائل المسلمين فيما بينهم وحثهم الآباء والأخوة والأبناء على النفي والدفاع عن الإسلام والنبوة .

المسألة الثانية : من معاني صيغة المضارع في آية البحث ﴿يَجْعَلُ﴾ إزدياد منعة المسلمين وسلامتهم من القتل والأسرف في كل مرة يندب الكفار إخوانهم من الأنصار الذين قتلوا في معارك الإسلام بلغة الشماتة وتحريض الأحياء منهم على الخروج إلى القتال ، ولكن المسلمين يبادرون إلى الجهاد ويرجعون بالظفر والنصر والغنائم فيكون كل فرد منها سبباً لبعث الحسرة في قلوب الذين كفروا .

المسألة الثالثة : إفادة اسم الإشارة (ذلك) الإخبار عن توالي وإستحداث مصاديق وأسباب للحسرة التي تغزو قلوب الذين كفروا ، وهل يستطيع المسلمون وغيرهم معرفة وإحصاء هذه الأسباب ، الجواب لا ، ففي كل يوم تشرق فيه الشمس تطل على الذين كفروا أسباب تبعث الحسرة في قلوبهم وتغزوهم بالأسى والندامة .
وتحتمل هذه الأسباب وجوهاً :

الأول : إنها رحمة بالمسلمين وباعث للغبطة والرضا في نفوسهم .
الثاني : ليس من ملازمة بين بعث الأمر والفعل الحسرة في قلوب الذين كفروا وبين صيرورته سبباً لغبطة ورضا الذين آمنوا .

الثالث : تقدم موضوع عز ورفعة المسلمين على نزول الحسرة في قلوب الذين كفروا بلحاظ أنها أثر مترتب على النصر الذي يحققه المسلمون ، ولا يختص هذا النصر بميدان القتال ، ففي دخول أي فرد للإسلام رجلاً كان أو امرأة وجوه :

أولاً : إنه نصر للإسلام .

ثانياً : إضافة فرد وشأن لعدد الذين يتلقون نداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ .

ثالثاً : إنه سبب لسعادة وفرح الملائكة وهم في السماء .
رابعاً : فيه إلقاء للحسرة في قلوب الذين كفروا ، وبعث لليأس في نفوسهم وإقرار بالعجز عن منع الناس عن دخول الإسلام .
خامساً : إنه تذكير عملي للذين كفروا والناس جميعاً بلزوم التوبة والصلاح ، ومن معاني رحمة الله عز وجل بالناس في الحياة الدنيا أنه في كل مرة تتجدد فيها ضروب وأسباب الحسرة تكون مناسبة للتوبة والإنابة ، وبعث للنفرة في نفوس الذين كفروا من الكفر وما يترشح عنه من قبيح القول والفعل ومنه سعيهم لصد المسلمين عن الدفاع عن الإسلام والتنزيل .

وآية البحث من رحمة الله عز وجل بالناس من جهات :
الأولى : ترغيب الناس بالإسلام بنداء التشريف والإكرام النازل من السماء ، فقد جعل الله عز وجل الإنسان بطبعه يحب ذاته ويسعى لجلب النفع لها ودفع الضرر عنها ، وليس من تعيين أو حصر لمنافع تلقي نداء الإيمان من الله عز وجل .

الثانية : دعوة الناس للتعلم والإقتباس من المسلمين ، فمن خصائص الإنسان الأخذ من غيره في الطباع والعادات وأنماط السلوك ، فقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ شاهد على وجود أمة مؤمنة بالله ورسوله والكتاب والملائكة واليوم الآخر ما دامت الدنيا وعمارة الناس للأرض بلحاظ قانون بقاء القرآن في الأرض سالماً من التحريف إلى يوم القيامة ، فيدخل على أهل الأرض بآية البحث التي يتقدمها نداء التوحيد والعز والأمن بالإيمان .

الثالثة : تفضل الله عز وجل وقيامه بالفصل بين المؤمنين والكافرين في القول والفعل بأن ينهى المسلمين عن إتباع ومحاكاة الذين كفروا في خلجات النفس والحرص الذي لا أصل له ، ليكون هذا الفصل مقدمة للفصل والتمييز بينهم يوم القيامة بخلود المؤمنين في النعيم ، وإقامة الذين كفروا في النار ، ويكون تقدير آية البحث على وجوه :

الأول : يا أيها الذين آمنوا إعملوا بما هيح الإيمان .

الثاني : يا أيها الذين آمنوا إسعوا إلى دخول الجنة ، قال تعالى في خطاب للمؤمنين ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ^{(١)(٢)}.

ويحتمل الضمير (هم) في قوله تعالى (قلوبهم) وجوهاً :

الوجه الأول : إرادة الكفار الذين كانوا يصدون الأنصار عن الخروج للقتال.

الوجه الثاني : المقصود المنافقون ، لعدم إستماع المؤمنين لتخويفهم من العدو.

الوجه الثالث : إنهم كفار مكة ، لأن المهاجرين والأنصار خرجوا لقتالهم ، ووقفوا في قبالهم للقتال ، من غير طلب هدنة أو توسل لطلب صلح ويدل على إظهار الصحابة العزم على قتال الكفار قوله تعالى ﴿يَوْمَ اتَّقَىٰ الْجَعَابِرَ﴾ ^(٣) ، في الآية السابقة ، ويتجلى التضاد بينهم من جهات :

الأولى : جمع مؤمن وجمع كافر.

الثانية : فريق مدافع عن النفوس والأعراض ، وجمع غاز بصبغة الإيمان وإرادة إستئصال الكفر .

(١) سورة آل عمران ١٣٣.

(٢) أنظر الجزء الرابع والتسعين من هذا السفر والذي جاء خاصاً بتفسير هذه الآية.

(٣) سورة الأنفال ٤١.

الثالثة : فريق على حق وهدى ، وفريق في ضلالة.
الرابعة : جمع معهم الملائكة ناصرين ، وجمع معهم الشيطان غاويًا.

الخامسة : جمع معهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إماماً والتنزيل ضياءً نوراً وهداية ، وجمع زحفوا بعصية الجاهلية الأولى.
السادسة : جمع الله عز وجل أنعم الله عليهم بالسير مسافة قصيرة من المدينة بالحق وترتب الأجر والثواب ، وجمع قطع نحو خمسمائة كيلو متر من مكة إلى المدينة مع الإثم والوزر.
السابعة : يوم التقى الجمعان ، جمع الإيمان وجمع الكفر.
الثامنة : جمع جاءت آيات القرآن بالثناء عليه ، وجمع تضمن القرآن ذمه.

التاسعة : جمع يصاحبه النصر من عند الله ، وجمع يلاحقه الخزي والذل والهزيمة.

ليكون من تقدير قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدْرٍ﴾^(١) ، وجوه:

الأول : جعلكم الله الأمة المنتصرة.
الثاني : ولقد نصركم الله بالملائكة ببدر.
الثالث : بيان الملازمة بين الإسلام والنصر ، فإن قلت القدر المتيقن من الآية أعلاه القضية الشخصية ، وتعين النصر بأنه في معركة بدر على نحو الحصر ، فلا يتعدى إلى غيرها إلا مع الدليل المنفصل ، والجواب أما شرط الدليل فنعم ، وأما تقييده بالمنفصل فلا تصل النوبة إليه ، لتعدد مصاديق ومعاني النصر ولفظ (نصركم الله) في الآية أعلاه من جهات:
الأولى : ولقد نصركم الله ببدر وسينصركم في المعارك اللاحقة.
الثانية : ولقد نصركم الله ببدر ، وأبقى نعمة النصر عندكم ، ومن فضل الله أن النعمة إذا نزلت من عند الله فانه أكرم من أن يرفعها.

الثالثة : ولقد نصركم الله بيدر وأنتم أذلة فاصبحتم أعزة فيكون نصر الله أقرب لكم وأيسر عليكم، قال تعالى ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(١).

الرابعة : ولقد نصركم الله بيدر فاتقوا الله) ليكون من معاني الأمر بتقوى الله في الآية ومحيطه بعد الإخبار عن نصر المسلمين بيدر وجوه منها:

أولاً : فاتقوا الله ليديم عليكم نعمة النصر.
 ثانياً : فاتقوا الله واستعدوا للمعارك اللاحقة.
 ثالثاً : فاتقوا الله وأسألوه ملازمة النصر لكم.
 رابعاً : فاتقوا الله لتصاحب الهزيمة الذين كفروا، ويحجب الله عز وجل عنهم النصر، بلحاظ عدم إجتماع المتناقضين، فمع نصر المسلمين لا يتحقق نصر للذين كفروا.

خامساً : فاتقوا الله فانتم ﴿خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢).
الوجه الرابع : المقصود جيش الكفار الذين زحفوا من مكة إلى المدينة لقتال المسلمين وهم الذي ورد ذكرهم في الآية السابقة بقوله تعالى ﴿يَوْمَ التَّقَىٰ الْجُمُعَانِ﴾^(٣).

وتقدير الآية : يوم التقى الجمعان جمع الإيمان وجمع الكفار الذين جعل الله حسرة في قلوبهم ، ومن ضروب الحسرة في المقام أمور :
 أولاً : إخلاص المسلمين في الدفاع وتفانيهم في مرضاة الله .
 ثانياً : الأخوة الظاهرة بين المهاجرين والأنصار .

(١) سورة الأنفال ٦٦.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

(٣) سورة آل عمران ١٥٥.

ثالثاً : حث المسلمين للشهادة والقتل في سبيل الله ، الذي يتجلى بالتسابق والتزاحم للخروج للمبارزة .

رابعاً : إمتناع المسلمين من الإبتداء بالقتال بأمر من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإنشغالهم بالدعاء .

خامساً : طاعة أهل البيت والصحابة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في القتال ومقدماته .

سادساً : إبتداء القتال بكثرة القتلى من المشركين ، وتساقط حملة لوائهم واحداً بعد آخر ، كلما يحمله واحد منهم قُتل .

قانون ﴿ذَلِكَ حَسْرَةٌ﴾

لم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا في هذه الآية الكريمة ، ومن اللطف الإلهي بالمسلمين أنه جاء بخصوص قوم يتصفون بأمور :
الأول : إختيار العناد والكفر .

الثاني : القعود عن نصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين مع وصول الذين كفروا من قريش إلى أطراف المدينة .

الثالث : القيام بحث طائفة من الأنصار على القعود وعدم الخروج للقتال دفاعاً عن الإسلام والأنفس والأعراض والأموال .
ومن الناس من يقاتل على الأحساب والأنساب كما ورد في قصة قزمان .

فذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن عقوبته في الآخرة اللبث في نار جهنم ، ليكون مثوى الذين يقعدون عن نصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويحثون الأنصار على القعود من باب الأولوية القطعية ، لذا ذكرت آية البحث إصابتهم بالحسرة لتكون مقدمة ومرآة لعذابهم في الآخرة ، وقوله تعالى ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ .

وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١) من جهات:

الأولى : أنه رحمة بالأنصار إذ تفضح الآية الذين يصدونهم عن الجهاد وتدعوهم لعدم الإنصات لهم سواء في مسألة الصد أو غيرها من صيغ الحسد والمكر .

الثانية : الآية رحمة بالمهاجرين وواقية من منع إخوانهم الأنصار عن القتال إلى جانبهم ، ومن وجوه تقدير آية البحث : الذين قالوا لإخوانهم المهاجرين ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾^(٢) وهل كانت مؤاخاة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بين المهاجرين والأنصار حرباً وحرزاً من مكر وتحريض الذين كفروا الأنصار على القعود ، الجواب نعم ، وهو من الإعجاز في السنة الدفاعية إذ تكون واقية من الصدود والقعود عن الجهاد ، وأمناً من الخصومة والخلاف بين الصحابة عند النفير ، ويدل على هذا الأمن قوله تعالى ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾^(٣) إذ نزلت الآية أعلاه في معركة أحد وتبين أموراً :

أولاً : مبادرة المهاجرين والأنصار للخروج للجهاد .
ثانياً : تعيين النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لمواضع الصحابة ، وهذا التعيين شعبة من الوحي ، وهو مقدمة وأمانة على سلامة المسلمين من الهزيمة في معارك الإسلام الأولى ، وتدل عليه الشواهد ، وهل يمكن تقدير آية بيدر : ولقد نصركم الله بيدر بالوحي (الجواب نعم وهو لا يتعارض مع نزول الملائكة مدداً وعوناً لنصرة المسلمين ، لبيان تعدد مصاديق ووجوه النصرة من عند الله عز وجل .

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢) سورة آل عمران ١٦٨.

(٣) سورة آل عمران ١٢١.

ثالثاً : إمتثال الصحابة لأوامر النبي عند تلقيها وتقيدهم بها أثناء القتال وقد حصلت معصية من الرماة إذ تركوا مواضعهم فصار هذا الترك مجلبة للضرر والخسارة وسقوط الشهداء ، ليكون عبرة وموعظة للمسلمين الموجود والمعدوم .

الثالثة : الآية رحمة بالمنافقين لما تتضمنه من الزجر عن منع المؤمنين من الخروج للجهاد أو لومهم عند إصابتهم بالجراحات أو الشماتة بمن استشهدوا في ميدان المعركة منهم ، لقد كان المنافقون والمنافقات ممن نطق بالشهادتين وصاروا يحضرون الصلاة ويسمعون قراءة آية البحث في الصلاة وخارجها وقد يقومون بتلاوتها .

لتبين لهم قانوناً وهو أن الآية القرآنية مرآة ومصدق لقوله تعالى ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ...﴾^(١).

لقد أراد الله عز وجل أن تجعل الآية القرآنية الإنسان رقيباً على نفسه ، ويدرك أن الله عز وجل يحصي عليه أفعاله ، وعن أبي ذر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (يقول : اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)^(٢).

لتؤكد آية البحث رؤية الله عز وجل للمسلمين وغيرهم ، ولا يختص موضوع الآية بذاتها بل هي من اللطف الإلهي ومقدمة اللطف بالمسلمين وغيرهم فأية البحث دعوة سماوية لتهذيب النفوس ، وإصلاح الألسن وجعلها مسخرة في مرضاة الله أو لا أقل ممتعة عن الإضرار بالإسلام والإساءة للمؤمنين .

(١) سورة المجادلة ٧.

(٢) الدر المنثور ١٠٢/٢.

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، وتقول: نشدك الله فينا، إنك إذا استقممت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا) ^(١).

الرابعة : تحت الآية المسلمين والمسلمات على الإستغفار وسؤال العفو من عند الله على زلات اللسان وتدعوهم إلى إصلاح السرائر والدعاء للأمن وسؤال الله كفايتهم شرور المنافقين .

وكل آية من القرآن تبعث الحسرة في نفوس الذين كفروا في نزولها أو تلاوتها أو العمل بها ، وهو من أسرار نزول القرآن نجوماً وعلى نحو التدرج .

قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يُخَيِّمُ وَيُمِيتُ﴾

تتقوم الحياة الدنيا بالحياة والموت، ومن أعظم الآيات فيها خلق الإنسان ونشأته في الرحم ونموه ونشأته ورزقه الكريم ثم مغادرته الدنيا قهراً، وحالماً يدرك الإنسان الأشياء ويقترب من البلوغ يكتشف حقيقة عن الحياة الدنيا، وهي لا بد من مفارقة الإنسان لها، وهناك فارق بين مفارقة المسافر الذي يعود وإن طال سفره وغياب جسده وإشتاق له أهله، وبين مفارقة الذي تقبض روحه التي لا عودة فيها وإن كان الجسد حاضراً بينهم هامداً، لتكون عودته ورجوعه إلى الله عز وجل قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ وَهَذَا الْمَوْتُ لَيْسَ أَمْرًا طَبِيعِيًّا يَتَعَلَّقُ بِأَعْضَاءِ وَبَدَنِ الْإِنْسَانِ وَإِصَابَتُهُ بِالْمَرَضِ الَّذِي يَعْطَلُ عِنْدَهُ الْحَيَاةَ، بَلْ هُوَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنْ تَعَدَّدَتِ الْأَسْبَابُ لِيَكُونَ هَذَا التَّعَدُّدُ آيَةً إِعْجَازِيَّةً مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَدَعْوَةٌ لِلنَّاسِ لِلنَّجَاةِ مِنْ مَيِّتَةِ السُّوءِ، وَتَجَلَّى هَذِهِ النَّجَاةُ بِالصَّبْرِ وَالتَّقْوَى وَالمَسَارَعَةِ فِي الْخَيْرَاتِ .

(١) حليه الأولياء ٢/٢٢٣.

(٢) سورة مريم ٤٠.

وعن بلال : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : كل معروف صدقة ، والمعروف يقى سبعين نوعاً من البلاء ويقي مئة سوء ، والمعروف والمنكر خلقان منصوبان للناس يوم القيامة ، فالمعروف لازم لأهله والمنكر لازم لأهله ، يقودهم ويسوقهم إلى النار^(١).

إن نظام الحياة والموت الثابت والجلي في طبقات الناس ، دعوة لهم للتسليم بالرسالات والإقرار بالعبودية لله عز وجل والرضا بمضامين التنزيل إذ أخبرت الكتب السماوية على أن تعيين الأجل وحلول أوان موت الإنسان أمر من عند الله عز وجل ، قال تعالى ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(٢).

لقد ورد قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يُخَيِّمُ وَيُنِيتُ﴾ لوجوه:

الأول : الإحتجاج على الذين كفروا ، إذ يظنون أن السلامة مع القعود ، والقتل مع الضرب في الأرض والغزو.

الثاني : تنمية ملكات المسلمين في إبطال مغالطات الذين كفروا ، وهو من إعجاز القرآن بأن تأتي مسألة في إقامة البرهان لتكون فتحاً علمياً ، ونبراساً يضيئ طريق الهداية ، ويقطع الجدال بالبينه والحجة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٣).

الثالث : تهيئة مقدمات خروج المسلمين للجهاد في سبيل الله ، والدفاع عن بيضة الإسلام ، من جهات:

الأولى : زجر الذين كفروا عن صدهم ومنعهم.

الثانية : تأكيد قانون أن إستدامة الحياة أو قطعها بالموت أمران بيد الله عز وجل.

(١) الدر المنثور ٥/١١١.

(٢) سورة يونس ٤٩.

(٣) سورة الفاتحة ٦.

الثالثة : حث المسلمين على الدعاء للنجاة من القتل في الميدان، وهل يبعث هذا الدعاء الحسرة في قلوب الذين كفروا، فيكون من مصاديق آية البحث في قوله تعالى ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ الجواب نعم.

بحث منطقي

من إصطلاحات المنطق (القضية) ومعناها الخبر ، وتكون القضية على ثلاثة أقسام :

الأول : القضية الحملية.

الثاني : الشرطية المنفصلة.

الثالث : الشرطية المتصلة.

والقضية الحملية هي نسبة شئ الى شئ آخر، أو نفي هذه النسبة كما في قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ﴾ إذ تنسب آية البحث الإحياء والإماتة إلى الله عز وجل ، وتتألف الحملية من ثلاثة أطراف هي:
أولاً : الموضوع.

ثانياً : المحمول.

ثالثاً : النسبة بين الموضوع والمحمول .

وقد لا يبين فيها فرد وعلة ثبوت المحمول للموضوع وتسمى المطلقة كما لو قلت : المعاد حق، فالمعاد موضوع، وحق محمول ، والرابطة مثل الضمير هو كما لو قلت المعاد هو حق.

وتقسم الحملية إلى قسمين :

أولاً : الحملية الموجبة وهي التي يحكم فيها بثبوت شئ لشئ آخر وإثبات صفة كما في قوله تعالى في خاتمة الآية السابقة ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

حَلِيمٌ^(١)، لبيان قانون وهو أن كل صفة لله عز وجل تترشح عنها نعم لا تعد ولا تحصى، والعباد بحاجة إليها أحياءً وأمواتاً، لذا ذكرت آية البحث نسبة الإحياء والإماتة لله عز وجل.

ثانياً : الحملة السالبة : وهي التي يحكم فيها بنفي شئ عن شئ وعدم ثبوت خصلة أو صفة لموصوف ، كما في قوله تعالى ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾^(٢).

إذ تدل الحملة السالبة على تنزيه مقام الربوبية من الظلم مطلقاً، لبيان قانون وهو أن فضح وذم الذين كفروا والمنافقين في آية البحث ليس ظلماً لهم ، فهل يمكن أن يقال بأنه ترشح عن قاعدة تقديم الأهم على المهم، وأن الأهم هو نصرة الإسلام، ودفع ضرر وكيد الذين كفروا وإن ترتب عليه خزيهم وإيذائهم، وأنزل الله هذه الآية ليكشف الذين كفروا عن ظلمهم وتحجب عنهم الأوزار التي تثقل ظهورهم في النشاطين إذا ما استمروا على النفاق وصد المؤمنين عن الجهاد في سبيل الله ، وتتعدد وجوه الظلم في قول المنافقين الذي تذكره آية البحث، فأراد الله عز وجل كشفه وبيانه وإحتراز المسلمين والمسلمات منه. وتكون القضية الحمالية على أربعة أقسام :

الأول : القضية الشخصية وتسمى المخصوصة ، وتتعلق بالجزئي الحقيقي، مثل الصلاة واجب محمد رسول الله.

الثاني : القضية المهملة وهي التي يتعلق فيها الحكم بذات الكلي ومجموع الأفراد على نحو الأجمال مثل قوله تعالى ﴿إِذْ تَضَعُوزُنَا﴾^(١) فاخبرت آية البحث عن صعود وقرار طائفة من المسلمين من غير تعيين لأسمائهم وصفاتهم، مع بقاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم

(١) سورة آل عمران ١٥٥.

(٢) سورة آل عمران ١٨٢.

ونفر من أهل بيته وأصحابه في ميدان المعركة ، وكما في آية البحث بقوله تعالى ﴿كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ فليس كل كافر قال هذا القول، ولا كل مؤمن خرج إلى القتال من الأنصار تلقى هذا القول والصد .

ويقال (الإنسان كاتب) فيتعلق الحكم بعامة الكلي وسنخيته ، وليس كل أفرادها، فلا يصح.

والقدر المتيقن من القضية المهملة أنها بحكم الجزئية.

الثالث : القضية الطبيعية ، وهي التي يكون فيها الحكم على الموضوع العام من جهة كونه كلي وصفة مشتركة، من غير لحاظ خاص لأفرادها، كما في قوله تعالى في الآية السابقة ﴿يَوْمَ تَقُى الْجَمْعَانِ﴾ فقد إلتقى جيش الإسلام بامامة وقيادة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجيش الذين كفروا في معركة أحد في الخامس عشر من شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة، وكل طرف يسمى جمع، ولكن لا يصح تسمية الأفراد بالجمع.

الرابع : القضية المحصورة وتسمى (المسورة) وهو الحكم على الكلي مع جعل موضوعية لأفرادها، كما في قوله تعالى في آية البحث ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقد وقع الفصل والتمييز والحصر في الآية.

والقضية المحصورة على قسمين:

الأول : المحصورة الكلية وهي التي ينسب فيها الحكم على جميع الأفراد مثل : كل رسول نبي ، وكما في آية البحث بقوله تعالى ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ إذ تنفذ الحسرة إلى قلوب كل الذين كفروا.

الثاني : المحصورة الجزئية وهي التي يكون فيها الحكم على بعض الأفراد كما في ورود حرف الجر (من) وإرادة التبعية منه ، وكما في قوله تعالى في الآية السابقة ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾^(١).

وقد وردت في آية البحث قضية شرطية متصلة وهي ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ لبيان أن أصوات الذين كفروا تظهر عندما يغيب المؤمنون من المدينة ، فتفضل الله عز وجل ومنع من علوها وأثرها بآية البحث.

قانون المعجزة الجامعة للأنبياء

إبتدأت الآية بحرف التأكيد (إن) لبيان أن مضامين آيات القرآن حق وصدق من جهات :

الأولى : قصص الأمم الماضية ، وهي على أقسام :

الأول : قصة خلق آدم وسجود الملائكة له طاعة لله وسكنه وزوجه في الجنة ، قال تعالى ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾^(٢).

الثاني : بيان سبب وعلة خروج آدم من الجنة وهبوطه وحواء إلى الأرض ، وصيرورة وسوسة وإغواء إبليس لهما سبباً في مغادرة الجنة ، ومن الإعجاز في آية البحث أنها ذكرت ذات لفظ الإزال الذي تعرض له آدم وحواء أصاب المسلمين في معركة أحد ، قال تعالى ﴿فَازَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا رَبَّضْكُمْ بُعْضَ عَدُوِّكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرًّا وَمَنْعًا إِلَى حِينٍ﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران ١٥٥.

(٢) سورة البقرة ٣٥.

(٣) سورة البقرة ٣٦.

وعن ابن عباس قال (إن عدو الله إبليس عرض نفسه على دواب الأرض أنها تحمله حتى يدخل الجنة معها ويكلم آدم . فكل الدواب أبى ذلك عليه حتى كلم الحية فقال لها : أمنعك من ابن آدم فإنك في ذمتي إن أدخلتني الجنة ، فحملته بين نابين حتى دخلت به ، فكلمه من فيها وكانت كاسية تمشي على أربع قوائم فاعراها الله ، وجعلها تمشي على بطنها . يقول ابن عباس : فاقتلوا حيث وجدتموها ، اخفروا ذمة عدو الله فيها^(١)).

الثالث : أخبار الأنبياء والرسل وجهادهم في سبيل الله ، وما لاقوه من الأذى في دعوتهم قومهم للإيمان ، ومن إعجاز القرآن البيان والوضوح في قصص الأنبياء بما يكون موعظة وأسوة للمؤمنين وشاهداً على أن الأذى الذي لاقاه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أصاب الأنبياء من قبله ، وإن كان هذا الأذى من الكلي المشكك الذي يكون على مراتب متفاوتة قوة وضعفاً ، ويدل عليه قول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (ما أؤذي نبي مثل ما أؤذيت)^(٢).

الرابع : قصص المؤمنين من الأمم السابقة وإخلاصهم في طاعة الله وتفانيهم في مرضاته وإجهارهم أو إخفاتهم وإسراهم لإسلامهم وإتباعهم للرسل .

وهل تختص هذه القصص بحياة أصحاب الأنبياء الذين عاصروهم في أيام حياتهم وبعثهم الجواب لا ، فقد يكون أتباع النبي في زمان غير زمانه ، ليكون داعية إلى الرسول الذي يأتي من بعده ، وفيه وجوه :
أولاً : إنه من القوانين في الإرادة التكوينية وبديع صنع الله عز وجل وقدرته المطلقة .

(١) الدر المنثور ٨١/١ .

(٢) تفسير الرازي ٤٥٤/٢ .

ثانياً: إنه مقدمة وتوطئة لبعثة النبي اللاحق وحث للناس على التصديق بنبوة السابق واللاحق من الأنبياء .

ثالثاً : بيان معجزة جامعة للأنبياء من جهات :

الأولى : بشارة النبي السابق بالنبي اللاحق .

الثانية : تصديق النبي اللاحق للنبي السابق .

الثالثة: إتحاد سنخية النبوة وإن تباينت الأزمنة وأشخاص الأنبياء .

الرابعة : بيان الجامع المشترك وسور الموجبة الكلية لبعثة الأنبياء

التي تقوم بالدعوة إلى التوحيد والتصديق بالنبوة والتنزيل واليوم الآخر.

لقد دأب العلماء على التحقيق في معجزات الأنبياء على نحو مستقل بالنسبة لكل نبي .

الخامسة : أنباء وقصص القوم الظالمين أتباعاً ومتبوعين وكيف أن الله عز وجل أمهلهم ثم أخذهم أخذاً شديداً فلا ترى لهم أثراً ، وفي التنزيل ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾^(١).

وموضوعنا في المقام من جهات :

الأولى : المعجزة الجامعة لكل الأنبياء والتي يشترك فيها الأنبياء وكل واحد منهم تتجلى على يديه تلك المعجزة ومنها:

أولاً: الوحي، قال تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زُورًا﴾ (٢).

(١) سورة الأنعام ١١.

(٢) سورة النساء ١٦٣.

إن ذات اسم النبي يدل على المعجزة الجامعة فمن خصائص أي نبي هو أنه ينبأ من عند الله عز وجل ، وأنه واسطة بين الله عز وجل وبين العباد .

ثانياً : كل نبي هو واسطة بين الله عز وجل والعباد وعندما إحتج الملائكة على جعل آدم عليه السلام خليفة في الأرض أنكر الملائكة الأمر ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(١) فاحتج الله عز وجل عليهم بقوله سبحانه ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢) لبيان إنفراد الله عز وجل بالعلم وأنه ليس من أحد من الخلائق يحيط بعلم الله عز وجل ، قال تعالى في خطاب للناس جميعاً ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٣).

وهل تشمل الآية أعلاه الملائكة وأن العلم الذي عندهم قليل أيضاً ، الجواب نعم ، وإن كان أكثر من علم الإنسان ، إذ أن أفراد القليل هذا من الكلي المشكك الذي يكون على مراتب متفاوتة ويدل إنكار الملائكة أعلاه على هذا القانون ، فمن العلم الذي يختص به الله عز وجل بعثة الأنبياء وصيروتهم وسائط بينه وبين الناس وفيه غاية التشريف للأنبياء والناس جميعاً ، مما يلزم التوجه إلى الله عز وجل بالشكر ، ومنه الإخلاص في عبادته تعالى ونبذ الشرك والضلالة . ومن علم الله تعالى معجزات الأنبياء ونصرته لهم وللمؤمنين بالمعجزة .

ثالثاً : إجتباء الأنبياء من البشر ، وكلهم من الرجال ، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾^(٤).

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة الأسراء ٨٥.

(٤) سورة يوسف ١٠٩.

رابعاً : إجتباء وإصطفاء الأنبياء من بين الناس ، وإتصافهم بالخلق الحميد.

خامساً : إتصاف الأنبياء بالعصمة في التبليغ في الوحي والتنزيل وأحكام التشريع.

سادساً : إتصاف النبي بأن الله يخيره بين الحياة والموت عند حلول الأجل ، ولعله من مصاديق قوله تعالى ﴿أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾^(١).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : ما من نبي الا خير بين الدنيا والآخرة.

الثانية : شهادة كل نبي على صدق معجزة غيره من الأنبياء ، فتسبق هذه الشهادة النبي قبل ولادته أو قبل بعثته ، كما أنها تكون حاضرة بين الناس بعد إنتقاله إلى الرفيق الأعلى.

الثالثة : مجئ القرآن بالمعجزة الجامعة لكل الأنبياء ، وبيان صدق قانون النبوة وأنه حق ، فمن إعجاز القرآن أمور :

الأول : الإخبار عن حقيقة النبوة وأن الله عز وجل بعث الأنبياء والرسل مبشرين ومنذرين.

الثاني : ذكر القرآن لأسماء عدد من الأنبياء.

الثالث : بيان القرآن لمعجزات عدد من الأنبياء منها سفينة نوح ، وناقة صالح ، ومعجزة إبراهيم بخروجه سالماً من وسط النار التي ألقي فيها ، قال تعالى ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾^(٢) ، وفي الآية أعلاه إعجاز وهو لو كان مع إبراهيم شخص آخر في النار لاحترق وهو من أسرار تولي ابراهيم الدعوة وجهاده بنفسه ، وبيان تفضيل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بنصرته بأهل بيته وأصحابه.

(١) سورة الأنعام ٢ .

(٢) سورة الأنبياء ٦٩ .

الرابع : إجماع معجزات الأنبياء في القرآن على نحو الإجمال بالنسبة لعددتها وموضوعها فلم يرد في القرآن كل معجزة لكل نبي أو أسماء جميع الأنبياء وعددهم مائة وأربعة وعشرون ألف نبي ولكن ذكر القرآن المعجزات الأعم والتي تكون أصلاً ومثالاً لعموم النبوات ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ ﴾^(١).

الخامس : ذكر معجزات الأنبياء في القرآن من مصاديق ولاية الله عز وجل للمسلمين من جهات :

الأولى : إرتقاء المسلمين في سلم المعارف الإلهية .

الثانية : تفقه المسلمين في الدين .

الثالثة : معرفة المسلمين لأسماء الأنبياء ومعجزاتهم فخر وعز للمسلمين .

الرابعة : حفظ المسلمين لمعجزات الأنبياء بتلاوة آيات القرآن وبالتدريس والذكر الحسن .

الخامسة : إقتداء المسلمين بالأنبياء في أقوالهم وأفعالهم ، قال تعالى ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ ﴾^(٢).

السادسة : إقتباس المسلمين دروس الصبر والعزم والإخلاص في طاعة الله ، فقد ذكرت آية البحث فرار طائفة من المسلمين يوم أحد ولم يفر الأنبياء مع أنهم لاقوا أشد صنوف الأذى من قومهم .

قانون أول آية

ورد لفظ ﴿ لَا تَكُونُوا ﴾ تسع مرات في القرآن ، وهو عدد غير قليل بلحاظ أن كل مرة منه تتضمن مسائل وأحكاماً ودلالات ومنها آية البحث .

(١) سورة آل عمران ١٣٨.

(٢) سورة الأنعام ٩٠.

ولم يرد هذا اللفظ في سورة البقرة ، إنما ورد مرتين في سورة آل عمران ، وفيه دلالة على موضوعية هذه السورة في تأديب المسلمين وهدايتهم لسبل الصلاح ، والإعراض والعزوف عن عادات وقبيح فعل الذين كفروا ، قال تعالى في خطاب للمسلمين ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾^(١).

والآية أعلاه هي أول آية تبدأ بها آيات ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ للدلالة على بقاء مضامين النهي الواردة في لفظ ﴿لَا تَكُونُوا﴾ عوناً وعضداً للمسلمين في وحدتهم وتأخيهم وقيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وجاءت الآية التالية بالإخبار عن الشهادة بلحاظ لفظ ﴿لَا تَكُونُوا﴾ ليستقل المسلمون بالصبر وصدق الإيمان والإعراض عما يقوله الذين كفروا ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ . ويمكن تأسيس قانون وهو النظر لكل آية قرآنية ، وهل يصدق عليها أنها أول آية في نظم القرآن بلحاظ وعنوان جهتي ومناسبة اللفظ والموضوع والحكم وغيرها من جهات :

الأولى : ورود كلمة في الآية لم ترد في آية قبلها في نظم القرآن ، وقد ذكرنا في باب إعجاز الآية أسماء للآيات لم ترد إليها في فيها وذكرنا كلمات لم تذكر إلا في تلك الآية .

فمع مجئ آية البحث بعد أربعمئة وثلاث وأربعين آية من القرآن وهي مجموع آيات سورة الفاتحة وسورة البقرة وما تقدم من سورة آل عمران فلم يرد لفظ ﴿ضربوا﴾ إلا في آية البحث ، ولم يرد في آية أخرى من القرآن ، نعم ورد ذات الرسم خمس مرات ولكن المعنى والدلالة يختلفان .

وهو من إعجاز القرآن، ليكون بين أفراد الرسم القرآني المتحد عموم وخصوص مطلق فمادة الالتقاء رسم الحروف ، ومادة الإفتراق اللفظ والحركات والمعنى.

الثانية : الإعجاز البياني في نظم القرآن، وأسرار العطف بين الآيات، وسعة أو ضيق هذا العطف وجوه :

الأول : إتصال العطف بين بضع آيات كما تقدم بالنسبة للآيات السابقة إذ يتجلى العطف بين الآية ١٤٩ وما بعدها إلى الآية السابقة وقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ وتقدم في الجزء السابق أن العطف أعم من أن يختص بحروف العطف^(١)، إذ تجلت تجلت في الآية السابقة من وجوه:

أولاً : لغة الخطاب إذ بدأت قبل سبع آيات بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرْذِلْكُمُ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ وإتصلت بها الآية السابقة بقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾.

ثانياً : حروف العطف ، وهي على قسمين:

الأول : حروف العطف التي يشترك فيها المعطوف مع المعطوف عليه لفظاً وحكماً مثل الواو، والفاء، وثم، وحتى، كما في قوله تعالى ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ﴾^(٢).

الثاني : حروف العطف التي يشترك المعطوف مع المعطوف عليه لفظاً دون الحكم، مثل : أو، لا، بل ، أم ، أما، لكن.

(١) وسيأتي مزيد كلام في الجزء التالي وهو الثلاثون بعد المائة قانون دلالة العطف على الآية السابقة.

(٢) سورة آل عمران ١٥٣.

ورود في آية البحث بقوله تعالى ﴿قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ﴾^(١)، وهو من الإعجاز في بيان التباين بين القتل في سبيل الله والموت على السرير من حيث الثواب العظيم وحياة الشهداء عند الله حال مغادرتهم الدنيا. ولأن الآيات وردت في مقام الزجر عن محاكاة الذين كفروا في محاولاتهم منع الذي آمنوا عن الإنبعاث إلى الدفاع عن الإسلام. ثالثاً: اتحاد الموضوع، وهو خروج المسلمين للدفاع في معركة أحد عن:

الأول: الإسلام وبقاؤه في الأرض.

الثاني: النبوة الخاتمة التي تُصدق وتشهد للنبوات السابقة.

الثالث: شخص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذ كان المشركون يطلبون قتله ومن حين خروجهم من مكة، لذا قاموا ببيت إشاعة قتله في ميدان المعركة، ليقولوا للمسلمين أن النبي الذي تدافعون عنه قد قتل ومعه يتوقف التنزيل.

الرابع: الدفاع عن القرآن والتنزيل الذي أراد الله عز وجل له البقاء إلى يوم القيامة.

الثالثة: التحقيق في الكلمات التي ترد أول الآية وفي إفتتاحها بلحاظ نظم القرآن، وهي على أقسام:

الأول: الكلمة التي ترد في أول الآية القرآنية، ثم لم ترد مرة أخرى في آية قرآنية أخرى سواء في أولها أو وسطها أو آخرها.

الثاني: الكلمة التي ترد أول الآية القرآنية ثم ترد في أول آية قرآنية أخرى.

الثالث: الكلمة التي تفتتح بها الآية القرآنية ثم ترد في وسط أول آخر الآية القرآنية.

الرابعة: الدلالة في الموضوع والحكم لإفتتاح الآية القرآنية بكلمة مخصوصة. وكما ورد لفظ (ضربوا) في آية البحث فانه جاء في آيات أخرى بمعنى

مختلف كما في قوله تعالى في خطاب للمسلمين يوم معركة أحد ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾^(١).

قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

يحتمل متعلق قوله تعالى (والله بصير بما تعملون) وجوهاً:

الأول : إنه خاص بآية البحث.

الثاني : إرادة شموله للآية السابقة أيضاً.

الثالث : شمول مضامين الآيات السابقة بالقانون الذي أختتمت به آية البحث.

الرابع : إرادة شطر من مضامين الآيات السابقة والتي تتعلق بعمل المسلمين ، والمختار هو الثالث أعلاه.

وقد ذكرنا صلة خاتمة الآية بمضامينها في باب سياق الآيات^(٢) ، أما صلة خاتمة آية البحث بمضامين الآيات السابقة الأخرى فهي على وجوه:

الأول : من وجوه الصلة بين خاتمة هذه الآية بالآية قبل السابقة ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً﴾^(٣) بيان قانون وهو أن الله عز وجل يعلم حال وعمل المسلمين من وجوه :

أولاً : قبل أن ينزل النعاس على المسلمين.

ثانياً : عند نزول النعاس وديبه في أجسامهم.

ثالثاً : عمل المسلمين بعد نزول النعاس عليهم ، لبيان قانون وهو أن الله عز وجل يعلم بأن نزول النعاس أفضل وأحسن للمسلمين ، وهو

(١) سورة الأنفال ١٢.

(٢) أنظر ص ٢٨ من هذا الجزء .

(٣) سورة آل عمران ١٥٤.

نعمة خالية من الضرر الذاتي والعرضي، فلا يطرأ الأذى عليهم بسبب
النعاس، ولا يستطيع الذين كفروا أن يفتنوا المسلمين.

تبين الآية أن الله عز وجل يعلم أمور وأحوال المسلمين من جهات:
الأولى : إن الله عز وجل يبصر ويعلم حال المسلمين.
الثانية : يبصر الله عز وجل ما يعمل به المسلمون سواء العمل الذي
فيه مفاعلة أو العمل المتقوم بذاته.

الثالثة : يبصر الله عز وجل أثر ما يعمل به المسلمون.
وكما يعلم الله عز وجل أعمال المسلمين فإنه سبحانه يعلم أعمال
غيرهم من الناس قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(١).

فقد أحاط الله عز وجل بكل ما يبصر ويرى من الموجودات في
السموات والأرض، ومن غير أن ينتقل يبصر من شئ إلى آخر، إذ أن
الله عز وجل يرى في كل آن ما في السموات السبع وما في الأرضين
والبحار والجبال.

وجاءت آية البحث ليشكر المسلمون الله عز وجل على إخباره بأنه
بصير بما يعملون، إذ تدل لغة الخطاب في الآية وإبتدائها بصيغة الإيمان
على إرادة هداية المسلمين وأن الله يبصر أعمالهم ليأخذ بأيديهم نحو
الصالح والهداية.

وتتضمن خاتمة آية البحث بعث المسلمين والمسلمات على التقوى
وتعاهد الفرائض وأدائها في أوقاتها، والحرص على محاكاة النبي محمد
صلى الله عليه وآله وسلم في عباداته، وإتباع سنته، وعنه صلى الله عليه
وآله وسلم قال : صلوا كما رأيتموني أصلي^(٢)، ليرى الله عز وجل

(١) سورة التغابن ٢.

(٢) تفسير القرطبي ١/٧٢.

المسلمين وهم يجتهدون في طاعته بذات الكيفية التي أمر بها وأرادها صبغة إيمانية لأهل الأرض .

وعن أبي الدرداء قال: أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، واعدد نفسك من الموتى ، وإياك ودعوة المظلوم فانها تستجاب ، ومن استطاع منكم أن يشهد الصلاتين العشاء والصبح ولو حبواً فليفعل^(١).

إن الله عز وجل ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾^(٢)، ومع علمه سبحانه فهو يرى الأشياء الظاهرة والخفية، والعظيمة والدقيقة، ويرى بواطن الأشياء والمخلوقات، فهو يرى أعضاء الحشرة وعروقها، وجريان الماء والزاد في جوفها، وما أجمل الشعر وأبهى النظم في صفات الله الحسنى، وتأليف المجلدات لتكون مدرسة وموعظة ومدرسة للتفقه في الدين.

وتقدير الآية على وجوه :

الأول : والله بما تعملون ويعمل غيركم بصير.

الثاني : من رحمة الله عز وجل بكم أنه يما تعملون بصير.

الثالث : يا أيها الذين آمنوا اجتهدوا في طاعة الله وحافظوا على سنن التقوى والله بما تعملون بصير.

الرابع : بيان مسألة وهي أن الله عز وجل يبصر حال المسلمين عند تولي وفرار طائفة منهم، ويعلم أن هذا التولي لن يضر المسلمين في ميدان المعركة ولن يسبب الهزيمة لهم، لذا ورد قبل ثلاث آيات وبخصوص معركة أحد ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾^(٣).

(١) الدر المنثور ١٠٢/٢.

(٢) سورة الأنعام ٧٣.

(٣) سورة آل عمران ١٥٣.

الخامس : جاء الخطاب في كل من آية البحث وآية السياق إلى المسلمين والمسلمات كافة، ولا يختص بالذين تولوا منهم، لبيان أنهم أمة واحدة يعود كل عمل صالح عليهم بالنفع، ويقيهم الله عز وجل الأذى والضرر حتى عندما يتولى فريق منهم، إن قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ بشارة الجزاء من عند الله على الإيمان والصلاح والرضا بقضاء الله عز وجل .

ويحتمل الخطاب في الآية وجوهاً :

الأول : إرادة المسلمين والمسلمات بلحاظ نظم الآية وإبتدائها بخطاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم مجئ النهي بعد ﴿لَا تَكُونُوا﴾ .

الثاني : المقصود خصوص أهل البيت والصحابة الذين خرجوا للقتال في معركة أحد .

الثالث : المراد الأنصار الذين إستجابوا للرسول وساروا إلى معركة أحد بعد أن صار الذين كفروا على مشارف المدينة ، وهم لا يرضون إلا بالقتال وسفك الدماء ، وهو من مصاديق إحتجاج الملائكة على جعل خليفة في الأرض كما ورد في التنزيل ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(١).

ويحتمل بصر وعلم الله عز وجل بفعل المسلمين من جهة أفراد الزمان الطولية وجوهاً :

أولاً : إرادة أوان حدوث الفعل ، وتقدير الآية : والله بما تعملون بصير عند إتيان الفعل .

ثانياً : إرادة أوان وكيفية مقدمات الفعل ، وتقدير الآية : والله بما تعملون بصير عند الهمّ بالفعل .

ثالثاً : إرادة بصر وعلم الله بعد إتيان الفعل ، وتقدير الآية : والله ما تعملون بصير بعد أن تعملوه .

رابعاً : بعد الله عز وجل بما يفعله المسلمون قبل مدة من الفعل وعندما تستين مقدماته وتقدير الآية : والله بما ستعملون بصير . ولا تعارض بين هذه الوجوه وبصر الله بأفعال العباد أزلي أبدي ، وجميع أفعال العباد حاضرة عند الله قبل أن يخلق السموات والأرض لذا حينما أخبر الله عز وجل الملائكة عن خلافة آدم في الأرض لم يذكر موضوع الخلافة بصيغة المضارع ، فلم تقل الآية (إني سأجعل في الأرض) أو (أني أجعل) بل جاءت بصيغة اسم الفاعل ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾^(١).

ترى لماذا أختتمت الآية بقانون ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيه وجوه :
الأول : بيان ضروب إبتلاء المسلمين بما يقوله الذين كفروا .
الثاني : كيف يواجه المسلمون هجوم الذين كفروا ومجيئهم من مكة إلى المدينة ، والثناء على المؤمنين لإمتثالهم لنداء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالخروج للقائهم ، وعدم الإنصات لقول الذين كفروا وسعيهم الخبيث لبقائهم في المدينة .

الثالث : بيان المدد والفضل من عند الله بنصر المؤمنين ، وبيان قانون أن الله عز وجل بصير بما سيفعله المهاجرون والأنصار في محاربة الذين كفروا لذا جاء قوله تعالى ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يَمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾^(٢).

الرابع : حث المسلمين على التصدي للذين كفروا والمنافقين في المدينة ورد مقولتهم التي تتضمن المغالطة والتعريض ، وتقديره (والله

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة آل عمران ١٢٩.

بما تعملون مع الذين كفروا والمنافقين بصير) لقد أراد الله عز وجل التصدي للذين كفروا ورميهم بالذل ، لذا ورد قوله تعالى ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ

وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ ^(١) لتكون هذه الغلظة على وجوه :

الأول : الرد على مقولة الذين كفروا والمنافقين وفضحهم وتكذيبهم لبيان قانون من جهتين :

الأولى : عدم الملازمة بين الخروج للقتال وبين الشهادة .

الثانية : مجئ القتل أو الموت للإنسان في أجله وإن كان في بيته وعلى فراشه ، قال تعالى ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا يُدْرِكُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ ^(٢) وتدفع

الآية عن النفس النفرة من القتال ، ومن القتل في سبيل الله ، وتحث المسلمين على عدم الوهن والضعف عن لقاء العدو بالإصغاء إلى أقوال المنافقين في التحريض على القعود ، كما تدل عليه مضامين هذه الآية .

لذا ابتدأت الآية التالية بالعطف على هذه الآية التي ذكرت القتل وقدمته على الموت ، وجاءت بصيغة الخطاب ، وتقييد القتل بأنه في سبيل الله بقوله تعالى ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلٍ﴾ ^(٣) لتكون الآية تعضيداً للمسلمين وإعانة لهم وموعظة وبرهاناً للإحتجاج على الذين كفروا وبيان عدم ترتب الأثر على قولهم .

لقد أراد الله عز وجل تحذير المسلمين من مقولات المنافقين وبيان لزوم إجتناهم وزجرهم ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأُولُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ ^(٤) ^(١).

(١) سورة التوبة ٧٣ .

(٢) سورة النساء ٧٨ .

(٣) سورة آل عمران ١٥٧ .

(٤) سورة آل عمران ١١٨ .

الثاني : تلاوة آية البحث التي هي من مصاديق الغلظة وزجر الدين كفروا عن إتخاذ المغالطة وسيلة لمنع الذين آمنوا من السعي في سبيل الله، والإنبعاث للجهاد.

الثالث : تفقه المسلمين في الدين، وإحتجاجهم على الذين كفروا، وبيان حاجتهم والأجيال اللاحقة للدفاع عن الإسلام.

الرابع : تأكيد البشارة بالنصر، وتبكيّت الذين كفروا لصدودهم وإقامتهم على الجهالة والحسد، قال تعالى ﴿وَيُرِيدُ أَنْ يَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَيَجْعَلَهُمْ أُتْمَةً وَجَعَلَ الْوَارِثِينَ﴾ (٢).

(١) أنظر الجزء ٧٥ من هذا السفر.

(٢) سورة القصص ٥.

ردود كريمة على بعض الأجزاء الأخيرة من هذا السفر المبارك

١ - سماحة آية الله العظمى السيد علي الخامنئي/قائد الثورة الإسلامية/أيران

٢ - فضيلة إمام الأزهر.

٣ - سماحة مفتي جمهورية مصر العربية.

٤ - رئاسة منظمة التعاون الإسلامي.

٥ - فضيلة المفتي العام لسلطنة عمان.

٦ - سيادة أ.د. رئيس إتحاد المؤرخين العرب.

٧ - سعادة أ.د. مدير جامعة الملك فيصل/المملكة العربية

السعودية

٨ - سعادة أ.د. مدير جمعة كردفان/الجمهورية السودانية.

٩ - سعادة أ.د. مدير الجامعة الإسلامية/ المدينة المنورة.

١٠ - سعادة أ.د. مدير جامعة الأمير عبد القادر للعلوم

الإسلامية/الجمهورية الجزائرية.

١١ - سعادة أ.د. رئيس جامعة جدارا/ المملكة الأردنية

الهاشمية.

١٢ - سعادة أ.د. رئيس جامعة القادسية/جمهورية العراق.

بسمه تعالى

الأخ الكريم سماحة آية الله الشيخ صالح الطائي دام عزه
السلام عليكم

نتشرف باعلامكم بان نسخة من تفسير القرآن الكريم "الجزء ١٢٤"
المهداة من قبلكم الى سماحة آية الله العظمى السيد علي الخامنه اي قائد
الثورة الاسلامية قد سلمت الى مقامه وتقدم لكم بالشكر والتقدير.
نبتهل الى الله العلي القدير ان يوفقكم وان ينصر الأمة الاسلامية
وخاصة الشعب العراقي المسلم.

مكتب سماحة القائد

معاون العلاقات الدولية محسن قمي



جمهوری اسلامی ایران

شماره :

تاریخ :

پیست :

بسمه تعالى

برادر مکرم جناب آقای شیخ صالح الطائي دام عزه

سلام عليكم

احتراماً به اطلاع می رساند يك نسخه از تفسير قرآن "جزء ١٢٤"
اهدايي جنابعالی به حضرت آية الله العظمی خامنه أي مد ظله العالی
رهبر معظم انقلاب اسلامي، به محضر معظم له تقديم وموجب امتنان
شد.

از خداوند منان برای شما توفیق روزافزون و برای امت بزرگ
اسلامي به ویژه ملت مسلمان عراق بهروزی وسربلندی مسئلت
دارم.

دترمقام معظم رهبری

معاون ارتباطات بین الملل

محسن قمي

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر
مكتبة الإمام الأكبر
شيخ الأزهر

٢٩ / ٥
٨ / ٩ / ٢٠٠٨

السيد صاحب الفضيلة المرجع الديني الشيخ/صالح الطائي
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد،.....

فلقد تلقيت بحمد الله رسالتكم الرقيقة وبها الجزء الحادي
والخمسون في تفسير آية واحدة من سورة آل عمران من القرآن
الكريم.

نتضرع الى الله العلي القدير أن يلهمكم العلم النافع وان
يجعله في ميزان حسناتكم.
وشكر الله لكم حسن عملكم
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

شيخ الأزهر
مختار

(الدكتور/ محمد سيد طنطاوي)

في: ١٣ من صفر ١٤٢٩ هـ

الموافق: ٢٠ من فبراير ٢٠٠٨ م

مصطفى عباس

بسم الله الرحمن الرحيم

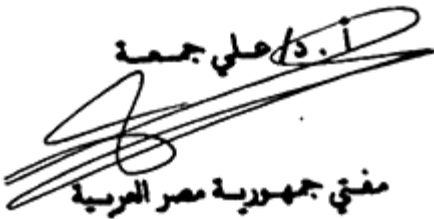


المرجع الديني الشيخ/صالح الطائي

صاحب أحسن تفسير للقرآن وأستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...وبعد،
فإنه ليسعدني أن أقدم لسيادتكم بخالص الشكر والتقدير
والإحترام على تفضلكم بإهدائنا نسخة من الجزء الثاني
والثمانين.

وأتمنى من الله أن يديم عليكم نعمة الصحة والعافية وأن يسبغ
عليكم نعمه ظاهرة وباطنه وان يوفقنا لما يحبه ويرضاه.
شاكرين لكم، ولكم تحياتي

أ. د. علي جمعة

مفتي جمهورية مصر العربية

ORGANISATION OF ISLAMIC COOPERATION
GENERAL SECRETARIAT

ORGANISATION DE COOPERATION ISLAMIQUE
SECRETARIAT GENERAL



OIC/CAB-01/2012 001010

جدة في: 23 FEB 2012

سماحة المرجع الديني الشيخ صالح الطائي حفظه الله ورعاه
صاحب أحسن تفسير للقرآن الكريم
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...وبعد،

فقد تسلمنا بيد الشكر والتقدير نسخة من كتاب "معالم الإيمان في تفسير القرآن" الجزء التسعون- الآية ١٣٤ من سورة آل عمران، والذي تفضلتم بإهدائه إلى معالي البروفسور أكمل الدين إحسان أوغلي، الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامي، ويشرفنا أن نتقدم إليكم بجزيل شكرنا على جهودكم المتواصلة لتفسير أي الذكر الحكيم، فجزاكم الله عنا خير الجزاء وبارك فيكم وفيما تقومون به من جهد مبارك خدمة للإسلام والمسلمين.

وتفضلوا بقبول وافر الشكر والتقدير.



مستشار الأمين العام



Sultanate of Oman
Ministry of Endowments
and Religious Affairs
Al Ifta Office



سُلْطَنَةُ عُومَانِ
وَزَارَةُ الْأَوْقَافِ وَالشَّيْءُونَ (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ)
مَكْتَبُ الْإِفْتَاءِ

الرقم :
التاريخ : ١٧ / ١ / ١٤٣٦ هـ
مرف : ١٦٥٠ / ١٦٥٠ / ١٦٥٠
٢٠١٤ / ١ / ١٦٥٠

الشيخ الدكتور / محمد الشيخ صالح الطائي المحترم

مدير مكتب المرجع الديني الشيخ صالح الطائي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،، وبعد :

فقد وصلتني رسائلكم الكريمة المرفقة بجزأين من "معالم الإيمان في تفسير القرآن"

العشرون بعد المائة والثاني والعشرون بعد المائة .

وإنني أشكركم على هديتكم وما تضمنته من كنوز قيمة لذكر الله الحكيم . . .

والله الموفق لما فيه الخير .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

أحمد بن محمد الخليلي
الفتي العام للسلطنة



Arab League
Union of The Arab
Historians
General Secretary



جَامِعَةُ الدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ
اتِّحَادُ الْمُؤَرِّخِينَ الْعَرَبِ
الْأَمَانَةُ الْعَامَّةُ

العدد : ت ٥١٤ /
التاريخ : ٧ صفر ١٤٣٧ هـ
الموافق : ٢٠١٥ / ١١ / ١٩ ميلادية

إلى / سماحة المرجع الديني للمسلمين الشيخ صالح الطائي المحترم
صاحب أحسن تفسير للقرآن
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق
م / شكر وتقدير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :
وأسأل الله تعالى ان يوفقكم ويحفظكم ويرعاكم انه سميع مجيب الدعاء.
عزيزي الشيخ :

تسلمت مع بالغ الشكر وعظيم التقدير والإمتنان هديتكم القيمة المتمثلة في الجزء الثاني والعشرين بعد المائة من (معالم الإيمان في تفسير القرآن) وما افاض به الله تعالى عليكم من فيض ايمانه العميق وبحر علمه الزاخر وهياً لكم بتوفيقه وتيسيره من الامكانيات الذاتية والعلمية لاصدار هذا الجزء الثمين من تفسير القرآن الكريم، داعياً الله تعالى ان يسبغ عليكم بنعمه الظاهرة والخفية وان يسبغ عليكم بنعمة الصحة والعافية التامة ليتمكنكم من تقديم المزيد من العطاء الفكري والعلمي في تفسير القرآن العظيم من أجل إستكمال هذا المشروع الموسوعي الخالد الذي لا نجد له نظيراً في العالم الإسلامي، وان يوسع عليكم ما فتح عليكم من نعمه في علم التفسير انه سميع مجيب الدعاء.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ع
اتحاد المؤرخين العرب
الأمانة العامة
بغداد

الأستاذ الدكتور محمد جاسم المشهداني
الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب
العميد/رئيس الهيئة العلمية لمعهد التاريخ العربي
والتراث العلمي للدراسات العليا



KINGDOM OF SAUDI ARABIA
Ministry of Higher Education
KING FAISAL UNIVERSITY
(037)



الجامعة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الملك فيصل
(٠٣٧)

الموضوع:

فضيلة الشيخ/ صالح الطائي الموقر

مكتب المرجع الديني وصاحب أحسن تفسير للقرآن

وأستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

ص.ب - ٢١١٦٨ مملكة البحرين

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد

تلقيت بكل الثناء والتقدير خطاب فضيلتكم رقم ١٥/١١٠٧
وتأريخ ٢٠١٥/٧/٢٠م المرفق طيه نسخة من كتاب بعنوان "معالم
الإيمان في تفسير القرآن" الجزء العشرين بعد المائة.

أشكر فضيلتكم جزيل الشكر على إهتمامكم الدائم بتزويد إدارة
الجامعة بهذه النسخة القيمة، ، وستحال بإذن الله تعالى إلى مكتبة
الجامعة ضمن ما فيها من كتب ومراجع ونشرات للإطلاع عليها، سائلاً
المولى عز وجل للجميع التوفيق والسداد.

وتقبلوا خالص تحياتي وتقديري،،،

مدير الجامعة

د. عبدالعزيز بن جمال الدين الساعاتي

١٤٣٦/١٠/٢٤

التاريخ :

الرقم:
المرفقات



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جامعة كردفان UNIVERSITY OF KORDOFAN

Our Ref:
Date:

مكتب المدير
Vice Chancellor Office

الرمز: ج ك/م ١٧/ح/٢
التاريخ: 2015/6/24م

السادة / مكتب المرجع الديني
الشيخ صالح الطائي
صاحب أحسن تفسير للقرآن

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تهديكم جامعة كردفان أطيب التحايا، ويسعدني ونحن نتعرض لنفحات شهر رمضان الفضيل أن تتوجه بالدعاء إلى المولى عز وجل بأن يتقبل منكم ومنا الصيام والقيام وصالح العمل، وأن يكلل مسعاكم النيل بالنجاح وأن يبارك في جهدكم المبارك لما يقوم به مكتب المرجع الديني من التفسير لآيات كتاب القرآن الكريم من خلال إصدارات (معالم الإيمان في تفسير القرآن)، التي ظلت تصلنا منكم تباعاً، وآخرها التي وصلتنا بموجب خطابكم الصادر بتاريخ ٢٠١٥/٥/١٨م، وهو خاص بالجزء السابع عشر بعد المائة من (معالم الإيمان في تفسير القرآن) لتفسير الآية الكريمة (يا أيها الذين آمنوا إن طيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين).

ولا يسعني إلا أن نجدد الشكر الجزيل والثناء العطر لكم على إهتمامكم المعهود بإهداء جامعة كردفان في شخصي بهذه الإصدارات القيمة، مقروناً بالدعاء لكم بالتوفيق والسداد لخدمة الدين وأن يجعل هذا العمل الصالح في ميزان حسناتكم مع خالص التمنيات بدوام الصحة والعافية.
وتفضلوا بقبول فائق عبارات التقدير والإحترام

أ.د. أحمد عبدالله عجب الدور
مدير جامعة كردفان



الرقم ١١٤٦ / ١ / ١٣٦
التاريخ ١٦ / ٢ / ١٤٣٧ هـ
الطبعة ١
الموضوع



الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
وزارة التعليم العالي
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
مكتب النشر
(١٠٣٦)

سلمه الله

معالي الشيخ/ صالح الطائي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وبعد

فأسال الله لمعاليتكم العون والتوفيق، ويسرني إفادتكم بأني تلقيت بكل تقدير وإمتنان إهداءكم للجامعة نسخة من الجزء التاسع بعد المائة من (معالم الإيمان في تفسير القرآن).

وإنني إذ أقدم لمعاليتكم بخالص الشكر والعرفان على هذا الإهداء، لأدعو الله العلي القدير أن يمدكم بعونه وتوفيقه، وأن يسدد خطاكم ويكمل أعمالكم بالنجاح إنه سميع مجيب يحفظكم الله ويرعاكم.

ولكم تحياتي وتقديري

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مدير الجامعة الإسلامية

أ. د / عبدالرحمن بن عبدالله السند

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

رئاسة الجامعة



قسنطينة في: 25/03/2015

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية
قسنطينة
الرجوع: ٠٠/٠٠/٢٠١٤

إلى السيد المحترم / الشيخ صالح الطائي
صاحب أحسن تفسير للقرآن
مكتب المرجع الديني

شكر وتقدير

تحية طيبة وبعد :

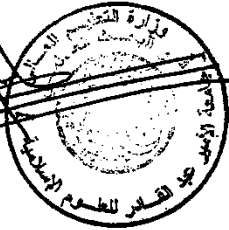
تلقينا نحن أ.د. / عبدالله بو خلخال مدير جامعة الأمير عبد القادر للعلوم
الإسلامية قسنطينة، هديتكم القيمة المتمثلة في كتاب (معالم الإيمان في
تفسير القرآن) الجزء الثالث عشر بعد المائة.

وإذ نعبر لكم عن شكرنا على هذه الإلتفاتة الكريمة، نهديكم نحن بدورنا
نسخة من مجلة الجامعة العدد ٣٣ ونسخة من نشرة أخبار الجامعة.

تقبلوا فائق الاحترام والتقدير.

مدير الجامعة

أ.د. عبدالله بو خلخال
رئيس الجامعة
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية



Jadara University

Office of the President



جامعة جدارا

مكتب الرئيس

Ref. _____

الرقم ١٦٩٠٠٨١٦٩

Date _____

التاريخ ١٤٤٢ م الموافق ٥ من شهر ربيع الثاني

سيادة الأخ الشيخ صالح الطائي المحترم

صاحب أحسن تفسير للقرآن الكريم

وأستاذ الفقه والأصول والأخلاق

بكل فخر واعتزاز تلقيت رسالتكم الموقرة التي تحمل العدد (٥٣٢) تاريخ ٢٦/٥/٢٠١٢م، ومرفقها الجزء التسعون من التفسير في الآية (١٣٣) من سورة آل عمران.

وانني إذ أشكركم جزيل الشكر وعظيم الإمتنان على اهدائكم هذا، سائلاً المولى عز وجل أن يديم عليكم نعمة الصحة والعافية، وأن يجعلكم سنداً وذخراً للأمة الإسلامية متمنياً لكم كل التقدم والإزدهار.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

رئيس الجامعة
أ. د محمد الطعامنة

Republic of Iraq
Ministry Of Higher Education
and Scientific Research
University of Al-Qadisiya
Chief of University Office



جُمْهُورِيَّةُ الْعِرَاقِ
وَزَارَةُ التَّعْلِيمِ الْعَالِي وَالْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ
جَامِعَةُ الْقَادِسِيَّةِ
مَكْتَبُ رَئِيسِ الْجَامِعَةِ

Ret :

Date:

العدد : ١٩٦ / ٢
التاريخ : ١٩ / ٢ / ٢٠١٥

إلى / مكتب المرجع الديني آية الله العظمى الشيخ صالح الطائي
المحترم

صاحب أحسن تفسير للقرآن

م/شكر على اهداء

تحية طيبة ...

تسلمنا ببالغ الشكر والتقدير الجزء السابع بعد المائة من التفسير وهو القسم الأول من تفسير (أن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس) شاكرين لكم اهداءكم متمنين لكم مزيداً من الإرتقاء والأزدهار والتطور.

... مع التقدير

أ.د. أحسان كاظم شريف القرشي

رئيس الجامعة

٢٠١٥/٢/

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة	٢٠٣	قوله ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾
٢٤	الآية ١٥٦/الأعراب واللغة	٢٠٦	قوله تعالى ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾
٢٨	في سياق الآيات	٢١٤	بحث بلاغي
١٢٠	إعجاز الآية الذاتي	٢٢٠	قوله تعالى ﴿أَوْ كَانُوا غُرَى﴾
١٢٩	إعجاز الآية الغيري	٢٢٩	قوله تعالى ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾
١٣٨	الآية سلاح	٢٣٣	بحث بلاغي
١٣٩	مفهوم الآية	٢٣٥	بحث أصولي
١٤٣	افاضات الآية	٢٣٩	قوله تعالى ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾
١٤٤	الآية لطف	٢٧٨	قانون ﴿ذَلِكَ حَسْرَةً﴾
١٤٦	الصلة بين أول وآخر الآية	٢٨١	قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَحْيِي وَيَمِيتُ﴾
١٥٥	قانون إكرام المسلمين في كل آية قرآنية	٢٨٣	بحث منطقي
١٧٧	إكرام الآية للمسلمين	٢٨٦	قانون المعجزة الجامعة للأنبياء
١٨٤	من غايات الآية	٢٩٢	قانون أول آية
١٩٢	صيغة الجمع في آية البحث	٢٩٣	قوله ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾
١٩٥	التفسير ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾	٣١٦	الفهرس
٢٠٢	علم المناسبة		